

الحضرة

رواية

تأليف

ألفت عبد الكريم

الحائزة على

جائزة الدولة في الأدب

طبعة ٢٠١٩

عبد الكريم، ألفت.

الحضرة : رواية/ألفت عبد الكريم؛- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج
الإعلامي، ٢٠١٨ .

٣٦٠ ص، ٢٠ سم

تدمك: ٦ ٧٥٢ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

الحضرة

رواية

تأليف

ألفت عبد الكريم

الحائزة على

جائزة الدولة في الأدب



رئيس مجلس الإدارة
سرمهات

عادل المصري

عضو مجلس الإدارة
ع. م. م. م.

الإشراف
ع. م. م. م.

نوران المصري

رقم الإيداع

٢٠١٨/٢٦٣١٧

الترقيم الدولي

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧٥٢-٦

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٩

الكتاب : الحضرة

المؤلف : ألفت عبد الكريم

الغلاف : أحمد الصباغ

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل - المهندسين - الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٠٤٦٥٨٥٠ - ٣٣٠٤٢٤٧١ - ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

اللهراء

إلى مهاب..

أحد شخصيات الرواية

الذي أسلم نفسه لعبث

فاستعبده الأوهام.

.

لعله يوماً يتحرر

ويعرف أن الحضرة في الرأس

وأن العقل هو المريد الحقيقي للأفكار.

●●●

عيناه مُعلقتان بين الأرض والسماء، أشعثُ الرأسِ مُتَهَدِّلاً، يمشي
على الأرض بخطواتٍ وئيدة، جلبابه الواسع مُرقع بقطع من القماش
على شاكلةٍ من الألوان، المسابح الطويلة تلتف حول رقبته، ولسانه
يُتمم بكلماتٍ لا تكادُ تصلُ أُذنيه.

يجوبُ السَّاحةَ مُتلفتًا عن اليمينِ وعن اليسارِ، يتأملُ الوجوه،
فيحكي لأصحابها عن أشياءٍ حدثت، ويُنبأهم بِأُخرى لم تحدثُ بعد.
بين البُشرياتِ والمُنذراتِ يتأرجحُ ثم يمضي على الطريق، يَدُوسُ
عوالمًا بعيدة، فخطاه قصيرةٌ، وأنفاسُه طويلةٌ تطوف مدًى لا ينكشف
لِلناظرين.

يزعق بصوتٍ عالٍ: جاااالك... جاي.

أحيانًا يتوه بين الزحام، يختفي كالزجاج ثم يعود فيظهر عن بُعدٍ،
وأحيانًا يذوب كفص الملح في الماء.

هو بين الأرضِ والسماءِ يَنقطع عن الحقيقة فيُصبح زائرَ الأمواتِ
بين الأحياء أو يصير من عالم الأحياء زائرًا للأموات، فبين العالمينِ
شعرةٌ تتعلق بها الواصلون ويتمزق على نصلها المُنتطعون.



رفع الأذان الشيخ حسن — رحمه الله — كان هو مؤذن الحي، وكانت هي لم تزل طفلة صغيرة تقف بجانب الشباك، تشب على أطراف أصابعها فترى مئذنة خضراء مُضيئة يحيطها الظلام، العالم بالنسبة لها كان يبدو كبيراً.. كبيراً.

عُرفتَان ضيقتان، وصالة صغيرة ومطبخ وحمام، كانت شقتهم ذات الباب الخشبي الذي تعلوه شُرّاعة حديدية.

عدد البلاط كان كثيراً.. كثيراً لدرجة أن يسعها لتجري هنا وهناك وراء أختها انتصار.

ويسع وداد لتحنى فوق أربع وتحملهما معاً فوق ظهرها، تنظر خلفها فبتبسم وتبتسمان، وعندما يعلو صوت خطوات قادمة فوق السلم، تتسابقان النزول.. فتقع إحداهما قبل أختها على الأرض، وتقوم كل منهما على عجل: «بابا جيه...».

يونس كان يحب بنتيه، طيات جيبه دائماً كانت مُحملة بالحلوى.. والعسلية من أجلهما.

كان لقدميه بالنسبة لوداد طلة تُنسيها الأحزان.

- إزيك يا وداد؟

فتهز رأسها، وقد نست متاعب يومٍ طويل: أهلاً يونس.. أجهز العشا؟

حلوة كانت اللمة حول طبلية من الخشب ورثها يونس عن جده
«عطوة» فتناصلت على أصالة تعطي الطعام مذاق الرضا، فالرضا هو
الشيء الذي تعلمه يونس في الحياة ليضمن أنها تسير فوق عاتقه دون
أن يكل.

يذكر يونس ذلك اليوم جيداً، يذكر ارتباك فرحته بخبر حمل
جديد في بطن وداد زوجته.

هو يستحي أن يتمنى من ربه ولداً، لكنه حقاً ينتظر ذلك العطاء،
حين وانتصار كانتا نهاية أمل، لكن الله أراد.. فلعله يخبئ بين أقداره
المُراد.

يومها طبطب على كتف وداد الخائفة: حمل تاني.. مش عارفه
إزاي ده حصل؟!

داعبها: مش عارفة.. دانت ست العارفين.

ضحكا.. طمأنها: دي إرادة ربنا.. إن شاء الله تقومي بالسلامة.

لم يزل يذكر ابتسامتها.. وصوت صراخها يوم الولادة: الحقني يا
يونس.. الحقني.. بولد.

تحقق الحلم وجاء مهاب، نزل من بطنها في برنس شفاف،
فتباركوا بذلك.. اعتبروه بشارة.. وبأن الله سيرعاه، تفاءلوا أن شأنه
سيصبح عظيماً أو تلك أمانئهم.

لم يكن مُهاب بالنسبة لهما مجرد ولد، هو حلم الاسم المُمتد..
هو السند، وهو العزوة على عادة الأجداد.

تذكر وداد يوم أفاقت من رقدها، فرقمته بعينين لم تزلأ مُسهدتين،
أخبرها يونس: ولديا وداد.. حمد الله عالسلامة.

انفرت شفتها عن ابتسامة واهنة، تمتت بعينين بين غمضة
وانتباهه:

لما قالوا دا ولـــــــد

اتشــــد ضهــــري وانــــســــد

نظرت لحنين وانتصار الواقفتين بجانبها:

ولما قالوا دي بنية

قلت الحبيبة أهـي جاـيه

تعجن لــــي وتخبز لي

وتملا عليا البيت ميه

راحت في ثبات.. همس يونس: هس.. يا لالا سيوها ترتاح.

دخل يجهز لها طعاما يسد رمقها، ويشد وهنها.. يومها لم يأخذه
من الانهماك في الطبخ سوى طرقات الباب، فتح على ابتسامة جده
«عطوة» يلتقط أنفاسه: ولديا نوس.. صح؟!

ضحك يونس: مين قالك يا جدي؟!

جلس على أريكة في الصالة مد قدميه المُتعبتين من أثر المشوار:

وأنا عمر أحلامي خبيت يا يونس؟!

دنا جايلك من بلدنا مشي، برقت عينا يونس: مشي يا جدي.

هز رأسه: قمت من النوم حلمات بيك.. شديت العباية على

كتفي والشد على راسي ومسكت شط الترعة واني ماشي، ماشي لما
عند آخرها عرفت إني قربت عليك.

ابتسم يونس.. قَبْلَ رأسه: ربنا يدملك الصحة يا جدي.

كانت حنين يوم ميلاده لم تبلغ السابعة من العمر، ولكنه عينيها

تطلان بفرحة أزمان طالت، راحت تلف حوله في مهده الأبيض،

تتحسس بأصابعها أنامله الناعمة، تتأمل ملامحه، نظرت ليونس بابتسامة

لم ينسها: عايزه أخويا يبقى اسمه مُهاب.

أما انتصار التي تصغرها بعامين فلم يشغلها سوى أن تجمع ألعابها

في صندوق وتخفيه عن ذلك الضيف الجديد الذي ربما يشاركها فيه.



دراجةٌ بعجلتين .. وبدالين .. يركبها في الصباح لبدأ المشوار نفس
المشوار الذي لم يَمَلْه، مادام الرضا يسكن قلبه.

لم تكن دراجته مُجرد دراجة تحمله وتسير بسرعة تبديله فوقها،
فالأشياء مع يونس تتنفس الحياة، الأشياء معه تصبح كائنات؛ فلروحه
سر السحر.

الشارع على عادته من الزحام الصباحي .. في موعد ذهاب الموظفين
لأعمالهم.

يهمس لها أن أسرع، فتتلوى بين زجراجات الطريق ليطرف عيناه
وهو هناك .. على مكتبه.

المدينة بالنسبة ليونس كانت عالمًا جديدًا أتى إليه بعد طفولةٍ
قضاها في قريةٍ ليست نائية، حيث كان يعيش مع جده «عطوه».

يواصل السير هو على بدالات دراجته يذكر أيام صباه .. في قريته
«المرازيق» على ضفاف النيل .. الناس هناك حقًا مرازيق، رزقهم الله من الخير
كثيرًا .. فحباهم بطيبة القلب وصفاء النفس .. وخفه الظل .. وكرم الأيادي.

بيت واسع أساسه من الحجر الأبيض وجدرانُه من اللبن، وكنف
جده عطوة الذي احتضن يونس صغيرًا يتيماً، تسلى به عن وجيعه
وحديثه، فمُنذُ أن فارقه زوجته لم يأنس بغير يونس، الأمسيات مع جده
كانت حلوة، والدراجة تسير على حلاوة ذكراها.

يذكر يونس يوم صحبه جده لدكان القمّاش في أطراف البلدة.. قطع أمتارًا قليلة من ثوبٍ صوفي لونه رمادي، وصحبه للخياط صغيرًا، وكان يونس ينصت لصوت الماكينة مُتأملًا قاعدتها العريضة، يومها قال جده «عطوه»: اعمل ليونس مربلتين حلوين.. هقدم له في المدرسة السنة دي.

لم يوافق الخياط على هذه الفكرة، أبناء القرية كان عليهم أن يذهبوا للغيطان، فيتعلمون من أمهم الأرض.. يرعونها.. يفلحونها، فلماذا يشد حسنين عن ذلك؟!

لكن عطوة كان يعقد الأمل بناحية يونس، كان يحبه ويحلم أن يراه يومًا «بيه»، لو طال به العمر حتى يراه.

يومها كان يونس ساكتًا.. يتبادل النظرات بين جده والخياط، يعي بعض العبارات ويفهمها ويسمع بعضها بلا اهتمام، لكن الحوار انتهى بأن أخذ الخياط مقاسات يونس طولًا وعرضًا ليفصل له المربلتين، فعرف أنه قريبًا سيصبح في الصف الأول الابتدائي.

خرجًا معًا.. كان «الحمار» ينتظرهما أمام الدكان، ركبه يونس خلف جده «فذلك» يُفرحه كثيرًا، وكانت ضحكاته تملو وهو يزعق «شي.. شي يا حمار».

الآن هو يتسم على بدالات دراجته، يتبه حوله ليدرك حوله، فهي لا تحفظ الطريق كما كان يفعل حماره العزيز.

طرقاا القرية كانت آمنة.. لا زحام؁ أما الآن فالمدينة على
مصراعيها تتسع للخطوات.

مُنذ أن جاء إليها؁ وسكن حيًّا شعبيًّا مع زوجته وداد وهو يستنشق
ذكريات قريته؁ على أمل العودة لها من جديد.



لم يكن ذلك الحي الشعبي بالنسبة لوداد وطن، فهي من وسط
سكانه، على شاكلةٍ غير أشكالهم.

بينهم تعيش، كالهدهد بين الغربان، كلاهما طائر، بيتها الصغير
سياج يحيط بها.. وبأولادها، ستارٍ يحجبهم عن ذلك العالم المحيط
الذي لا ينخرطون فيه أبدًا.

الحياة في الأحياء الشعبية ذات الطابع العشوائي تمتزج فيها
الأشكال بالألوان، ويتشرُّهُنَّاك شاكلات من البشر وحوايات من
السلوك الإنساني.

وداد دائمةً كانت سيدة الموقف، فأُسرتها محارة بين صدفتين في
قلب البحر، هي على قدرٍ من الذكاء الذي يجعلها تستطيع أن ترعى
حق الجيرة، فحسب هي تعرف أن «الاقتصار عبادة» فاتخذته عادة.

من خلف زجاج النافذة تسمع حكايات، وحكايات النهار هو
تسلية النسوة في نقل الأخبار وتبادل المُنافسات.

واحدة تتباهى بطعام الأمس الذي طهته على نار هادئة وأصبح
مُتسبك، وواحدة تعرض ما اشترته من قطعة قטיפه غالية، وثالثة تحكي
عن جبروتها عندما أجبرت زوجها على شراء غسالة جديدة؛ فهي لا
تقل عن أخته ولا بيته أقل من بيتها.

حكايات وحكايات.. أسرار بيوت ينقلها الهواء عن الشرفات والنوافذ، ووداد خلف نافذة مُتعلقة، تستحي أن تفتحها فتشتبك عن غير قصد في طرف حديث لا تريده.

هي تعرف حُرمة البيت، تعرف أن كل ما وراء الجدران سر يجب أن تصونه وتحفظه عن الأعين؛ فلا تلوكه ألسنة.

لا أحد يعرف عنها شيئاً.. لا أحد يعرف عنها شيئاً، لا أحد يعرف ماذا أكلت اليوم ولا ماذا اشترت بالأمس ولا ما تنويه للغد.

هي بين أولادها ملكة مُتوجة وشقتها الصغيرة قصر يسعهم؛ فلا يضيق بهم يوماً ما دام براح قلب وداد لا يضيق.

الوقت المُفضل لفتح النافذة بالنسبة لها بعد صلاة الفجر، حيث العيون لا زالت نائمة، إشراقة الشمس تبعث الدفء الصباحي، وبنية الحمام العالية في الجهة المُقابلة ترقبها عن بُعد.

الإذاعة هي عشق وداد، الأغنيات تُسليها وهي تعد ليونس فطوراً وكوباً من الشاي الممزوج بالحليب.



نوال هي الجارة المُقابلة لوداد، نافذتها يبدو منه الصليب مُعلّقاً
على الحائط، أهل الشارع جميعهم يحبون نوال، فهي على خفة ظلٍ
ومسحة من القبول؛ فلها بشرة بيضاء، عيناها سوداوتان.. شعرها
القصير ملون يلون الحنة الحمراء، جسدها مُمتلئ.. وصوتها جهور
ينبعث بحضور قوي.

هي بين الجيران أول من تُشارك في الأفراح، وهي السبّاقة
لمشاطرات العزاء، لسانها دائماً على أطراف كلمات معسولة لمن
تعرفه ومن لا تعرفه، تذكر الجميع أننا جميعاً أخوة وأنها بينهم كأنها لا
تُخالفهم الملة؛ فالدين لله.. والمحبة للجميع.

زوج نوال هو «الخواجة صبحي»، يمتلك سيارة ينقل بها الزبائن،
فهو أشهر سائقي الموقف الكبير الذي في نهاية الشارع.

أحياناً يصحب ابنه الأكبر سمعان فيُكلفه بجمع الأجرة من
الركاب وذلك في العطلات الصيفية، أما ابنته الصُغرى حنّ، فكان لها
الحظ الأوفر من الدلال، من أجلها يعود بالحلوى والمسليات، ومعها
يسهر الأمسيات بين ضحكٍ وحكايات، سمعان وحنّ هما أمل نوال..
وصبحي في الحياة.



الشارع في حضرة فرح إحدى بناته، فهكذا أفرحهم في الشوارع
حضرته تكون، على الناصية نصبوا مسرحاً خشبياً عليه «الكوشة»،
بها العريس والعروسة يجلسان فوق كرسيين اكتسيا بكسوة زرقاء من
القטיפنة.

الكراسي الخشبية بالشارع بين دوائر مُلتفة، وصفوف متوالية، أفرع
من النور الملونة تشابك بين الشرفات، أعداد المُهنيين تزداد.

الصخب يعلو بالطبل والزمير، شباب الحي يتبادلون الرقصات،
البنات بين هزرات وأغنيات.

زجاجات البيرة تفرغ، تتراص في صناديق فيخلو مكانها لأخرى
مُمتلئة، رائحة الحشيش تفوح.

نسوة الحي على مجموعات يتبادلن الحديث، كل واحدة تحكي
في حكاية لا تخص صاحبته، تلوح بين وقت وآخر لمن يمر من أهل
العروس.

الليل يطول، والصخب يطول، والأدخنة تفوح بالروائح.

وكله سمع.. هووس، الراقصة ضواحي بصحبة فرقتها الموسيقية
وآلاتهم الشعبية، هي على امتلاءٍ جسدٍ بض يهتز بلا مقدمات، فجأة
تأخذها الجلالة فتصبح أجزاءها كل منها على حالة، بدلتها ليست على
عراءٍ كامل، فهي ليست مُرخصة، وهي لم تنسَ أنها في الشارع لذلك

فهي بين بين، على استعداد لأي ظرف يطرأ، فالحكومة أحياناً تختتم هذه السهرات.

فُستانها الأسود ليس مُختصرًا، فضواحي لا خصر لها، هي كتله بيضاء.. طرية، تنكشف من وراء سواد، سمكه شفاف يستر حمالة صدرٍ وما عداها، هو على تمام انكشاف.

فوق المسرح تروح وتجيئ تتمايل عن اليمين وعن الشمال فتتمايل معها أدمغة تطل من بين الأدخنة، تترنح وسط الروائح الفواحة بالكيف وأصحاب الكيف.

ضواحي تلتمس الأعذار فهي للحاضرين مزار، فمن أراد التبرك بها عليه أن يطوي في يده ورقة تحمل رقمًا مُميزًا بجنيهاً ويمدها بصدرها فيخرجها من عنده على لحظةٍ راحةٍ هو وحده يعلمها، لا على ضواحي سوى الانتظار.

فلتمهل مريديها لحظات راحتهم عندها، ولتُداريهم وراء ارتفاع صوتها تارة بالغناء، وتارة بالتهاني، وتارة بطلب النقطة.



وداد في داخل شقتها، النوافذ مُغلقة بزجاج عازل، صوت التلفاز يعلو على أحد البرامج، حنين وانتصار بجانبها يستمتعان بالمشاهدة، ومهاب في حجرته يُواصل المذاكرة.

يونس في سريرهِ مُمدًّا.. من أثر تعب نهاره يرتاح، على موعد مع سهرة بصحبة وداد والأولاد، فالخميس موعدهم الليلي بحضرة يونس في سهرة عشاء يُجهزه بنفسه؛ فالمطبخ من هوايات يونس المُفضلة.

تعلم من جده أن الأكل كيف، وأن الرجال على أمزجة ما يهوون من الأصناف تستقيم رؤوسهم وإلا تهوى من فوق أجسامهم ويختل توازنها.

(اليخني بالبصل).. (الكبدة والمخ).. (الكوارع) وكثير من الأصناف لها رائحة مُميزة بأيدي يونس إذا ما قرر أن يدخل المطبخ.

هو يُنافس وداد فرحة أولادهما بمذاق الطعام، وعندما يسأل: أكلي أحلى ولا أكل ماما.. تدور بينهما نظرات المكر والخجل؛ فمذاق أطعمة يونس أشهى، ولكن طعام وداد هو الأصل بالنسبة لهم؛ فالمطبخ عند يونس وقت للتسلية إذا ما سمحت الظروف، فالحكمة إذن ألا نخسر الدائم من أجل العابر، إذن فليرتضي يونس الغمزة من عين حنين له وهي تخبره: لا، أكل ماما أحلى.

أما انتصار فالمصلحة تحركها دون خجل: ماما طبعا أكلها أحلى.

مهاب لا يزال صغيرًا فلا عليه، إذا اكتفى بالضحك بينهم.

الأوقات على حلاوتها وهم معًا دائمًا تمر سريعة.



مصباح خافت.. وصوت الماكينة يعلو مع حركة قدمه على الدواسة، أحذية وحقائب، نعال وأحزمة وجلود، أريكة انتظار يعلوها حُفاه، كل واحدٍ ينتظر دوره الذي أوشك لإتمام إصلاح حذائه.

عم حسن.. هكذا اعتادوا أن يُنادوه رغم أنه ليس عجوزًا، ربما لضخامته.. وعافيته التي تنط من عينيه الضاحكتين دائمًا، وربما لأنهم بدونه لا يستطيعون أن يُواصلوا المسير؛ فهو الذي يُفصل للحي الأحذية، والضمان مفتوح.. فمتى انقطعت أو تمزقت ليعودوا إليه بها فيُصلحها من جديد.

عم حسن له وجه أسمر مُستدير على تربيعة وله شارب كثيف، عينان سوداوتان تحت حاجبين مُنعقدين.. طويل القامة مُمتلى القوام، دائمًا يُسلي زبائنه بحكايات لا تنتهي.

محل عم حسن مفتوح طوال الأسبوع، فبين قدمه ودواسة الماكينة لغة تحل بها الأوقات رغم المشقة.

عم حسن يتسلى بمذيع قديم له إريل طويل، مؤشراته على خشخشات تعود عليها، فمن بينها يُميز كلمات الأغاني ويدندن على ألحانها عندما يخبره زبون: اظفي الوش ده يا عم حسن.

ينهره: دي أغنية الست، أنت مش سامع ولا إيه؟ دي أحلى أغانيها «أنت عمري».

ربما ينسي الست وينسي الخشخشة ويُواصل هو الغناء، وهو يدق
مسمار في نعلٍ خشبي.

على الزبون أن ينصاع لمزاج عم حسن وإلا كان الحذاء مصيره،
وربما لو غضب عم حسن كان نصيبه خبطة نعل في رأسه لأنه قاطعه
وهو يُغني.

زبائن عم حسن أهل وجيران، ليسوا مجرد أصحاب نعالٍ تحتاج
لإصلاح؛ فالحكاوي بينهم وبين عم حسن لا تنقطع، ما دام هو ليس
مشغولاً بأغنية أو مُسلسل إذاعي.



النسبة في مدخل القهوة، عن اليمين، حامل من الرخام بجانبه
شعلتين يعلو إحداهما براد أزرق كبير من الصاج ويعلو الأخرى وعاء
من الألومنيوم بكلاهما يغلي الماء استعدادًا للصب منه ليكون الشاي
«على ميه بيضا».

على الحائط خلف الحامل الرخامي أرفف فوقها أكواب زجاجية
ماركة «يس» فغيرها لا يكون للشاي نفس الطعم، وعلى رف آخر
أكواب الخمسينة لمن يهوى «شاي في الخمسينة».

الشيخة تتراص على الأرض بجوار مشعل يتجمر عليه الفحم
ليكون جاهزًا للزبون، فقط توضع قطعة الفحم على المعسل «الزغلول»
فتفوح الرائحة ويستمر الشد ويعلو صوت الكركرة.

أمام القهوة تتراص كراسي خشبية على قاعدة كل كرسي ختم
«الزايط» فهذا المصنع هو الماركة المضمونة لمعلمين القهوة، فضلًا
عن المستهلكين جميعًا، بين كل كرسيين منضدة عليها مفرش من
المشمع السميك الملون لزوم الديكور.

قطع الدومنا هي اللعبة المفضلة لمرتادي القهوة، أما الطاولة فلها
زبونها المعروف.

الأمسيات تمر بين الأدخنة، وتكّات الدومنا.. ودوش.. ويك، الزهر
مرة لمن له، ومرة لمن عليه، وإذا حضر الشيطان وضاعت الثقة وتفحلت
الظنون بأن أحدًا كان «يخّم» أي يخدع صاحبه، قامت الحركة من حيث
لا يدري أحدًا أين كانت بدايتها ولا من أين اشتعلت شرارتها.

ساعتها تنهاوى ضربات بالكراسي ويعلو صوت انكسار الأكواب الزجاجية، وتظل الرؤوس من الشرفات والنوافذ ويصبح الشارع ليس به موضع لقدم على تشابك بين رؤوس تنهوي وأجسام تقفز، وعصيان تنهاوى.

ضربات طائشة تصيب من تصيب، فلكل من كان حاضراً من الضرب أو السباب نصيب، حتى يتدخل أهل الخير فترفع بعض الأصوات: صلوا على النبي يا جماعة، اللهم أخذيك يا شيطان.

ربما بعد ذلك يهدأ الحال، ولكن بلا شك خذيان الشيطان ليس بلا خسائر، فلا بُد من علامة بموسٍ خرج من تحت لسان أحدهم فمزع خد صاحبه، أو كرسي طاش في رأسٍ فشجّها على إثر ذلك أو مثله، تنفض العاركة بعيداً عن الشرطة.

«فحماده وينجز» صاحب القهوة لا يستدعي الشرطة، هو يأخذ حقه بيديه، يجمع شتات أشياءه، كراسيه المَكْسَرَة رغم أنها من ماركة «الزايط»، الزجاج المنشور والشيش المُحطّطة.

ثم يقف في الشارع ويزعق: والله يا ولاد الرقاصة لو ما رجعت القهوة صاج سليم ما في راجل منكم قاعد هنا هلبسكوا طُرح، حاجتي ترجع سليمة.

بعدها يتجمع حوله الرجال ليعيدوه لهدوئه: اهدئ يا معلم حماده، إيه يا راجل داحنا أهل اللي يخسرك يخسرنا، كلنا هنشيل الليلة.

يتطوع أحدهم: أنا بنفسى هنزل اجييلك حاجات جديدة، يلا يا رجاله بسم الله اللي يحب النبي يشخسح جييه.



الخواجة صبحي يفترش الأرض مُمدًا تحت سيارته، فالعُطل ربما يكون في الشكمان، أو في جُزء خفي هو وحده يدره، ومن غيره يدري تفاصيلها؟

أنفاسه تعلقو: يا يسوع.. نقاط الزيت تسقط فوق ملابسه تمتزج بالتراب المُتناثر فوقها، تتلجج بجسده.. وهو لا يُبالي.

الشحم يلف يديه الطيبتين غارقًا في مُحاولات إصلاحها؛ فهي مصدر عيشه ورفيقة طريقه.

المغارب يأخذ خُطاه للمنزل، يدها مُسودتان من أثر ما كان، ملابسه مُشحمة بزيوت لزجة، نوال ترقبه من الشُرفة بعينين زائغتين كادت لو تأمره أن يعود حيث جاء.

مرات كثيرة نبهت عليه أن يُبدل ملابسه قبل العودة للشارع، هي تتلفت عن اليمين وعن اليسار، تتأكد أن الشُرفات لا أحد بها.. ترجو لو أنها تستطيع أن تُوقف الزمن لدقائق حتى يمر صبحي فلا يراه أحد على هذه الهيئة الرثة.

صبحي لم يكن يعنيه ذلك كثيرًا، هو لم يعلن يومًا أنه طبيبًا.. ولا حتى مُوظفًا، هو يعرف علم الجميع بأنه سائق عربية تنقل الركاب، فلماذا يُداري شحومها التي التصقت بيديه وملابسه؟!

طرق الباب، فتحت له نوال، انفجرت فيه كأنها انتظرت صعوده
على عجل ما يعبئها: قلتك ميت مرة يا صبحي ما تدخلش الشارع
بالمنظر ده.

التقط أنفاسه: مش عاجبك منظري يا نوال؟!

- مش هيعجب الناس يا صبحي، شوف يونس وهو راجع
بالقميص والبنطلون زي الفل، ولا شوف المعلم حماده وعبايته اللي
بتشف.

تركها مُتجهًا للحمام: ده موظف.. ومعلم، أنا بقى الأسطى صبحي
يا نوال.

نفث غيظها: مفيش فايده.. تعبت منك.



اليوم الأخير في الإجازة الصيفية، حنَّه في بيت حنين، وداد تحيك
لهما الزبي المدرسي على نفس الشاكلة؛ مريلتين من الكارو الأحمر
لكل واحدة، بقى تجهيز الجوارب البيضاء وشرائط الشعر الزرقاء،
الأحذية والحقائب تم شراؤها قبل أيام.

صباح اليوم الأول في العام الدراسي الجديد.. أصابع حنين وحنَّة
تشبكان وخطواتهما، تتجاوزان الطريق إلى المدرسة عند نهاية الشارع
الذي تسكنانه.

الأطفال على فرحة الارتباك يقفون في جماعات أمام الباب
الحديدي الكبير، ينتظرون لحظة استقبال الفناء لقدومهم بعد غياب
شهور الإجازة.

روائح الجو ترسل ابتسامات نفس الذكرى لأعوام سابقة، الشمس
تغيم فجأة وتعود لترسل أشعتها الذهبية، الزهور على أغصانها في
المشتل المُجاور للمدرسة ترسل روائح عطورها، والبُستاني على باب
المشتل يشهد الزحام مُبتسمًا: كل سنه وانتوا طيبين يا ولاد.

بائع الحرنكش والدوم تجر عربته الصغيرة، يجوب بينهم:
الحرنكش الحلو.. الدوم الجامد.

منهم من يشتري.. ومنهم من يتوجه لبائع الحلوى على أثر
نداءاتها: العسلية الحلوة للحلوين.

حِنةٌ وحنينٌ تتجاوران نفس المقعد، بشراكة نفس الحصص،
لا تُفرقهما سوى حصة الدين، حيث تحمل حِنة كتابها وتذهب مع
المسيحيين فتتظر حنين عودتها.

يومًا عرضت عليها أن يتشاركان حصة الدين الإسلامي مرة، ومرة
يتشاركان حصة الدين المسيحي.

ضحكت حِنة، لم ترق لها الفكرة، أقنعتها أن ذلك لا يجوز، ولأن
أصدقاءها المسيحيين في انتظارها كل مرة.

الفسحة هي الموعد الوحيد الذي تلتقي بهما انتصار، فهي
تصغرهما بعامين، وفي فصل آخر تقضي يومها الدراسي.

لها أصحاب يُشاركونها الألعاب في الفُسحة، الوقت الذي تشعر
فيه بالسعادة الحقيقية هو حصة الموسيقى؛ فهي تهوى العزف والغناء
فقط لأنها تحلم بالشهرة.

هي على رأس فريق يُشارك في المُسابقات ويحوز المراكز المرموقة،
تمنت لو أنها تصبح مُطربة، أو عازفة في فرقة شهيرة، الشهرة هي حلم
انتصار الذي يُراود مناماتها.



فوق السرير الخشبي.. وعلى نفس زجراجات صوته وهي ترقد فوقه،
لا تدري ماذا تنتظر.. يومها، تلقت من أمها أمراً: نامي هنا يا وداد.

أغلقت الحجرة عليها، تركتها حائرة لا تدري ماذا تنتظر، الأفكار
تُراودها أن ساعة أجلبها على وشك، نبضات قلبها تعلو بسرعة لم
تعهد لها، أنفاسها كادت تنطبق

هابطة وهي على نفس الصمت الذي اعتادت أن يركبها.

طُرق باب الحجرة، لم يكن الطارق أمها في ذلك اليوم العصيب،
ولم تنس وداد وجه تلك السيدة السمينة التي تحمل حقيبة صغيرة،
كانت ترتدي جلباباً أسود ومنديل رأس بنفسجي يعتليه طرحة سوداء
تلف حول وجهها الذي أثقله اللحم، عيناها كادت تفوران، تغراناها من
بؤرتيها فوق خدين مُنتفخين.

اعتدلت وداد من رقدتها، ولكن صوت السيدة الغليظ: ارقدي..
ارقدي يا حبيتي خلينا نخلص، ارفعي الجلبية يا وداد.

مدت يدها ترفع لها طرف جلبيتها، همت وداد بالصراخ ولكنها
زعقت بها فانخرست: ارقدي يا بنت.

استسلمت وداد لساعة ألم أصبحت بها على ذاكرة عوراء، لم
تنس ما حدث، ولم تذكر سوى نزيف حدث لها على أثر عملية ختان
قاسية بلا قطرة بنج واحدة.

قلب وداد أصابته عُقدة لم ينحل منها، فهي منذ ذلك اليوم على رجفةٍ لم تُغادرها، الأيام تمر ولم تُغادرها، الشهور تمر.. ولم تُغادرها، السنون تمر وها هي وداد تستيقظ على صرخة ذات الكابوس الذي يُطاردها بين الحين والحين بقطراتٍ دماءٍ تنصب في عينيها ساخنة فتصحو مذعورة تستعِذ بالله.

يد يونس بجانبها على السرير يرتها: مالك.. مالك يا وداد؟!

ناولها شربة ماء: أعوذ بالله.. مالك يا حبيبي؟!

تلتقط أنفاسها: مفيش حاجة يا يونس، كابوس.. كابوس وحش قوي، الحمد لله.. نام.. نام يا حبيبي أنا كويسة.



الأحد.. الموعد الأسبوعي للقداس بكنيسة العدرا، حين ترقب
حَنَّهُ من الشرفة في الصباح، تلوح لها وهي تسير مع سمعان بصحبة
نوال وصبحي.

الأجراس هناك تدق، صوتهها يرتفع بالفرح في حضرة المسيح
بين المصلين، رائحة البخور تفوح، تصعد لسماوات المجد بطلبات
المُشتاقين المُنادين: أن كن بيننا يا يسوع لا تتركنا وحدنا في البرية،
نشكرك على الفداء، ونشكرك على العطاء، ونطمع منك في المزيد..
نطمع فيك أن تشفي مرضانا وتنيح موتانا، أن ترعانا.

راحوا يصلون: ابانا الذي في السموات .. ليتقدس اسمك.. ليأتي
ملكوتك.. لتكون مشييتك كما في السماء كذلك علي الارض

خبزنا الذي للغد اعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن
للمذنبين الينا ولا تدخلنا في تجربة ولكن نجنا من الشرير بالمسيح ربنا
اليسوع

لأن لك الملك والقوة والمجد الي الابد آمين



حينه تحمل السعف الأخضر، تعود فرحانة مُمتلئة بروح المحبة..
والسلام، سمعان يُصاحبها الخطوات، حيث صعد نوال وصبحي
درجات السلم.

وظل سمعان يبطئ الخطوات.. هو لمح حنين عن بُعد عائدة نحو
الشارع.

اقترب يسلم عليها: ازيك يا حنين؟!

بادلته ابتسامة براءتها: أهلاً يا سمعان.. فين حنة؟

- فوق.. لسه راجعين من الكنيسة.

ناولها عوداً من السعف الأخضر: خدي ده.. محبة وبركة.

فرحت: الله.. بحبه قوي، شكرًا.

سمعان يرقب نظراتها الطفولية.. يتأملها، ولا زالت صغيرة، فينحف
في وجدانه تقاسيم وجهها.. طنين صوتها، بلا أية نوايا هي الآن تسكن
وعى حاضره، لمجهولات مُستقبل لا يدرىه، يتركها ويصعد الدرجات
مُحدثاً نفسه: جميلة قوي حنين.. غير كل البنات.

صوت صبحي يعلو مُنادياً: سمعان.. سمعان.

يسرع الخُطى.. ينط الدرجات: أيوه يا بويا أنا طالع.

لم يكن يعلم أنه يرقبهما من سور الشرفة.

- رأس صبحي تلف بها الأفكار، سمعان لم يزل صغيراً، ولكن الأمر لا يجب أن يمر مر الكرام، هو يكبر حنين بسنوات قليلة لا تتعدى الثلاث، ولكن الاحتياط واجب.

يُراجع نفسه: لازلوا أطفالاً.

يتردد: بل هما على أعتاب مُراهقةٍ أوشكت على الاشتعال.

الحيرة تأخذه، وتأخذه العصبية: نوال.. نوال.

تأتيه بسرعة: إيه يا صبحي! الأكل على النار بالراحة.

ينفث سيجارته: خلي ابنك يخف عن حنين شوية علميه الأدب.. وعرفيه ما يكلمش بنات في الشارع.

تضحك: حنين.. النبي دانت رايق، دي متربيه معاه يا راجل، دي زيها زي حنة.

يثقبها بنظرته: سمعت أنا قلت إيه؟! يتركها مُتجهًا إلى الشرفة.



حين تبكي على دميته التي ضاعت، تذكر جيداً أنها بالأمس كانت تحتضنها، تحكي لها عن آمنيات تنتظرها، تسر لها بالأسرار وتُغني معها الأغنيات.

دمية حنين من القماش المحشو بالقطن، وشعرها من الخيوط الصوفية، فستانها كان فُستاناً لحنين من قبلها، أصبح صغيراً فقصته وداد وخاطته بالإبرة من جديد.

حنين تحب دميته.. تبكي بحرقة، وانتصار تُراقبها من بعيد وهي تمسك كراسية وقلماً تخط أرقاماً، تسأل وداد عن ناتج جمع رقمين.. وعيناها تتلذذان بدموع حنين التي لم تتوقف عن البكاء.

دخلت حنين إلى الشرفة، جلست وحيدة تنظر إلى القمر.. تسأله عن دميته، لم يأخذها من هيامات أفكارها سوى صوت سمعان من الشرفة المُقابلة: حنين.. حنين.

التفت له، سألتها: مالك.. انتِ زعلانة؟ هزت رأسها.. قامت صامته، اطفأت النور.. رقدت فوق سريرها، راحت لنوم يُخفف عنها وجيعتها، فهي لا تُصدق وداد: هندور عليها.. هنلاقيها يا حنين، قلب حنين يخبرها أنها لن ترى دُميتها من جديد.

جرت انتصار للحجرة، أغلقت الباب خلفها، فتحت الدولاب فأخرجت من تحت الملابس عروسة حنين التي أخفتها، أمسكت بالمقص ومزقتها، ثم رمتها من الشباك.

شفتها مُبتسمتان.. عيناها لامعتان، وأسئلة بلا إجابة: لماذا تفعل ذلك؟!

لا تعرف، لكنها بهذه الأفعال تتلذذ، بدموع حنين ترسم ابتسامتها.

السنوات تمر، ورمضان يعود من جديد لا يخلف وعدًا، في حضرة روائحه، حنَّه في بيت حنين تُشاركها الفرحة بأفرع الزينة، انتصار تُجهز الخيط، وسمعان يقص الورق الملون بأشكالٍ مُختلفة، حنه تُجهز اللاصق من الماء والدقيق، وحنين تُعلق الورقات واحدة بجوار الأخرى، ومُهاب.. فقد أصبح الآن يُشاركهم الأوقات على ملذاتها، عليه أن يقص بعض الورقات أو يستعمل اللاصق، أو عليه أن يلون الورق بألوان زاهية.

اكتملت الأفرع، عليهم إذًا أن يمدونها بين الشرفتين المُتقابلتين فتصبح وصلًا للمحبة ودليلاً عليها.

صوت نوال ناداها: يلا يا حنَّه هنشترى الياميش.

قفزت السلّمات بسرعه: باي يا حنين، هنجيب ياميش.

تبعها سماعيل على مهل: أجيلك معايا قمر الدين؟!

شكرته حنين: بابا هييجيب لنا.. شكرًا.

ظلت انتصار وحنين تواصلان تجهيز الزينة وتبادلان الحديث حول حنَّه وسمعان.

لم يشعرا يومًا أنهما غُرباء، ولم يكن اختلاف الدين حاجزًا، تمت انتصار لو أنهم مُسلمين، ضحكت حنين: وإيه اللي يتغير لو أنهم مُسلمين؟! أنا بحب حنَّه ميهمنيش هي مسلمة أو مسيحية.



سمعان سهران في الشرفة على ضوء المصابيح الخافتة، كلهم ناموا إلا هو.. أظهر الآن ما كان يخفيه عن أعينهم، فانوس حنين.. بيديه، يقص الأوراق الملونة ويلفها حول عصاية الخوص، هو الآن يشعر روائح رمضان معها، يخط على جوانبه «رمضان كريم».

ينتظر الصباح بشوف لهفته لحنين التي لم تزل طفلة.. جارتة.. وصاحبه.. وأشياء أخرى على نبت انغrust في قلبه على غير موعد، كلاهما لم يزل صغيراً.. كلاهما يُشارك صاحبه حلاوة الصبي.

كان الصباح رائعاً بقدوم حنين للشرفة، نادى: حنين.. حنين.

التفت: صباح الخير يا سمعان، رفع لها فانوساً ملوناً: كل سنة وانت طيبة.

ابتسمت: وانت طيب.. شكراً، ودخلت وواربت الشرفة.

سمعان يطوي السلّمات إليها.. يطرق بابهم، فتحت نوال: أهلاً يا سمعان.. ازيك يا حبيبي.. ماما عاملة إيه وبابا وحنه؟

ناول حنين الفانوس: كل سنة وانتوا طيبين.

ابتسمت: شكراً، احنا مسافرين البلد يومين، سلّم على حنين.

تلعثت كلماته: مش هنلعب سوا في رمضان؟ طيب.. ترجعوا بالسلامة.



الأمسيات حلوة بصحبة وداد، حين تشعر بالأنس وهي تُشارك
انتصار لعبة مُسلية، تُلاعبهما وداد.. على كل واحدة أن تقبض كفها
وترفع الإبهام، وعلى الأخرى أن تمسك الإبهام المرفوع، فتصبح
كفوفهم الثلاثة فوق بعضهم البعض مُتماسكة، وعلى وداد أن تُحرك
سبابة كفها الآخر فوق ذقنها:

دقن السيسي دقن الفار

دقن محمد المختار

أنا ولا انتـوا يا شُطار

يلا بسرعة يا شُطار

ولتمسك كف واحدة منهما، وفي لمحة من تستطيع الإفلات تكون
الفائزة، ويكون عليها أن تفعل هي مثلما فعلت وداد، الضحكات تعلو..
واللعبة تحلو، الوقت يمر بسرعة، ربما يستيقظ مهاب من نومه في لحظة
من اللحظات فيُشاركهم اللعب.

ليلعبوا اللعبة الجديدة «تمثيل إسكندرية»:

يلا بينا يلا نعمل تمثيل.. على كل واحدة أن تتشكل في هيئة تمثال.

وداد تسعد بأنس أولادها، تأخذهم من اللعب والتسلية إلى التربة،
هي تقصد أن تُشكلهما وهي تحكي لهما قصص الصدق، تحكي جزاء
الأمين، وجزاء الخائن، فتُعلمهم الكثير والكثير، هي تعرف أن غرس
اليوم ستجنيه غداً، لذلك لم تمل يوماً من العطاء.

ربما تنقطع الكهرباء وهم يُمارسون اللعب فلا يتوقفون، وداد علمتهم أن الأقوياء يستمرون رغم المصاعب، عليها إذاً أن تُوقد مصباح الجاز بِشعلته الخافتة، وتثبت لهم أن الألعاب ستُصبح أكثر مُتعة، فلولا انقطاع الكهرباء لما ظهرت ظلالهم على الحائط، عليهم أن يلعبوا بخيالاتهم، يُشكلون كفوفهم بأشكالٍ يظهر ظلها، وعلى وداد أن تصدر أصواتاً تُرافق الظلال ثم يُتابعونها.

خيال الظل على الحائط يتشكل بصور مُختلفة، وحوارهم يصبح مفتوحاً بين الحكاوي والأغاني.

لم يأخذهم من هذه المُتعة سوى الإنصات لوقع الأقدام على الدُرج، فتقفزان بسرعة: بابا جيه.

قبل أن يصعد يونس تستقبلانه حنين وانتصار فتحملان عنه أكياس الفاكهة، وتُفتشان جيوبه حيث الحلوى واللبن.



الشوارع تكتظ بالزحام، البائعون يفترون الأرض.. يتسابقون النداءات لجلب الزبائن إلى بضائعهم.. أصواتهم ترتفع.

هناك أشياء كثيرة لا علاقة لبعضها البعض، ربما يتجاوز بائع الأحذية مع بائع القماش.. وربما يتوسطهما بائع الأكواب وبجوارهما بائع للملابس الداخلية، كل الأشياء في أكوم على الأرض، بين جديد ومُستعمل.. هكذا أسواق الفقراء؛ فرزقهم من المال ربما يكون قليلاً، وحظهم أحياناً يكون وفيراً؛ فالمحظوظ منهم من يلتقط البضاعة التي تُناسبه بسعر زهيد مُقارنة بالسعر الحقيقي للسوق.

وداد تحسست الخطي لهُناك، فهكذا هي على عهدٍ مع هذا المكان بين الحين والحين، ربما لتكسي أولادها.. أو لتقتني بعض الأدوات المنزلية التي تحتاجها، أو لتتقي ألوان المفروشات لأثاث بيتها إذا أرادت أن تُجدده.

لا طريق لها سوى ذلك؛ فدخل يونس لا يكفي لشراء الأشياء من أماكنها المعروفة في المحلات، إذا فلتصف لدخله القليل تعبها الكثير.

سيراً في الزحام بحثاً عن أشياء، ربما تلف السوق ساعات بين رواح وغدو حتى تعثر عليها، المهم أنها تعود مُحملة بأشكالٍ وألوان أحذية من فصيل بقايا المحلات، وأقمشة من فصيل الفصالات وأكواب زجاجية من فصيل الفوارغ.

بيت و داد دائماً عامر، وسرها لا يدريه أحد، فرحة أولادها بتوفير
حاجاتهم تُعوضها الكثير من المشقة التي شعرت بها، تطرق الباب
فينقضون عليها لاختطاف حاجاتهم وهي تُداعبهم، تتغنى بكلمات
الباعة: يا بو العيال هاتلك شيال دا الرزق حلال.



صغير الهدوء.. يطن بأذني يونس.. اللحظة الأولى لوصوله البلدة
يلفظ آثار الصخب والتلوث، تستنشق رائحة العبير الذي أوحشه،
يتحرر من التعب ليرتاح على الثرى هناك، نفس عبق التراب الذي
يضم تحته جذور النخيل البائقات.

نفس الجبَّانة التي تقابله في الطريق على شريط التربة فيرميها
بعينين مُمتلئتان بالشوق لأيام صباه التي مرت على عجل فراح معها
الأجداد والآباء.

أصبحوا الآن ذكرى.. تسكن نفسه.. تتحرر بها روحه فتروح لهم
هناك في عالمهم البعيد على وصلٍ لا ينقطع أبدًا.. فهم دومًا يُجاورونه
الحُطى.. يشعرون بحالاته بأحزانه.. وأفراحه.

عند البوابة الكبيرة للبيت العتيق وقف يدير المفتاح: حمد لله
عالسلامة يا ولاد.. حمدالله على السلامة يا وداد.

لم يكن ذلك البيت مُجرد بيت واسع ينطلقون لبراحاته من ضيق
شقتهم الصغيرة هناك في المدينة، ولكنه كان يُمثل أيامًا حلوة يلتئم فيها
شملهم، ويلتقون بالأهل هناك والأحباب الذين يأتون لزيارتهم من كل
صوب من لحظة أن يزيغ الخبر بقدمهم.

ليالي رمضان هناك في هذه البلدة الصغيرة كانت على مذاق خاص
يحضر صوره في ذاكرة حنين، الشوارع هناك ضيقة.. مُترجزة ولكنها
تمنح البراح.

المساءات تحلو لحنين وانتصار على ألعاب القرية التي يجتمع عليها الأطفال، فيفرحون وتعلو ضحكاتهم.

مُهاب لم يزل يحبو على خُطأ سنواته الأولى، لكنه يوماً بعد يوم يكبر.. يترعرع فيترعرع الأمل بقلب وداد. ويونس.

مهاب بالنسبة لهما حلم الولد.. الأساطير القديمة نقلت إليها أن الولد هو السند، هو الظهر القوي عندما يأخذهما الضعف في نهاية العمر.

ربما نسيا أنها أساطير، وأن القوة الحقيقة هي العون الإلهي الذي ينفث فينا من روحه فنستقوى به.



صبحي يطرق الباب بعد شقاءٍ نهارٍ طويل، نوال تفتح على هيئة
مهندمة اعتادت أن تكون عليها، شعرها القصير مُلون بحمرة، عيناها
مكتحلتان، وصبحي على نفس هيئته الرثة.. الشحوم تلمح دخل
مُتعبًا.. غير ملابسه بينما هي تُجهز له الغداء وتضعه على منضدةٍ في
الصالة: الغدا يا صبحي.

جلست بجانبه: شوف بقى يا بو سمعان أنا عايزة دهب.. عايزة
إيدي كده تترص فيها الغوايش لحد كيواني، لازم الحته كلها تعرف
مين هي نوال، ومين جوزها الخواجه صبحي.

راحت تهز قدميها وصوتها يعلو دون أن تشعر: لازم لما تدخل
الشارع مُشحم كده يعرفوا إن ده عشان أكل من وسع يا حبيبي.

ترك صبحي اللقمة من يده: انت بتستعري من منظري يا نوال؟

ربتته: العدو يا حبيبي، دنا عايزاك فوق روسهم كلهم، عايزة الحته
كلها تعرف إنك مستتني ومدلعني وإني مبسوفة بيك.

كل تحويشه العمر واللي جاي عليها هجيب به غوايش دهب
تشخلل كده قدام العدو والحبيب.

عارضها: جايلنا مسئوليات بكره حنّه تعوز نجهازها.. وابنك ده
اللي لسه مش باين له مُستقبل هيجتاج نساعد برضه.

نفثت: يا خويا وهو الذهب هيروح فين لما نعوزه نلاقيه.. بس
ساعتها هبدله بقشرة الجمل.

- ولو الذهب قل نخسر يا نوال؟ دا غير خسارة المصنعية.

- ما بيقلش يا خويا بيزيد إن شاء الله.. والمصنعية فدايا.

- هزّ رأسه: اللي تشوفيه يا نوال حاضر.



طريق العودة من السوق.. اللافتة المعلقة على إحدى الأعمدة
تُراود عينيها.. وتارة تُراودها مُعلقة على أحد الجدران: «مطلوب
عاملات خياطة لتقيل ملابس جاهزة».

الفكرة تُراودها أن تذهب لعنوان المصنع وتُسأل عن التفاصيل،
ولكنها تتأكد من رفض يونس لهذا المبدأ، هي يومًا لم تُمارس عملاً
خارج البيت، وليست هي في مكانة العاملات، رفعها الله عنهن درجات.
مضت في طريقها، هاتف شغل رأسها: وماله لو طلبت من مدير
المصنع شغل في البيت؟

تراجعت خطواتها: وده معقول يا وداد! هيديكي الشغل! يضمنك
مين؟

تسمرت: أجرب.. هخسر إيه؟!

الطريق لهُناك طويل، ولكنها تعرف طريق العنوان في منطقة
مُجاورة لسكنها، لأول مرة تدخل من بوابة مصنع.. الماكينات مرصه
على صفيْن.. على كل مدينة عاملة، كخلية نحل يتم العمل هُناك على
وجهه الأكمل.

صوت الممكن يعلو أكوام القماش على جانب الجدران، الأشغال
المنتهية على جانب آخر، والمشرفات تمر بين الطُرقات لتتأكد من
تمام كل شيء.

اقتربت واحدة منهم تُحدث وداد التي لم تألف وجهها: أيوه يا مداد.. عايزه حاجة؟

ارتبكت وداد: كنت عايزه اسأل عن شغل.. لم تمهلها الرد..
واصلت: بس في البيت.. أنا عندي مأكنه وبخيط كويس.

لفت حولها: عارفه أنا معايا شهادة تفصيل من مدارس فيرا..
بقص بترون.

ردت مُزعجة: يا مدام أرجوك أنا مش فاضية اسمع حكايات..
المدير مانع شغل يخرج، سكتت وداد.

هزت المُشرفة رأسها: شوفي أنا هدخلك ليه وانتِ بقى أحكيه
القصة دي، يمكن يوافق.

فرحت وداد: ماشي هسيبله صورة بطاقتي ورهن كمان لو عاوز.

ثأثت المُشرفة: رهن؟! اتفضلي يا مدام تعالي معايا قابليه.



مزاج عم حسن على فنجان قهوة سادة.. وخشخشات مذياع يدير
الإريل الذي يعلوه تارة عن اليمين وتارة عن الشمال، هو وحده يعرف
تفاصيل الكلمات ويُدندنها: على أنغام الست يتناول المسمار من فمه
ويدقه في نعل الحذاء ثم يُدندن من جديد: حيرت قلبي معاك.

دخل يونس عليه يمّسك يد مُهاب الذي لم يزل على سنواته
الأولى ضحك: ربنا ما يحيرش مؤمن يا عم حسن.

ضحك حسن: أهلاً.. أهلاً يا يونس.. أوامرّك.

أخبره: عايزين جزمه جلد طبيعي للجدع ده.

رد: عينيا للأستاذ مُهاب.. ارفع كده ياض وريني مقاس رجلك.

عرض عليه بعض أنواع الجلود وألوانها، راح يستشير مُهاب في
شكل حذاءٍ يعجبه يختار معه الأربطة ويَعده أنه سينتهي من خياطتها
في أسرع وقت، وأن جلدها سيكون مخصوص ونعلها من الموريتان.

دفع حسن العربون، أخذ مُهاب وخرج يُواصل معه شراء حاجات،
ترك عم حسن يُغني على خشخشات المذياع.. هو وحده يدري ماذا يقول.

مهاب يُواصل اختيار ملابسه.. يخبر والده بما يريد، يشير بإصبعه
على ألوان تلفت نظره في الملابس المُعلقة على الشماعات، يونس يعده
بالمزيد.



على إحدى النواصي المُعتمة يلتقون رؤوسهم، تستدير على الخبر؛
فالصنف الجديد حماده يعدهم به، يحكي لهم عن مفعوله السحري،
يغريهم بعالم آخر يطيطرون إليه بعد أول شمة، عالم بلا مواجع، عالم
الدماغ الغالية: الاستروكس ده أصله حاجة كدة وهم، وهم يا جدعان
وهم، هتعمل أحلى دماغ، تاخذ الشمة من هنا، وتروح في اللي أنت
عاوز تروحله، وربنا أحلى دماغ، جتتك كده ماتبقاش خلصانه، وعينك
ما تشوف إلا النور، الضلمة دي مانعرفهاش.

جسده الثقيل يترنح، حذاءه الفل ينخلع من قدمه، يعيدها إليه،
فيظل حافياً مُترنحاً، يخبرهم أنه فوقهم يطير، وأنه، عامل أحلى دماغ.

لعابهم سال: وفين الصنف ده يا حماده شوقتنا!

رد آخر: ولا هو كلام؟!

شاركهم ثالث: المهم الونجز، حماده ونجز، انتوا نسيتموا ولا إيه؟!

علت قهقهاتهم، وعدهم حماده أن يُجهز لهم الصنف متى أخبروه
أن الونجز جاهز.

ساروا في طريقهم يتبادلون أطراف الحديث عن حكاويهم، فلكل
منهم حكاية ولكل منهم وجيعة.

شراكتهم على نفس أحلام يلتهمها الفقر، فيهربون من واقع مرير
لخيالات حلوة على مذاقات مُختلفة، لكل واحد فيهم خيال يروح
عنده، ليس له سوى طريق واحد على أنفاس شمة أو لفافة حشيش أو
صنف جديد مثل الذي يعدهم به حماده.

ساعة من الأنس ليلاً تأخذ وداد ويونس، الحديث بينهما يمتد
عن الذكريات، لم يزل يونس مُتعلقاً ببلدته الصغيرة التي شهدت أيام
طفولته وصباه، يذكر جده عطوة الذي رباه.. يدعو له بالرحمة.

يونس يُذكرها كيف كان عفيًا يسير على قدميه لمسافات طويلة،
تضحك: فاكروم سبوع مهاب؟ جالنا من البلد من عند مدخل
الصعيد لهنّا في قلب القاهرة ماشي على رجله.

يومها دق الباب صباحًا ففتحت له وداد، تفاجأت به.. رحبت
بقدومه: خطوة عزيزة يا عمي، لقيت مواصلات الصبح كده؟!!

ضحك: لا يا وداد أنا مسكت أول الترعة ودنيت ماشي لما جبت
آخرها، لقيت نفسي قرّبت أوصل.

ضحكت: ربنا يديك الصحة يا عمي.

ذكرها يونس: ويوم ما ولدت مهاب كان أول زاير بيخبط علينا قال
لي أنه حلم، حلم أنك خلفت ولد، قام من النوم مسك الترعة طوالي
علينا، تبادلاً القهقهات.

واصل يونس: عارفة يا وداد جدي ده كان يعلق الخروف وبيقيد
تحت النار، يقطع من لحمه ويسوي، ياكل وينادي على اللي ماشي:
تعالى كل.

لما يخلص الخروف ويدهن إيده من اللية.. أيااام، وأهو آخرتها
رقد تحت الأرض والبيت أتقفل.

طبطبت عليه: ربنا يعمر بيك وبأولادنا يا يونس، بنروح يا حبيبي
نفتحه ونعمره.

- والله يا وداد بحلم باليوم اللي أطلع فيه معاش، عشان مرجعش من
هناك.

- معاش! معاش إيه يا يونس! ما عاش اللي يزعلك يا حبيبي لسه
بدري، عايز تبرم العمر على طول!
الليل يطول.. والحكاوي بينهما تستمر.



رقد فوق سريريه وذاكرته هُناك، في بلدته التي يعشقها، لم يزل
مُتعلقًا بها، ولكن الشهادة الثانوية كانت جواز مرورٍ له لِيوسع خُطاه
إلى القاهرة.

أصبح مُوظفًا في وزارة الثقافة، فكيف له أن يترك هذه الفرصة ويعود
ليعيش هُناك في داره الريفي الذي يرتاح فيه.

الدار الذي أصبح مُغلقًا بعد موت جده، وأصبح هو ينتظر أيام
الأجازات بفارغ الصبر ليقضيها هُناك.

لبلدته رائحة خاصة تسكن أنفه.. لا تُغادرها أبدًا، يظل يشمها ولو
ابتعد عنها أميالًا.

الأرض هُناك لها طيبة خاصة، فهي تحن على من يمشي فوقها..
تلين تحت قدميه فتشعره بالحب وتؤانسه بعطفٍ يبعث الطمأنينة.

النخيل يعلو هُناك بشموخ يتدل منه البلح بأنواعٍ يروق طعمها
للأكليين، فلطعمه مذاق خاص، ولزهو لونه بهجة، فحيث يتلون البلح
بعراجينه يصبح السائر في الأرض هُناك ماشيًا تحت غطاءٍ سماوي تلون
بمزيج من الأحمر والأصفر والأزرق حيث تتبدى السماء من بين طلوع
النخل البازغات.



الساحة تتسع بالزائرين.. مولد سيدي المغربي من الموالد الشهيرة
التي تشد معها الرحال..، الناس من البلدان المُجاورة يحفظون موعد
هذا اليوم من كل عام، يونس بصحبة أولاده هناك.

فوق منصة عالية ترقبه حنين، جلبابه الأبيض واسع الأكمام، يده
تجويان إشارات التجلي وهو ينشد المدائح والفرقة المُصاحبة من
خلفه يُرددون.

الناس حوله في دائرة تتسع لمزيده، القادمين إليه، التعليقات تتناثر
بالإعجاب والصلاة على النبي.

بائعو الحلوى يجوبون الأرض حول الأطفال، بائعة البوظة تفترش
أمام المسجد، جسدها المُمتلى يتراعى حولها على الأرض، المشعل
يتقد أمامها يعتليه إناء كبير به بوظه لونها الحمراء.

نداؤها يعلو: البوظة الحلوة.. قرب ودوق حنين أمام بائع
الأراجوزات الخشبية، تجرب الضغط على بطن واحدٍ منهم فتنتطق يده
بطرقعات.. تعلق عليه طرقعات ضحكاتها: والنبي يا بابا عايزه واحد.



انتصار أمام لعبة السهم.. ترشق السهام في اللوحة فتصيب، لا سهم منها يخيب.. هي بشراء البمب مولعة.. تصفو ضحكتها على صوت الفرقعات.

الأطفال هناك يتشاركون الألعاب ويرددون الأغنيات، الناس هناك على مختلف الشاكلات.. جمعهم نداء سيدي المغربي وحكايته التي توارثوها منذ عهد الأجداد، فقبه سيدي المغربي الخضراء تربي على ريادتها أجيال الآباء.. يحكون لأبنائهم عبر السنين، كيف كان سيدي المغربي رجلاً صالحاً.. وكيف كانت له كرامات.

أمام المسجد مرَّ عابر.. على شاكلةٍ يعرفها الجميع، ثيابه رثة مرقعة بقطع قماشٍ من ألوانٍ، لحيته طويلة مُطلقة بلا ترتيب، شعره ملفوف على خصلاته الملتوية.. عيناه شاردتان تجوبان الحاضرين بين ذهولٍ وتأمل.. تحملان سرّاً لا يعلمه إلا الله تارةً، يترنح على أنغام المنشدين وتارة يعلو صوته بـ (حي.. حي)، وتارة ثالثة يتحدث مع واحدٍ من المارة مُبشراً.. أو مُنذراً.

اقترب من يونس.. كانت أصابع مُهاب تشتبك بإصابعه، وصوته يعلو مُتلفتاً هنا وهناك، يتحدث عن ألعابٍ يريد شرائها ويونس يُوافقه الخطي بين بائع وبائع مُجاور.

استوقفهم الرجل.. ربت كتف يونس: ازيك يا بركة.

ابتسم يونس: دانت اللي بركة والله.. مديده يُناولُه نقودًا، لكن
الرجل هز رأسه بالنفي، أخرج من جيبه ورقة مطوية طيات فوق
طيات.. وضعها في جيب مُهاب.

ربته.. نظر للسماء، ثم قفز بخطوات سريعة بين الزحام.. ويونس
يتأمله صامتًا، مرت ليلة المولد على ساعات حلوة يطول الانتظار لها
كل عام.



رأس وداد على الوسادة وحيدة، صوت ماكينة الطحين يعود صدها في أذنها، يذكرها بأيام عز عاشتها في بيت كبير تحيطه حديقة واسعة بها من أنواع الأشجار والثمار.. لم يزل طعم المشمش على طرف لسانها وهي تقطفه من أعضائه.. وتواصل اللعب مع الأصحاب.

كان والد وداد في هذه الآونة من الأغنياء وله الكثير من الممتلكات؛ فهو صاحب أفران الخبز في البلدة كلها، وهو تاجر للمواد الغذائية يعقد الصفقات وترسى عليه المناقصات.

كانت وداد طفلة تحبو على سنواتها الأولى بالمدرسة لم تكن تدرك حينها أن دائرة الأيام تدور، وأن الغنى قد ينقلب فقراً يُنغص عليهم ملذات الحياة.

هي الآن على السرير وحيدة تُراودها نفس الصورة التي تسكن مخيلتها، فتسكن تارة وتارات أخرى تفور كما يفور التنور، بنفس مشاعر الخيبة التي لاحقتها وهي تسمع والدها يخبر والدتها: أنا خسرت كل اللي ورايا واللي قدامي.. ما بقاش حيلتنا ولا حاجة.

يومها انزوت وداد تحت شجرة في الحديقة لم يواسها أحد.. دموعها تنهمر والمجهول يُراودها كشبح كاسر.

أخبرتها أمها بعد ذلك أنهم سيتركون البلدة وأنهم سوف ينتقلون للسكن في بيت في القاهرة، فهناك والدها سيجد عملاً منه يقتاتون.

هي تتقلب على السرير نفس صهد اللحظة يفور من ذاكرتها
المُتعبة، كأنها في التوتودع بيتها فتتحسس جدرانها وهي تعلم أن والدها
باعه فلم يعد ملكاً لهم.

تجري نحو الحديقة.. تُقبل الشجر.. تنظر بعينها لنفس بقعة
السماء التي لم تعد تظللها بعد اليوم.

سيارة مُحملة بقطع من الأثاث قليلة وعدد من الحقائق به
ملابسهم تشق الطرقات ليلاً، تمضي في طرقات لن يعودوا إليها..
هاجرين وطنًا أحبوه وديارًا تعلق بها أرواحهم.

وداد تلتحف صدر أمها على صمتٍ لم يزل يسكن أنفاسها فتشهق
شهقة تظنها الموت، لم يأخذها من ذلك الماضي السحيق سوى
طرقات يونس وصوت الأولاد: افتحي يا وداد أنتِ نمتي ولا إيه؟!
فتحت الباب استقبلتهم بابتسامتها المعتادة: أهلاً.. أهلاً.

تعلق مُهاب برقبته.. ناولها يونس الحجاب الورقي المطوي..
أخبرها أن الدرويش في المولد أعطاه لمهاب.

ضحكت: والله بركه.. فردته فوجدت به مخطوطاً لآيات قرآنية
وبسمات.. وأدعية تحصين من المرض والحسد والجان.

صوته: طب والله هخيطلو جراب وأحطوا مع شوية ملح فيه بسم
الله الحارس.



حينئذ على المسرح.. وداد تُشاهدها وتروح هناك عند مدرستها
هي أيام كانت طفلة في عمر حينئذ.

يومها كانت وداد تُشارك بفريق المسرح وكانت بخفة ظل تُغني
للبالونات:

محللى البالونات

محللى البالونات

بالونتي يا ناس

أجمل بالونه

لونه أصفـر

بتطير مجنونة

كان ذلك يوم يشهد البروفة الأخيرة للعرض المسرحي الذي
تُشارك فيه وداد، كانت يومها فرحانة لم شغلها سوى طلب المعلمة:
كل بنت تشتري فُستان أصفر عشان العرض الأسبوع الجاي.
طب قلب وداد، هي تعرف أن طلب فستان أصفر جديد لن يلقى
إجابة، فما لديهم لا يكفي سوى للقمّة تسد الرمق، فمن أين ثمن فستان
جديد.. وكمان أصفر!!؟

فكرت أن تجرّب حظها وتطلبه من والدتها لكنها ترددت، هي تعرف أنه ليس الطلب المناسب، فكيف تجرؤ!

تقدمت نحو المعلمة: أنا بعذر يا أبله، مش هقدر أحضر العرض.

ردت المعلمة: إزاي يا وداد؟ إنتِ أشطر بنوته فيهم، وكمان تعبنا في البروفات.

طأطأت رأسها: أحنا مسافرين، مش هكون موجودة.

استأذنت.. تركت المسرح، لم تُواصل البروفة الأخيرة.

جلست وحيدة في فناء المدرسة تتقمص نفس الأحزان التي أصبحت لها مُلازمة.



شمس الصباح تسطع ترسل أشعتها فيبرق الذهب في يد نوال..
يعكس بريقه وهي تجلس في الشرفة تُبادل الجارات أطراف الحديث..
تحكي عن أصل والدها الذي كان مُعلم جزارة «قد الدنيا» في أسيوط
بقلب الصعيد.

تتعمد «شخشخة» الصوت بالغوايش، تخبرهم أنها عندما تُسافر
لأهلها هناك فرح أو مناسبة أو عيد من الأعياد، فأمر قدومها أمر هام
تقف له البلدة على قدم وساق، فليس في بلدتهم امرأة تشبهها.

حكايات نوال تطول عن أمجادها، وضحكات وداد تملو من خلف
شباك النافذة المُتوارب دائماً، تُداعب بناتها بإن إذاعة الفترة المفتوحة
الصباحية بدأت على أثير نوال، تُواصل إعداد الطعام وهي تُلاعب
مُهاب وتحكي له الحكايات.. تعده بالوعود أن تشتري له لعباً لو أدى
واجباته المدرسية.



ليل حنين يغمره الشجن، على أنغام الناي وصوت فيروز، تُغني لشادي.. وزهرة المدائن، تُغني للحبيب وترسل له المراسيل، ذلك الليل الفيروزي تزداد حلاوته بقراءات حنين التي تهواها، لم تزل مع ماجدولين تسبح في عبارات رومانسية، وتحت ظلال الزيزفون تُشارك الأبطال هناك مشاعرهم المُرهفة، فتربي مشاعرها، هي تنبت كالبرعمة الخضراء التي تتفتح على غصنٍ بض.

حنين أنثى المشاعر، قلبها واحة للأحلام.. وعيناها البنيتان متاهات اللامدى.

في سريرها.. تنتقل بين الواقع والخيال تُخلق في عوالم بعيدة، ترقب من نافذة تعلوها السحب البعيدة فتُضحك القمر وهو يختبئ تارة وتارة يعود مُستديراً مُنيراً.

على مقربة منه نجمة لامعة ليست كالنجمات، تعرفها حنين جيداً.. تنتظرها، ترسل لها السلامات وتحكي معها الحكايات، تسألها عن فضاء الكائنات.. هناك.. عن الأحلام الغامضة وراء الأفق، وعن الأرواح الطيبة التي تُرافق الملائكة في سماءات الله البعيدة.

فهكذا أوقات حنين بين عوالم الحقيقة والخيال تمضي وأحلامها، بين الهواء الطلق تنبت.. وبلون الشمس والبحر تتلون، لا أحد يدري عن حنين، لا أحد يعرف أنها مسكنًا للحنين وللحب وللأنين.

الله وحده يعرف قلب حنين، هو خلقه وهو لونه بالخير وأسكن فيه الطيبة.



انتصار في حجرة الموسيقى ضمن الفريق الذي أعلنت عنه المدرسة، أصبحت تجيد العزف على الأورج.. البيانو، هي بين الأصحاب تتباهى بذلك، تقف على رأسهم لتصبح هي القائد تُعلمهم النغمات، يكتبونها في كراسة خاصة تنشد الأناشيد فيرددونها، تتنفس الصعداء.. تجول بعينها لتؤكد أنه ليس هناك قائد غيرها، تبسم ابتسامة باهتة تشير للجميع بالانصراف، فقد انتهى درس اليوم.

مدرسة الموسيقى تشيد بها، تشجعها وتخبرها بأن لها مستقبل موسيقي، فتمضي لفصلها.

على الدرج تجلس شاردة تأخذها الأفكار البعيدة، هي دائماً كأنها تهيم بعالم آخر.

في موعد الانصراف تمشي في الطريق إلى البيت بلا أصحاب، تدفع بقدمها حجارة الطريق أو تتناولها فتقذف بها كلباً أو قطعة بلا سبب، فهكذا هي لا تمضي ساكنة، لا بُد أن تسلك المشاكسة ولو مع كلاب الطريق.

فهكذا لها طباع غامضة ونظرات حادة، تارة تلتف في دائرة الأصدقاء، تُشاركهم الألعاب والأعمال.. وتارة تتوحد دماغها فربما لا ترد على أحدٍ، هي تُفكر في أفكار لم تكشف عنها ستار، أفكار تجوب خاطرها هي وحدها.



لم تزل ذكرى هذه الأيام تتلبد بذاكرة وداد، تلونها بغيام.. تذكر يوم توقفت العربية المُحملة بأشياءهم على عتبة ذلك البيت الغريب في حارة ضيقة، كان بيتًا كئيِّبًا له مدخل ضيق به ممر طويل تصطف به حجرات ثلاث هكذا حال الأروقة.

على عتبة الحجرة الأولى تجلس سيدة سمراء سميئة لها شعر مُجمعد يبدو من تحت رباط رأسها، عيناها ثاقبتان كأنها تتفحص القادمين، أمامها طبق بلاستيكي كبير مُمتلئ بماء يعلوه رغوة صابون كانت تغسل ملابسًا به.

يومها أُلقت أم وداد السلام، ردت السيدة: أهلاً.. أنتوا السُّكان الجُدد؟! اسمي أم إمام.. أنا هنا من سنين، يعني كل اللي جاي جاي عليا، ربنا يديم المعروف وما يجيب مشاكل، أحنا هنا في الرواق أربع أوض، وطبعًا الحمام هناك أهو شرك، ياريت نراعي بقى بعضينا.

التقطت وداد أنفاسها: إحنا هنعيش هنا يا ماما؟

سكتت أمها، واصل والدها ينقل الأشياء بالداخل، كانت الحجرة الوُسطى مُتوارية، لكن أم إمام أخبرتهم: الحاج زينهم ساكن هنا لوحده، مراته أتوفت والسُّكان يعني مع بعض بيخدموه، ما الجيران لبعضيها.

نفضت وداد رأسها.. حدثت نفسها: ما خلاص بقى يا وداد أيام وراحت.. وباما جه وراها أيام حلوه تاني، وأهي الدنيا على حال وحال، وأدينا بعدها أبويا اشترى بيت وسكن فيه يونس وبقى جارنا زمان وجوزي أبو ولادي دلوقت.



وداد عند بائع الدهانات تختار ألواناً جديدة لحوائط المنزل، ليس لديها فائض من مصروف البيت تستأجر به نقاشاً، ولم يمنعها ذلك من الشراء.

حقيبة فوق كتفها تُداري علب البوية، تصل للبيت حيث تخلي الحجرة، وتضع بها سلماً خشبياً، فقد قررت أن تقوم هي بهذا الدور. السعادة بداخلها تضيء على الألوان بهجة وهي تمزجها في الدلو البلاستيكي وتجهز الفرشاة، وحدها في المنزل، حنين وانتصار يمضون يومهم الدراسي، ويونس في عمله.

بأطراف الفرشاة تمر على الجدار فيتلون باللون الجديد ليصبح أكثر زهواً، نفس الزهو الذي يلون فرحتها بما تفعله الآن.

الحوائط تتلون، ووداد بالفرح تتلون معها، هي تعرف أنها ستكون مفاجأة سارة للجميع، تعي أن الألوان الجديدة تعطي للأماكن مذاقات جديدة.

نحن دائماً نحتاج لمذاقات جديدة على أطراف أيام تشابه، تشابه بنفس العناية، تتوالى بمتاعب كثيرة لا بُد أن تكون لتسير عجلة الحياة.

وداد تعي أن الأشياء البسيطة ربما تترك أثراً كبيراً في النفوس فتزجج عنها الهموم، وتلونها بسعادة أحياناً تغيب بلا سبب، أو ربما بأسباب خفية.

الآن الألوان الجديدة تنتظر قدوم الجميع، المفاجأة ستطرح بهجة يتشاركون طعمها.



إجازة نصف العام موعد الزيارة للبلدة، حيث تحلو الأيام.. حين
في الطريق إلى الحقل، هناك تقضي أحدى الأوقات، هناك حيث النخيل
البازغات التي تهوى تسلسها؛ فهي تعشق المغامرة.

هي بيت الأصحاب في الكريق، الخضار يتبدى على المدى البعيد،
وخطواها تتعجل الخطوات.

بين قنوات المياه ترقب الضفادع، تنصت لنقيقها.. تتأمل عيونها
الجاحظات تقفز، فتقفز حين خلفها.

الطمي يتناثر على أطراف ثيابها فلا تهتم، تصل لعند الساقية التي
توقفت قوايسها، فركدت تحتها المياه في الحوض.

تسند قدميها وترقب من جديد الضفادع، فقد أعلنت التحدي
أن تمسك بواحدة، فليست هي المرة الأولى، البلح الأحمر يتدلى في
عرايينه، حين على محاولات تسلق النخيل، ترفع قدمًا تلو الأخرى
فتمضي بمهارة، لا تخشى السقوط.

لم يوقفها سوى رجل من المارة يُنادي: إيه ده يا حنين انزلي يا
بنتي هتقعي تنكسر رقبتك.. أنا هقول لأبوك.

الأيام في البلدة لها مذاق خاص مذاق يحفر في حنين علامات لا
تُسى ويشكل فنونا بداخلها تتوالد.



وداد في حضرة ذكريات بعيدة، تتمزق بين السخط والرضا، تذكر أيام فقرٍ مدقعٍ ذاقته، لولا أن والديها كانا من الذين إذا رأيتهم حسبتهم أغنياء من التعفف.

هي الآن على ذاكرة نفس الطريق إلى مدرستها بمريلة، لم يمهلها الوقت أن تجفّ على الجبل، وليس هناك أخرى تتبادلها، فلم يكن أمامها سوى الصمت وهي ترتديها، لا بأس رياح الطريق في ذلك اليوم الشتوي العاصف ستجعلها تجف رغماً عنها.

شاغل وداد لم يكن في المريلة، شاغلها كان في تلك الدائرة الفارغة التي أصبحت نعل حذائها، حاولت أن تتحایل عليها، وضعت فيها قطعة من الكرتون السميك، ولكن اليوم الطريق يملؤه الطين من أثر مطرٍ كان بالأمس.

ماذا لو داست بحدائها على الأرض وهي بهذا الحال! سيهترئ الكرتون وينفذ الطين لقدمها، وربما تصطدم بقطعة زجاج تسيل دمائها من أثر جرح.

ليس أمام وداد سوى الصمت، الصمت الذي ينخر نفسها فيشكل بداخلها موناليزا الحزن.

هي على رقتها وجمال ملامحها حزينة أينما نظرت إليها، حتى من يراها على بُعد خطوات من ظهرها وهي تمشي للأمام يعرف أنها حزينة. وداد تعرف الآن المذاقات المختلفة للأحزان، لذلك لم يعد يشغلها سوى شق طرقات الفرحة من أجل أولادها.



السهرة دائماً تحلو على أنفاس «حماده وينجز»، فهو كما سماه أهل الحي «معلم الحِثَّة».

وهو يعتبر هذا اللقب مسئولية كبيرة يختار ملابس المعلمين «الجلبية البلدي» بقيطان وفوقها العباءة، الكوفية، والحذاء اللميع، وكرسي المعلم أمام المدخل ليس على شاكلة الكراسي، فهو منجد بقطيفة «نيتي» وله مقابض ذهبية يدعي إنها «مسسقة مية ذهب».

المنضدة أمام الكرسي لها درج خاص، الكل يعرف أنه درج المزاج، وهو بالنسبة لحماده الميزانية الحقيقية، و«أكل العيش».

حماده هو معلم الحي كله، هو يعرف دهاليز الشوارع، يورد لبلطجية الحي المُسجلين خطر أشربة البرشام المحظورة، وأنواع الحشيش التي قلت في السوق، وعليهم تسويقها في المنطقة.

أياديهم مُدَنسة بالذنب، أما حماده لا ذنب له، فهو «معلم قد الدنيا» صاحب قهوة بلدي لا أكثر، ولا أقل.

الليل يوارى صفقاته بعلنٍ خفي، أو خفاءٍ مُعلن، فالكل يعرف أن الحي كله أو كار، لكن لا أحد يدري أين هي.

على تقاطعات بين الشوارع حيث ظلام الليل وانتصافته تبدأ مُناوشات البيع والشراء، الأصناف عند حماده لا تقل، ودائماً هناك جديد، ليس هناك صنفاً يستعصى عليه، وأسعاره في المتناول، فهو يعرف أنه في مكان شعبي وأن القاشية ليست معدن.



حسن اليوم بين زبائن حماده على قهوته، يطلب الشاب: شاي على ميه بيضه، يا بني تاني مرة أقول.. إيه ماسمعتش؟

كان حماده يرقبه بعينين شاردتين والأفكار تروح وتجيء بدماعه، فليس أمامه أحسن من حسن للقيام بهذه المهمة، صوته يمهل: حسن طول بعرض وعافية والناس عارفينه واحنا جيران يعني العيش والملح والأمان، هدي لمين أحسن منه سري؟

أشار له حسن عن بُعد: إزيك يا معلم حماده.. سر حان في إيه؟

أشار له حماده: تعالى يا حسن عايزك.

اتجه ناحيته.. جر كرسيًا من الخشب وجاوره الجلوس، راح يلمس عبائته الحريرية: إيه الحلاوة دي يا معلم؟ والله دي لازم تفصلها ولا مؤاخذه جزمه مخصوص.

أقرب منه حماده: مش عايز تقب على وش الدنيا يا حسن؟

ضحك حسن: أقب ليه هو أنا غطسان لسمح الله، حد قالك حسن غرق؟

همس حماده: بتكلم جد يا ض.. عندي ليك سبويه حلوة.

رد حسن: سبويه.. سبويه غير الجزم يا كريم يا رب.. دانا باين هقّب بجّد، احكي يا معلم.

همس حماده: فيك مين يكتّم السر يا ض.

برقت عينا حسن: سِرْك في بير يا معلم.

واصل حماده: أنا شَغَال في أصناف تمام، وعائزك توزعلي.. عائز الدنيا توسع والقرشينات تزيد ياض.

تلجلج حسن: أصناف.. أصناف إيه يا معلم؟

همس من جديد: حَتَّه بني على حَقنايه مكس، ولو الحال على القد يبقَى ستروكس، وما خُفي كان أعظم.

علا صوت حسن: يا نهار أسود يا معلم.. المعلم حماده!

غمزه حماده وهو يمسك كف يده: اخرس ياض.. قولنا السر في بير.

هز حسن رأسه: سرك في بير يا معلم، حسن راجل وانت عارف.

سأله من جديد: قولت إيه؟!!

هز حسن رأسه: يا معلم أنا باكل لقمتي بالحلال.

جادله حماده: وهو ده حرام ياض؟ إحنا بنضرب حد على إيده؟

اللي عائز يشتري دماغ بيعجي لحد عندنا، واحنا يعني بنعمل إيه؟ بنظبطله دماغه ياض.

هم حسن بالوقوف، أزاح الكرسي: بالإذن.. بالإذن يا معلم.

أشار له حماده: فكر.. فكر تاني يا حسن.



حِنَّه وحنين في طريق العودة من المدرسة، تتسابقان الخُطى تتقاذفان
الحجارة بإقدامهما، تقتسمان الضحكة على حكايات يوم مضى.

حذاء حِنَّه تمزق.. انفصل النعل عن الجلد، وضحكات حنين
تعلو: شوفت ده ذنبي عشان زقتيني.

وجه حِنَّه تعلوه تقطبيه: مش وقت هزار، هعمل إيه دلوقت؟

ربتها حنين: هنمشي لغاية عم حسن الجزمجي.

انبرقت عينا حِنَّه: همشي حافية.

دارت حنين الضحك: عندك حل تاني؟ يا لالا غمضي عينك وامشي
كأنك مش واخده بالك.

اغتاظت حِنَّه: أوعي يا حنين.. أوعي.

واصل الطريق وحِنَّه تخجل على قدم واحدة تارة وتواصل المشي
بقدم حافية تارة، الحديث بينهما لا ينقطع.

وصلتا لعم حسن.. قدماه لم تتوقفا عن دواسة الماكينة، ويداه
تتناولان النعال والحقائب من حوله، على سرعةٍ ينتهي من حياكة
واحدة تلو الأخرى.

وقفت حنين تُشاهده.. تتأمل حركاته، تُراقب قدميه فوق الدواسة،
وحِنَّه تحمل حذاءها المقطوع: يا لالا بقى يا عم حسن، عايزه أروّح.

وهو يتسم: حاضر يا حنَّه.. سلمي على أبوكِ الخواجة صبحي،
وأنتِ يا حنين.. عم يونس عامل إيه؟
تهز رأسها: الحمد لله يا عم حسن.



الزغاريد تعلو في بيت نوال، اليوم سمعان أنهى تعليمه المتوسط..
حصل على شهادة الدبلوم.

حين حملت إليهم البشرى.. وزعت الشربات على الجيران.

جاء هو بنفسه معها إلى بيت حنين.. طرق الباب.

فتحت وداد: أهلاً يا سمعان.. إيه الأخبار الحلوة دي.. مبروك يا
حبيبي.

عيناه تجوبان المكان.. بحثاً عن حنين: عقبال حنين واختها،
ومهاب كمان بكرة بسرعة يكبر.

خرجت حنين من غرفتها ناحية المطبخ: مبروك يا سمعان ألف
مبروك.

تمنى لو صافحته.. لو زادت الاهتمام به وتوجهت نحوه، لكنها
غابت عن عينيه من جديد.

الأيام تمر.. حنين على عود أنوثتها تستوي، وجهها تكتمل
استدارته، وعيناها تزددان بريقاً.



حين في الشرفة ساعة العصر.. كوبًا من الشاي وإذاعة الخامسة
تعلو بأغاني الست، لم تزل صغيرة.. ولكنها على أمزجة الكبار لها
عالمها، تمسك بأصابعها الإبرة والخيط تغزل وشاحًا خاصًا لها.. هي
تهوى الفن بأنواعه وتُنسق الألوان.. تعشقها زاهية.

وشاح حين يطول.. وأفكارها لا تنقطع، الشرفة المُقابلة لم تفتح
مُنذ أسبوع.. ابن الجيران الذي يرسل لها ابتسامات القرب غائبًا، هي لا
تدري أتراها اشتاقت إليه، أم أنها تشاق لحكاية جديدة تمر على عجل
وبلا تفاصيل، حكاية مراهقة تحلو بها الأوقات.

حكايات حين هي حكايات الهواء تنسجها هي في الأحلام، يتسم
لها فتحدثه ليلاً وعيناها غارقتان في النوم، يتبعها خطوات في طريقها
المدرسة فترفض أن ترد عليه، وتنتظره ليفتح النافذة ويطل عليها بعد
الظهر، فهكذا هي تمتلك القدرة على صُنع حكايات كبيرة من اللاواقع.
الغُرز تتشكل على أطراف أصابعها، وعيناها ترقبان الشرفة التي
انفتح شيشها فجأة، تسمرت عيناها على نظرة عينيه، ابتسم.. فبادلته
بخجل براءة ابتسامة.

تلخفن الخيط بين يديها وتلخفنت الغُرز، علت أنفاسها.. وزادت
دقات قلبها.

ألقى إليها ورقة في مشبك غسيل.. ودخل على عجل، التقطتها خائفة..
فتحتها بيدين مُرتجفتين.. قرأت: أشوفك الساعة ٨ عند موقف الأتوبيس.



قطعت الورقة.. ورمت بالقصاصات في الشارع، غمز لها ودخل..
أغلق النافذة من جديد وتركها على حيرةٍ تُواصل غزل الوشاح، الخيط
يطول.. وأفكارها تمتد، ماذا لو نزلت إليه في الثامنة، هاتف يهمس لها:
هو أنتِ مش بنت زي البنات؟! لكل واحدة من صاحباتها حكاية، في
الفسحة تلتف معهم في دائرة، وكل واحدة تحكي عن مُغامرتها، تعرض
هدية من صاحبها.. أو تُجهز حيلة جديدة لتجعله أكثر قُرباً منها.

جميعهن يتبادلن الخبرات، كل واحدة تسدي لصاحبته نصيحة
في الغيرة.. أو الدلال.. أو درس في مُمارسة الأنوثة، أو خبر عن شيء
ينجذب به الفتيان للفتاة.

هي دائماً تسمع.. ليس لديها حكاية، حكايات حين تُرافقها
الأحلام، أسرارها تختبئ مع نجمة السماء البعيدة.



ماذا إذا لو لبث دعوة ابن الجيران وذهبت للقاءه في الثامنة! ماذا لو كان ما بعد الابتسامة.. هي دائماً تسمع المزحة «نظرة فابتسامة فموعد ولقاء»، وهي دائماً تتسمر عند الابتسامة، الفرصة حانت ليكون الموعد.. ثم اللقاء، الفرصة حانت لتتخلّى عن نسج الخيط ولتنسج حكاية مثل حكايات البنات.

الأفكار تُراودها.. تدفعها للذهاب إليه، عقارب الساعة تمر.. الثامنة تقترب، وهي لم تُقرر بعد ماذا ستفعل.

وقفت أمام المرأة تتأمل نفسها.. تهمس: مانا بنت زي القمر أهو..
ليه مايكونش ليا حبيب يعني زي البنات!

كلمات وداد ترن في أذنيها: خلّي بالك من نفسك يا حنين، أنتِ بنت مربية وأنا واثقة فيكِ.

تنظر في المرأة: وأنا لن أخون الثقة.. لن أفعل الخطأ، سيلقاني دقيقة يخبرني فيها بأنه يحبني.. يُؤكد لي أنه مُعجب بلون عيوني وبأنني فتاة أحلامه، ما أحلى أن يخبرني بذلك.

راحت تُصفف شعرها، ثم تعيد تصفيفه، ارتدت فستاناً.. تتأكد أنها تبدو فيه جميلة، دارت في جيبه أحمر الشفاه لتُلون شفاتها عندما تقترب من الوصول للمكان المُحدد.

حملت حقيبة بها بعض الكراسات واستعدت للنزول، فالثامنة تقترب.

سألته و داد: على فين يا حنين الساعة داخلة على ثمانية.

تغلبت على ربكتها: صاحبتى هتقرب عند محطة الأتوبيس الساعة ٨ هديها كُتب ناقصاها، وكراصة فيها درس ما حضرتهوش.. كانت غاية.. كانت غاية يا ماما.

خرجت من الباب.. نزلت السلم بخطوات مُرتجفة.. وكلمات و داد تُلاحقها: خلي بالك من نفسك.. ما تتأخريش يا حنين.

قدمها تسمرت في الفناء، الأسئلة تُكبّل خطواتها: يعني هروح أقابل ولد؟! في الشارع؟! طب لو حد شافنا؟! أحمر وجهها، شعرت بسخونة تسري فيه: لو بابا عرف هيزعل مني.

كلمات و داد تدق أذنيها: لو حد كلمك في الشارع لازم تحكيلى يا حنين.

احتارت حنين.. أحلامها بسيطة، أن يكون عندها حكاية تسد بها فراغ صمتها عندما تحكي البنات حكاياهن.

أخذتها قدمها لبائع الحلوى على ناصية الشارع، اشترت قطعة من الشكولاتة التي ترضي مزاج الأطفال.

عادت للمنزل.. دون أن تضع أحمر الشفاه الذي خبأته في جيب فُستانها.



حينين في الشرفة تسقي صبارتها الخضراء، تتأملها.. تلمسها..
تسألها.. كيف تبدو جميلة هكذا.. وكيف تنتصب بقوة والمرار يسكنها!
وحدها حين تعرف أن هذه الصبارة الخضراء داخلها صفرة، وأن
قلبها يمتلئ بعصير مُر.

تسأل: أتراها هكذا الدنيا؟! هي تخشى غِدٍ لم يأت بعد، فتبحث
عنه في الأشياء المُحيطة، وداد علمتها أن تصبح قوية، أفهكذا يكون
الأقوياء؟ تسأل الصبارة الخضراء.

ليس عليها أن تطيل التفكير، كل ما تتأكد منه أن قلبها أخضر بلون
هذه الصبارة، اتراه يوماً سيحمل مرارات تُشبه مرارات قلبها! أتراها
ماذا ستفعل الأيام! بهذا كانت تشغل، هي تعرف أن قوانين الحياة على
تقلب، وقلبها على المحبة ثابت.

يوماً سيُغادرها الأصحاب، كل الأشياء حولها مؤقتة، يوماً
ستُفاجئها الحياة بأشياء ربما لا تقوى عليها.

هي تحب يونس، تعشق دفء حضنه الأبوي الذي علمها الحب
الحقيقي، الحب بلا زيف، ولكنها تخشى رحيله يوماً، تحب وداد التي
علمتها كيف تسير بلا انحناء، لكنها تعلم.. يوماً سينحني ظهر وداد..
وتصبح عجوزاً، فهكذا دائرة الأيام.

الأفكار دائماً كانت تسبق عقل حينين، تسبق لحظاتها الآن، وتروح
بها لأشياء لم يحين عليها الأوان.

فهكذا حنين تُفلسف الأشياء فتروح لما بعدها، يُؤلمها ذلك..
ويصبغها بحنين يصبح في عينيها، حنين لا يسكن عيني غيرها من
الفتيات، فهي ليست كمثلهن ولا مذاقها كمذاقهن، يكفيها أن تنتظر
عيداً قريباً تُعبر لها عن الحب.



نهاية الأسبوع بين الحين والحين، موعد زيارة يونس لبلدته
فلأهلها يشناق، يوم مبيته هُناك يسكن قلبه من ذكريات على رائقها
يُواصل الحياة في صخب المدينة.

على بدالات دراجته يقطع الطريق لهُناك، يُواصل السير على حافة
إحدى الترع التي تشق المسافات الطويلة فتصل بين بلاد المغارب
تأخذه فيُواصل المسير في ظلمات الليل بين الأراضي الزراعية، الأشجار
على الجانبين كأنها خيالات يألفها فتؤنسه، القمر يُلازمه تارة يرسل
أشعته الفضية، وتارة يتوارى بين السُحب فيحل الغيم.

في كل الحالات يونس يعشق الطريق، يحفظه عن ظهر قلب، يجتر
الذكريات ويُندنن بالأغنيات فتنتطوي الساعات ويصل إلى هُناك.

كم يعشق رائحة ذلك البيت الواسع الذي لم يزل على أساسه
الحجري وحوائطه الطينية، بوابته الكبيرة ذات الأخشاب المُتنائلة
تذكره بطرقات الأبواب فوق دلائتها الحديدية.

يونس يتحسس الجدران، يتمدد فوق الأريكة الخوصية ذاتها التي
كان ينام فوقها جده عطوة في مدخل البيت، أمام عينيه نفس المزرية
الحجرية وفوقها الزير الفخاري.

تأخذه الخطوات للساحة الداخلية عند غرفة كبيرة مُظلمة سموها
في بلدتهم (القاعة) ربما لأنهم أُنفقوا على أن يكون مثلها في آخر الدوار
بلا منافذ سوى طاقات صغيرة للتهوية في أعلاها.

يذكر يونس ليالاته الشتوية في تلك القاعة التي تنفث دُفئًا، يتمشى
بين غدوٍ ورواح، صوت جده عطوه كأنه لا زال يدوي بأذنيه، يعود به
لسنوات مضت.. قضاها في أحضانها هنا، على نفس ذلك الثرى الحنون.
يدخل إلى المندرة.. حجرة واسعة بها سرير من النحاس له توائم
طويلة يلتف حولها نموسية من القماش.

يرقد فوقه، يدير نفس المذيع القديم ذو الأزارار الكبيرة على إذاعة
القرآن الكريم، يغمض عينيه على انتظار صباح يأخذه لزيارة الأهل
والأحبة.



صوت الأغاني يعلو في الشوارع.. ينشد أغنيات الأمومة «ست
الحبايب يا حبيبة.. يا أغلى من روعي ودمي، يا حنينة وكلك طيبة،
يا رب يخليك يا أمي»

حنين وانتصار في الطريق لمشتل الورد على الناصية الخلفية للشارع
الهواء مُحمل بروائح حلوة تسكن أنفاس حنين، صوت العصافير يعلو
بزقزقات تنقر أذنيها، الخطى نحو المشتل تقترب، روائح الورد تفوح.
اختارت كل واحدة مجموعة من الزهور، حنين كانت تعشق
القرنفل بألوانه بين أحمر، وأبيض.

رائحة وردة القرنفل تسكن دماغها فتحفر في الذاكرة عبقًا لا يزول
أبدًا تظل تذكره، وتذكر برعماتٍ على ساق الورد لم تتفتح.

انتصار اختارت ما راق لها من الزهور بألوانٍ مختلفة، عادتًا معًا في
الطريق، بقى المرور على بائع الهدايا المُجاور لبيتهما، هدايا عيد الأم
مُتراسة على رفٍ في علبٍ صغيرة.

منديل من القماش وزجاجة صغيرة من العطر وكارت مُعايدة ورقي
مرسوم فيه أم تحمل رضيع، العلبة وباقة الزهور هدية كل منهما لوداد.
اليوم على حلاوته يمر، المساء على أنسٍ عادته التي تتكرر كل
عام؛ فالاحتفال بوداد له مراسم وتقاليد.

أطباق الحلوى فوق منضدة صغيرة في الصالة، الشموع مُضاءة..
يونس على الأريكة بجانبه.

مهّاب، حنين، وانتصار في صوت واحدٍ: يا للافّتحى عينك..
تخرج وداد من الحجرة على بساطة المفاجأة.

حنين ينشدها الأشعار التي باتت تخطها من وحي إلهامها، هي
انتصار تعزف على لعبة الهارمونيكا أغنيات الأمومة، الجميع يُهنأونها
بعيدٍ يأتيهم كل عام.



خطوات حنين تُسبق درجات السلم، على عجل طرقاتها اليوم
مُختلفة، وداد تعرف حالات حنين.. فتحت، كانت أنفاسها لاهثة
وعيناها تطلان بفرح: اختاروني أمثل على المسرح.. أنا هكون الأم.

ابتسمت وداد: مبروك يا ست حنين، قصدي يا ماما حنين.

صمتت برهة: بس عايزين فستان وطرحه ينفعوا للدور.

شعرت وداد أن حنين تحمل همّ ذلك، تخشى أن يضيع حلمها
بسبب فستان وطرحه.

سألت: هو غالي قوي القماش يا ماما؟

طمأنتها وداد، آخرتها أنهما سيذهبان معاً في المساء لشراء ما يلزم،
وأنها حتما ستكون رائعة في هذا الدور.

راحت تُحدثها عن اشتياقها لأن تُساهدها على المسرح وهي في
دور ماما حنين، وعدتها أن تشهد معها تدريباً كل مساء.

أيام مرت.. الاحتفالات بدأت مراسمها، انفتح الستار.. انفتح على
حنين تُمارس إبداعها بتقديم دور الأم في المسرح المدرسي، جلبابها
أخضر منقوش بوردة صغيرة حمراء، الشال الأسمر يلف وجهها،
ملامحها ترسم بالأمومة وبراعة تستطيع أن تحوّل نبرة صوتها لتؤدي
أداء الكبار، الأولاد يلتفون حولها، يُقدمون لها الهدايا في يوم عيدها،
وهي ترسم السعادة.. وتبتهل بالدعاء، المشاهد تتوالى، والحضور
يصفقون لهذه الصغيرة المبدعة «حنين».

يونس ووداد بين الصفوف يُشاهدان ابنتهم، وانتصار تُجاورهم
مقعدًا مُكتفة اليدين مُتجهمة الملامح، تهز قدميها اهتزازات مُرتبكة لا
يبدو عليها الاهتمام ولا تظهر السعادة بالوقت.

التفت إليها وداد.. سألتها: إيه رأيك في حنين؟

صمتت برهة ثم ردت: مش عجباي.. معرفتش تمثل الدور.

سمعها يونس، نظر لوداد نظرة هي تفهمها، قال لانتصار: قومي يا
حببتي سلمى على اختك.. شو في كل الناس ازاى مبسوطين بيها!

قامت.. توجهت للخلف لتخرج من المسرح: هروح الحمام
وارجع بسرعة، حيث الهروب من تحية حنين.



قدما حسن تطآن الدواسة ليست على عاداتهما، أصبحنا على ثقل
حركة.. الفكر يأخذ دماغه فلم يعد على نفس الحال من التركيز، تارة
يدوس والإبرة في الماكينة خالية من الخيط، وتارة يخبط جلد الحذاء
من اليمين مكان الشمال فيغضب الزبون.

دماغ حسن على تفكير دائم: وإيه يعني يا حسن لما تقب
على وش الدنيا؟ هتفضل يعني طول عمرك جزماتي؟ المعلم حماده
عنده حق، ما هو معلم قد الدنيا.. وأنت تقل إيه عنه؟

حسن يروح ويجي بين بلاطات معدودة في المحل الضيق المُكْتَظ
بنعالة قديمة التي تنتظر دورها في الإصلاح.. ويشد الأحزمة المُعلقة
يخبط بيده النعال فوق الأرفف: خدنا إيه يعني من الجزم؟

صوت ضميره يعلو: أخذت اللقمة الحلال والستري يا حسن،
هتخيب ولا إيه؟ قول الحمد لله.

من جديد وساوسه تعلو بدماغه، صوت المعلم حماده يرن بأذنيه:
مش عايز تقب على وش الدنيا يض يا حسن؟

يتمتم: القاشية تبقى معدن وأجيب محل كبير بره الحارة دي أبيع
جزم جاهزة، ومش بعيد أجيب شقة حلوة كمان.

حسن يفكر إنها فرصة ذهبية وإن المحل سيكون سائرًا له، الزبائن
تردد عليه.. وزبون يجلب زبون، وهو أمام الناس سيظل كما هو «عم

حسن الجزماتي» حتى يجمع ما يأمله من ثروة ويهجر الحي بأكمله،
يتنقل لحياة جديدة حيث لا يعرفه أحد ويود هو لو يعرف الكثير عند
حياةٍ يسمع عنها.. حياة البهوات، حيث ينقلها له إرسال التلفاز، لا
يراهم سوى على شاشته.

اليوم الزمان يُصالحه لينسح له الطريق ليعبر إليهم حسن يتحسس
ماكينته، يضع قدمه الدواسة يتأمل النعال والجلود، والأفكار تروح به
وتعود.



العشية.. ولم تزل وداد مُنكفأة على ماكينة الخياطة، بقى على قدوم العيد يومان، حنين وانتصار في الانتظار، كلتاهما على وعدٍ من وداد بفستان العيد، ومهاب على وعدٍ ببدلة تشبه بدلة الضباط.

حنين اختارت قطعة من القماش عليها نقوس بصور الجمال والأهرامات، هي تعشق الفراغة وتحب مصر، بهذا أخبرت وداد وهي تختارها.

انتصار اختارت قطعة قماش لونها أصفر، فهي تحب ذلك اللون، كلتاهما تستبق الخطى بين الحين والحين لتطمئن أن عملية التفصيل تسير على ما يُرام، وأنها في الخطوات السليمة نحو الانتهاء من فستان العيد، أوقات اللعب تأخذهما، والعودة لوداد تجيء بهما.

لم يوقف وداد من مواصلة العمل على الماكينة سوى قدوم يونس، خُطاه على السلم يحفظونها جميعاً، حنين وانتصار تسابقتا إليه: باب جي.. راحتا تُفتشان طيات جيبه عن الحلوى وأكياس التسالي.

وراح هو على عصبية تأخذه كلما رأى أو سمع صوت الماكينة: وبعدين يا وداد؟ لازم يعني الكراكة دي بالليل؟ يلا.. يلا قومي.

السنوات تمر بسرعة.. الأيام تلف وتدور والأعياد تأتي من جديد، ووداد في مشوار كفاحها تواصله بلا كلل.

فصلت الكهرباء عن موتور الدواس، وعدت انتصار وحنين ومُهاب
بأنها في الصباح ستُواصل العمل؛ فالآن حان موعد الالتفاف حول مائدة
تجمعهم على لقمة هنية بجوار يونس، ربما يعدّها.. يتبادلون أطراف
حديث يتبادلون ضحكات.. يتبادلون حتى مُناوشات، المهم أن حسهم
لا يسكت حتى يسكت يونس عن الكلام.. ويدخل لينام.



تكبيرات المسجد تعلو، الفرح قادم للبيوت استقبلاً للعيد، الأغاني
ترتفع بصوت الست:

يا ليلة العيد آنستينا

وزودتني الأمل فينا

يا ليلة العيد

يونس ووداد على عادتتهما في قضاء العيد هناك.. بالبلدة، نفس
البيت الذي تربى فيه يونس يشهد الآن خطى أولاده، حنين وانتصار
ومهاب، كم يفرحون بالعيد هناك.

الطست النحاسي، والماء الدافئ وصابون برائحة عبق يسكن
الذاكرة فلا يُفارقها، كل منهم على دوره في الاستحمام ثم الدخول
للسرير في حضن ملابس العيد، حتى حذاء العيد لا بأس أن يبيت مع
صاحبه في الفراش هذه الليلة، فهو بعد على نظافته لم يطأ الأرض.

آذان الفجر يرتفع، ومن بعده تعلو التكبيرات على يقظة العيون،
للعيد رائحة تفوح في البلدة بطعم الحب والصفو والتواصل.

الأطفال يرتدون الملابس الزاهية، يستبقون الخطى بين البيوت
الطينية ذات الطابق الواحد.

صوت الزمامير تعلو، والشجار على بالونه أو لعبة يعلو بينهم
أحياناً.

الرائح يُهنئ الغادي، البيوت تتبادل أطباق الكعك والبسكوت
والترمس والحلبة الخضراء، بطعم المودة.

صينية الشاي جاهزة تتراص عليها الأكواب الزجاجية الصغيرة
والبراد الساج الأزرق، أطباق الكعك والبسكوت والحلبة الخضراء
والترمس والسوداني.

انتصار وحنين هناك.. عند العيد، هكذا اعتاد أطفال البلدة أن
يطلقوا اسم العيد على ساحة واسعة بين أرض بها نخلات عالية يتجمع
فيها الأطفال يتبادلون ركوب الأرجوحات الخشبية المعلقة بأحبال ليفية
بين جذوع النخل.

أصواتهم تعلو: الشوط ده آخر شوط، آني الشوط الجاي.

هووب.. يلا، أمسكوا في بعض كويس، الأرجوحة تعلو في الهواء
على سعادة غامرة، وإذا نزلت الأقدار من السماء، وانقطع الجبل فجأة
سقط الجميع على الأرض بين سليم ومجدوع.. وربما مكسور، فيمتزج
الضحك بالبكاء، بالتأوهات، وربما بالسباب واللعن.



يونس في حضرة سعيه للرزق يُكر مع الطيور الغادية خِماصًا
على بدالات دراجته يستنشق نسيم الرضا، الطريق على عادته من
الزحام في هذه الساعة التي تشهد تكدس الذاهبين لوظائفهم، يجر جرون
روتين الأيام، صباحاتها مُتوالية بنفس العناوين، ربما نفس الوجوه كاد
يحفظها، فكل يوم يُقابلها مُتبادلة الخطوات، قد يسبق الواحد آخرًا
بخطوة أو يتأخر خطوتين.

لولا لزوم العيش لهجر هذه المنظومة أو لهدم سافلها عاليها،
وخلص البشر من كل ذلك الملل والروتين.

لا بأس، فليبقى هو داخل رأسه، يستمتع بتحية صباحٍ يلقيها
على شخصٍ لم يعرفه، يسعد بالمرور على رصيف الجرائد فيتصفح
العناوين، ويُناغش البائع ضاحكًا أو مُتنتكًا على خبرٍ هزلي، ثم يمضي
من جديد هاربًا من زحام العربات وضوضاءها، هاربًا من تلك الوجوه
العابسة التي تمشي بشكل آلي، وقد يتصادم الكتف بصاحبه فتقوم
عاركة، لأن واحدًا منهم لم يعترف أنه هو المُخطئ أو أنه هو الذي
بدأ الصدام، هاربًا هو من كل ذلك عارجًا على أحد الشوارع الجانبية
«فكل الطرق تُؤدي إلى روما» كما يقولون.

وحده يأنس صديقته الدراجة «تلك الساحرة» عليها أن تختصر
الأخطار، فتتنطوي الأوقات بسرعة ويصل لعمله قبل الزملاء.

الأشجار على جنبه تذكره بحافة التربة في بلدته، يذكر الأشجار
هناك، يذكر في ذلك الوقت الباكر جلوسه على شطها، يمد عينيه لخضار
المدى امامه، فالغيطان تتسع.. والفلاحون فيها يقطرون العرق من أجل
أن ينبت الثرى خيرًا.

تحت شجرة كان يرقب الضفادع الصغيرة تقفز وتصدر نقيقها،
كأنها تشاركه اللحظات، وكأنه يعرف ما تخبره.

فوق رأسه تخلق الطيور التي سكنت أغصان الشجر، تنتظر صباحًا
يأخذها بين الأرض والسماء من جديد، يذكر هناك بيت جده الذي
تربى فيه فيشتاق له، يُصبر نفسه بأن الإجازة المُتاحة له اقتربت، وأنه
سيقضيها هناك أكثر انتظاما فيتسع براح صدره.

أشعة الشمس تُغازل وجهه وهو يمضي في الطريق، الشارع يقصر،
وذاكرته تمتد، فهكذا هو على عادته يجتر عالم رأسه ليسعد أوقاته،
ليخلص من منغصاته ويتغلب على عثراته، يعيش هيامات الذكريات
الحلوة كأنها واقع، فيصطدم بعد دقائق بواقع وصوله لمصلحته
الحكومية التي يعمل بها.

صباح وداد في ذلك اليوم على رائحة ليست عطرة، فالمجاري
انسدت، طفح الكيل بها فاندلعت، خاضت حتى بلاط الشقة.

على وداد إذاً أن تتقمص دور السباك، هي كذلك في بيتها تحل
المشكلات بنفسها، لا أحد يدري بماذا تُعاني.. ما تُوفره من أجرة عامل
تستدعيه يكون ثمنًا لشيء تشتريه من أجل أولادها.

السيخ الحديدي مُعلق بالمَنُور، هي وحدها تعرف مكانه، ليس
غير يدها تسحبه لتطول به المواسير.

اللحظات عسيرة وهي تجلس القرفصاء على مُحاولات مضنية،
عرقها يتصبب وهي على نفس العناد لن تدعه حتى يتصرف.

الفقايع تطفو، تُنبئ عن تباشير انسياب المياه في المواسير بعد أن
شدت هي ما كان يسدها، كيس كبير من النايلون، ربما ألقاه الجيران في
الطابق الأعلى، فلم يرق له السكون إلا في المواسير المؤدية لحمام وداد.

لا بأس.. يوم مضى، مثل كثير من أيام شهدت شقاء ترضاه وداد.



اليوم حسن يُجاور المعلم حماده كرسياً ليطول عليه الوقت، رفقتهم أصبحت ملحوظة ولا أحد يعرف السر.. حماده يسر له بنوع الصنف الجديد الذي يستلمه، يعلمه كيف ينجح بتوزيعه: شوف يا حسن أنت هنا في مكان شعبي يا حبيبي يعني مليان روس.

عايز بقى الصنف ده يوصل كل رأس، وبالهداوة يا حسن لا من شاف ولا من دري، حسن يجر نفس جديد من الشيشة فيعلو صوت الكركرة.. ينفث الدخان: ونصيبي معلوم يا معلم زي ما انا طلبت ما يقلوش كلوخ.

حماده يبلع ريقه مجبراً: أنت بقيت طماع يا حسن بس ماشي.. المعلم حماده جدع، وصاحب صاحبه عليك أنت بس بالمهمة وأنا ما تأخرش عنك يا بو علي.

تناول حسن العينة من الصنف.. وضعها في جيبه: بالإذن يا معلم حماده.. عندي تركيب نعال مكوم في المحل.

علا صوت ضحكاتهم.. انصرف حسن لوجهة هو يعلمها؛ فطُرقات حسن أصبحت مُتشعبة وكثيرة، المحل أصبح مُغلقاً لفترات طويلة.. أحياناً يُقابله أحد الجيران أمام إحدى المدارس الثانوية للبنين، وأحياناً يرقبونه من الشرفات عائداً بعد منتصف الليل.. لا أحد يدري من أين هو عائداً في هذه الساعة، وأحياناً يلمحون معه وجوه غريبة ليست من الحي.

أحوال حسن أصبحت غريبة، لا أحد يدري عنه شيئاً.. ولا أحد رآه مُتلبساً في شيء.

حنين في الشرفة وحيدة تهيم مع القمر، تُحدثه عن ابن الجيران الذي يُغازلها عن بُعد، يتبع خطواتها في طريق المدرسة، يُحاول أن يُبادلها الحديث ولكنها لا ترد، وداد أوصتها بذلك.

صورت لها الحديث مع الصبيان كأنه إثم يقود لجهنم، لا بأس.. حنين تشعر بأنوثتها، تريد لو أنها تخوض مثل الفتيات المراهقات في تجربة حبٍ ولو على عجل، لكن شبح الوصية كان مُزعجًا، وكأنه لجام في رقبتها.

لذلك كله قررت أن تصنع عالمًا خاصًا بها، أن تتمنع بلا رفض لتنسج حكاية قصيرة تشبع بها إحساسها.

ابن الجيران يقف في الشرفة المُقابلة، يرسل لها الابتسامات فلا تُجابه.. ولا تُهاوده، ولكنها على عجلٍ تختلس النظر، وعلى عجلٍ ترميه بنظرة، ثم تدخل حجرتها، تغيب دقائق.. تُلون شفاهها.. تُمشط شعرها لينسدل على خدها الناعم، تُكحل عينيها بالسواد وتعود للشرفة من جديد لترشف شايًا ساخنًا على مهل انتظاره الذي يطول.



الأيام تمر.. وحنين وانتصار يقضيان معاً مساءً يروق لكلٍ منهما
على شاكلةٍ خاصة، حنين تحت الشباك تتمدد على السرير تحت النافذة
تُواصل القراءة، أوشكت أن تنهي رواية جديدة من الروايات الرومانسية.
انتصار تقرأ.. الأوقات تمضي وكل منهما في عالمه الخاص، هناك
مع أبطال يتوحد معهم، يتشكل على شاكلتهم.. ويتلون بألوانهم.
فجأة أطفال انتصار المصباح: كفاية كده قومي نامي أحسن من
اللي بتقريه ده.

سكتت حنين برهة: دي رواية حلوة قوي ياريت تبقي تقريها.
ردت: ياريت أنتِ تقري حاجة تكون في ميزان حسناتك.
تعجبت: أنا قرئت الصبح قرآن، وقرئت كتير قبل كدة في كُتب
السيرة والأعلام، بس أنا متنوعة الثقافة يا انتصار.
أظهرت الاستياء: العلم الحقيقي هو اللي بيعرفك دينك ورسولك،
غير كده يبقى لغو.

حاولت أن تقنعها: ديننا بيدعونا للعلم بكل فروعه وأنواعه،
وبيامرنا كمان نطلع على ثقافات كل الأمم.
- نامي.. نامي أحسن يا حنين.

خرجت من الحجرة، جلست في الشرفة تُواصل روايتها، وتستمتع
بكل ما تحمله من أحساسٍ يسكنها هي الآن.



حينين في فصلها الثانوي تنتظر أجراس الجامعة على أملٍ، مرهقة
هي.. كما هي.. تحب الأغاني.. وتكتب الاشعار، ليست كالفتيات..
لها طراز خاص من الجمال، عيناها البنتان تشبهان نهر من أنهار
الجنة، بشرتها بلون القمح تشربت بحمرة خصلات شعرها البنية، تميل
على كتفيها المكتنزين وقوامها الممتلىء يزيد خطواتها أنوثة.

أكثر اوقاتها في المكتبة تتطلع على كُتب الأدب والشعر على
سلمات الإبداع تخطو أولى خطواتها، هي تجتر الذكريات فتُشكلها
سطورًا، تُعبر فيها عن ذاتها.. عن تجاربها الماضية، عن الحنين
للجدة.. وحب الجد.

عن قلبها الطفولي تحكي، وعن حبيب لم تكتمل حكايته فترك
لها جرحًا يشبه جرح الأطفال الذي لا ينزف دمًا.

عن ابتسامات الشمس في وجه الحزاني تخط الكلمات، وعن
أحلامها والأمنيات، تكتب تارةً للأم.. وتارةً للأب، تارةً للأحياء..
وتارةً للأموات.

تكتب عن إلهٍ تعشقه.. فتُناجيه، وعن حياة لم تفتح براعمها بعد.

حينين لم تزل برعمة على غصنٍ ينتظر الندى.



الزبائن عند حسن يجلسون على الأريكة، ولكن ليسوا بأقدام حافية، هم الآن لا ينتظرون دورهم لإصلاح النعال.. ينتظرون شيئاً آخر لا يعلم سواهم وحسن.

كل واحد على خلسة يتقدم نحوه، يتناول منه ويُنأوله المعلوم فيتناول منه بغيته يخفيها في جيبه، وينصرف حسن يُواصل معهم حكاياته المُسلية، الجميع يتشاركون الحديث.

وعلى انفراد يقترب منه صاحب الدور ليتناول ما يريد، ينظر عن اليمين وعن اليسار ثم يمضي في طريقه كأن على رأسه بطحة يُحسس عليها.

يتواصلون الحديث إذا ما دخل لحسن زبون ليس من شاكرتهم زبوناً من زبائن الأحذية حقاً يحمل نعلًا تمزق، يطلب من حسن أن يخطه، فيتناوله حسن ليضعه على رف بجانبه: حاضر لما يخلص تعالى خده.

فيرد الزبون: بس أنا مستعجل يا عم حسن، طول عمرك بتعملهولي وأنا واقف.

حسن أصبح عصبياً مع زبائنه: يعني مش شايف الزباين؟ مش فاضياً

يحاول الزبون معه: ده اتقطع وأنا ماشي يا عم حسن، يعني هروح حافي.

يقذفه حسن بآخر سليم من على الرف: خد.. خد البس ده والصبح هاته يا لالا بقى مش فاضيين.



حينه وحين في طريق العودة من المدرسة، حصة الفيزياء هي محل نقاشهم؛ فالشرح اليوم لم يكن على هوى حينه.. لم تفهم الدرس جيداً.. حين تعدها أن تعيد لها الشرح.

طريق جديد لمدرستهما الثانوية يبعد قليلاً عن الحي الذي تسكنانه، أحياناً تُفضلان طريق العودة سيراً على الأقدام.. نفس الحركات الطفولية لا زالت على أطراف أقدامهما.. كلتاهما تسابق أختها قذف حجارة الشارع بالحذاء.

حذاء حين لم يحتمل شقاوتها.. تمزق فجأة، وحينه اليوم تضحك، تذكرها بذات يوم بعيد منذ سنوات، حدث لها هي ما حدث لحين الآن ساعتها كانت حين تضحك.

حين تجر قدمها وتستند على ذراع حنه، يُواصلان المزاح.

وصلتا معاً لعم حسن، زبائنه يعتلون الأريكة بنعالٍ جديدة لامعة لا تحتاج ماكينة عم حسن لإصلاحها.

وجوهم غريبة غير مألوفة كأنهم ليسوا من الحي، لا بأس كل ذلك لا يشغل حين: أزيك يا عم حسن.. قالتها وهي تمسك فردة حذاءها المقطوع.

رد عم حسن مُنشغلاً: مش فاضي.. مش فاضي يا حين، روجي دلوقت.

قاطعته حِنَّه: ده مقطوع مش عارفة تمشي.

نهرهما: قولتلكوا روحوا دلوقت الماكنة مش شغالة.

انصرفتا من أمامه، دموع حنين مُحْتَبَسَة وَحِنَّة تُواسيها، البيت قَرَّب
خلاص .

أخبرتها حِنَّة أن ما أحزنها هو فعلة عم حسن، ذكرتها ابتسامته في
الماضي القريب وكيف كان يرسل لوالدها السلام ويسأل عن الخواجة
صبحي: عم حسن تبدل حاله.. لم يعد العم الطيب بتاع زمان.
عرجت كل واحدة لبيتها على وعد بقاءٍ يتجدد في الطريق إلى
المدرسة.



حماده على كرسية المنجد بالقطيفة، عباءته الصوفية تحيطه
بالفخامة، وصوت كركرة الشيشة يُنبئ عن وجود الكيف، رائحتها
تفوح من أنفاسه، أثر الدخان يحيط بالمكان، يتسلله شعور كأنه هناك
بين ضبابات عند السحاب.

يتذكر أمجاد عائلته وتاريخ والده الذي حفظه الجميع، فطريقة
إلقاء حماده تجبر السامع على حفظ ما يقول، عن الحسب والنسب
والأصل والفصل ظل يتغنّى، نسى أنه هنا بين الناس على الأرض.. وأن
الكثير من كلامه كذباً وبُهتاناً.

لم يعيده مُنكفئاً على أنفه المُتعالية سوى صوت سارينة البوليس
يرتفع، أفراد الشرطة تُداهم القهاوي والأوكار، وتقبض عشوائياً على كل
من هم محط اشتباه.

الإنذارات عن بُعد جاءت لحماده، صوت عن بُعد: حكومة..
حكومة يا معلم حماده، لكن القدر لم يمهلّه إخفاء ما في الدرج،
قدومهم كان مُفاجئاً، والتفتيش كان سريعاً.

قلبوا القهوة رأساً على عقب، وحماده نائر: ده حرام يا ناس،
الكوبايات يعني ذنبها إيه بتكسر لها بس يا بيه، يا بيه أنا هنا زي
الجنية الذهب، أنا سمعتي عيار ٢١، أنا حماده وينجز أسأل عني.

أخرج الشرطي لفة الحشيش من الدرج، أعطاهما للضابط الذي
رفعها لحماده، وأثار بوضع سلاسل الحديد في يديه.

كاد حماده يُجن جنونه: أنا معرفش حاجة عن الصنف ده، أكيد
زبون حطها في الدرج، أنا مليش في الكلام ده يا بيه، أنا عايز مُحامي..
عايز مُحامي شاطر يا اخواننا.



وداد بجانب المذيع مُنذ الصباح، عليها اليوم أن تنتصر على قلقِ
يدب قلبها، نتيجة الثانوية العامة، اليوم يتحدد مصير حنين، ويتبدى
حلم الجامعة الي طالما اشتاقت لدقات ساعتها.

أرقام جلوس الناجحين تُذاع عبر الراديو، لا زالت الأرقام السابقة
لأرقام حنين، ولا زالت وداد تنصت على أملٍ نطقها المذيع.

نفس الأرقام التي يذيعها بين أرقام الناجحين هو رقم جلوس
حنين المطبوع على ورقةٍ تمسكها وداد، وتعيد النظر إليها.. صاحت:
قومي يا حنين، مبروك.. مبروك يا حبيتي.

فتحت حنين عينا وأغمضت أخرى: ماشي يا ماما، مانا عارفة إني
هنبجح سييبي أنام.

راحت تُداعبها.. ترفع الغطاء عن وجهها: قومي.. قومي يا حنين
نفتح الشبابيك، الجيران هيسألوا عنك.

علا صوت الزغاريد في بيت وداد، الجيران يُباركون الخبر
ويتوافدون للتهنئة يحملون صناديق المياه الغازية ويضعونها في مدخل
الشقة، على ذلك اعتادوا تهنئة النجاح.



حين بَصْجَة و داد بين محلات الأقمشة، اختارت ما أعجبها من ألوان، وصفت لوداد أشكال الفساتين التي تروق لها، أشارت لما يشبهها في الفتارين، ووداد تعدها أن تحيك لها ما وصفته بالتمام.

ليل و داد يُشاركها الفرح بحنين، اليوم تذكر يوم أن وضعتها، تذكر يونس وهو يحملها بين ذراعيه يتأملها: عينيها حلوة قوي يا و داد، البت زي القمر.

تناولتها منه: صلي على النبي، الله أكبر ربنا يحميها.

اليوم كبرت حنين، وتستعد لدخول الجامعة، حلم و داد يتحقق وهي تنكفي على ما كينة الخياطة، تلضم الإبرة وتضع طرف القماش تحت الدواس لتحيك لها فستاناً جديداً.. من أجل حنين.

تجتر الذكريات، نشهد من جديد صوراً ماضيه لمشوارٍ سنين أنهك قواها، سنوات مرت من الجهاد بين الحلاوة والمرار، أزمت وانفراجات، ضحكات وآهات، قواديس ساقية الأيام مرت.. وتمر، فهي أبداً لن تتوقف رغم متاعبنا تستمر، تدوس بلا رحمة من يقف في طريقها، فالشاطر من ينفث منها راضياً.. راضياً بالمقسوم.



ساعة الجامعة تدق، توقظ أحلام حنين التي تتحقق، هي الآن
خلف السور الذي طالما مرت عليه ترمقه من بعيد وتتمنى أن تكون
داخله، طموحة هي.. فالآفاق تتسع لعينيها البريئتين.

الأدب.. عالمها الخاص، أصبح سلمات المستقبل تخطو فوقها،
فالآداب هي الكلية التي اختارتها وتستمتع بالدراسة بها.

حنين تنبش بين الوجوه بنظراتها، تتأمل الأشياء حولها، تقرأ
عالمها الجديد، خطواتها تتجول أنحاء الجامعة، تقرأ اللافتات المعلقة
على مدخل البوابات، تتعرف على مكان الكليات حولها داخل الحرم
الجامعي.

الإعلانات المعلقة في الهواء بين الأعمدة تحمل أسماء الأسر
ودعاية الأنشطة، لعاب حنين يسيل فهذا ما تهواه.

عليها إذن أن تستكشف المجالات وتبدأ بالاشتراك، قريباً ستصبح
مسئولة عن إحدى الجماعات تعقد الندوات وتنظم الرحلات، فالقيادة
بصمة شخصيتها.

الوجوه تبدئ لحنين.. تتقدمها.. تقرأها، تستعد لاختيار
الأصدقاء، فالصدقة بالنسبة لها انتقاء، انتقاء للأرواح التي تألفها لا
لأجسادٍ تعهدا.



وداد ويونس في حضرة الذكريات، الليل يحلو على نسمات الهواء في شرفة صغيرة بحجرة النوم، كوب الشاي هو مزاج يونس الذي يحلو له. يُذكر وداد بأول مرة التقى بها، يومها كان قادمًا من بلدته بحقيبة يحملها في يده، ويمشي في الشوارع يبحث عن غرفة للسكن.

البيوت كثيرة.. والسكن الخالي كثير أيضًا بين كل حين وآخر، تعلقت ورقة بحبل يهزها الهواء: شقة للسكن في بيت وداد، علق والدها مثل هذه الورقة لحجرة سكنها يونس.

كانت وداد يومها تنزل السلّمات في طريقها لشراء ما يلزم البيت، ومُنذ أن لمحها لأول مرة علت دقات قلبه.

سألها: ويومها يا وداد.. قلبك دق.

ابتسمت: أنا فاكرة يا يونس، والنبي أنت رايق باين عليك.

سألته: المدارس قرّبت هنعمل إيه في مصاريف العيال؟ أخذته من سماء خيالاته لمطبات الأرض.

هز رأسه: ربنا يسهل.

أعادت إليه نفس الحديث عن حالهما الذي لا بُد أن يتطور، هي ترى أن يونس ليس ماهرًا لا تكفي طبيته، لا بُد أن يبحث عن مصدر دخل جديد، لا بُد أن يسلك دهاليز الأماكن والأشخاص في وظيفته حتى يحصل على ما يحصل عليه الآخرون.

يونس بسيط، وهي لا تكفيها البساطة، هي ترى أن الحياة معركة..
وأن البقاء للأقوى، ويونس يرى الحياة سهلة ولن تدوم.

يكفيه الستر ودعوته: يا رب سترك ورضاك، وهي تأمل في المزيد.

أصحاب يونس يترقون أسرع منه، أصحابه على حكاويه لها..
يعرفون كيف يصيدون القرش ومن أين تُؤكل الكتف.

ويونس تكفيه لقمة ويشبعه من الحب نظرة، أحلام وداد مُمتدة..
وطموحات يونس مُنبثرة، أقصاها يظل رأسه بمظلة الرضا فيصبح
سعيدًا بلا سبب، وهي دائمًا على أرقٍ له عندها أسباب.

لا بأس.. عليها الآن أن تدبر مبلغًا من الماس بالمُشاركة في جمعية،
ولكن من أين تأتي بها لتدفعها كل شهر؟!

هذا لا يعني يونس، يونس يعطيها ما يأتي به، وهي عليها أن تجعله
كافيًا، من مصروفه القليل عليها أن تعد الطعام وتشتري ما يلزم الأولاد،
وتجنب مبلغًا تحسبًا لمرضٍ أو طارئٍ يطرأ.

رأس وداد تدور بها وهي بجانبه، ورأسه هو ثقلت فانحنت على
صدره في غفلةٍ أخذته من أثر مشقة يومٍ طويل.



صبحي يلحظ ولده سمعان عن بُعد، يُشاور نوال في أمره، هما معاً على السرير.. يتبادلان أطراف الحديث، وسمعان هُناك في الشرفة لا زال يرقب نافذة حنين، يتلصص خروجها ليرمق منها نظرة تشفي نيراً بداخله تتقد.

تنهد صبحي: ابنك في البلكون بالليل.. أكيد مستني يشوف السنيورة حنين، الموضوع ده لو اتطور هيعمل مشاكل يا نوال. دبت صدرها: يا راجل دي حنين زي أخته.. أنت عقلك راح لبعيد. رد: لا يا نوال.. أنت اللي مش حاسة بابنك.

خفضت عينيها بأسى: شوف يا صبحي.. سمعان كلمني إنه عايز يسافر العراق، وأنا زعقت فيه قولتله لو سمعتك بتتكلم في الموضوع ده تاني هموت نفسي، هسيب البيت.

نفث سيجارته: الولد عايز يهرب من جها، وأهو يشوف مُستقبله ويعمله قرشين.. سيبه يا نوال.

نزلت دموعها: أسيبه؟ أسيبه يتعذب؟!

السفر مش وحش يا نوال، ابنك لسه صغير والمستقبل قدامه.

شعرا بأقدامه تدب الأرض رواحاً ومحيئاً من الشرف إلى الحجرة، دخل المطبخ ربما يعد فنجاناً من القهوة أو الشاي، هو على ربكة.. يشعرها صبحي: شوفت يا نوال قولتلك الولد مش طبعي، البنت شاغلاه.

تنهدت نوال: يا ويلي.. احنا جيران من سنين وعمر ما عملنا مُشكلة،
الواد ده اتجنن ولا إيه؟ هيفيده بإيه حُب مسلمة الخايب النايب ده؟
هز صبحي رأسه: الحب يا نوال مرايته عاميه، مايعرفش أي كلام
بالعقل.

شارت عليه: تفتكر يا صبحي أنكشه كده واتكلم معاه؟
رد: سيبه يسافر يا نوال لو في فرصة، السفر أحسن علاج.. البنت
في وشه ليل نهار والكلام مش هيغير من الأمر شيء، ما باليد حيلة..
أمر الرب.

- طب والعمل يا صبحي؟

- قولي يا عدرا.. رفع يديه: يا عدرا يا أم النور.



حينن على رأس الطاولة تدير ندوة بعنوان «قضايا الادب والفن المعاصر بين الواقع والمأمول» فمستقبل الادب والفن أهم اهتماماتها. الأساتذة أصبحوا يعرفونها جيداً ويهتمون بمقالاتها الأسبوعي في جريدة الجامعة والتي تشرف عليها، وتكتب في صفحاتها حضور الندوة من جميع الفرق، فاسم حينن أصبح جاذباً، من كليات أخرى مُجاورة يأتي المهتمون بنشاط حينن.

لم تعد القضايا الأدبية التي تطرحها حينن مجرد موضوعات للمناقشة، بل أصبحت مجالاً للبحث وعناوين للدراسات الجادة. أصبح صيت حينن يُذاع في أنحاء الجامعة، فهي تترأس جماعة وتُنظم رحلات وتدير الندوات، تُصاحب الجميع وتُشر الحب والدفع، تشف بروحها فتَهفُو في النفوس.

حينن زهرة يفوح عطرها، حينن أصبحت لكثيرين شمس العطاء.. وقمر اللقاء، ورغم ذلك لم تعد في عين وداد سوى طفلتها الصغيرة، تملي عليها الوصايا أن تلتزم الحدود فلا تُخالط الشباب، سور الجامعة هو الحد الفاصل لصحبته لهم: إياك أن تُصاحبني زميلاً خارج أسوار الجامعة أو تلازميه المرواح والمجىء.

هذا ما تعلمته وداد، ربما حينن الآن تعيش زمناً غير زمانها وعصرًا تتسع فيه حبال الوصل بلا عوائق أعرافٍ باطلة، لكن حينن لديها الكثير من موروثة وداد، حفظتها في الجينات، تربت على عادات مُحافضة،

تضع فاصلاً بين الذكور والإناث لا ينهار مهما اخترقته المُستحدثات.

هي إذاً زهرة لا تطولها الإيادي، تلوح للناظرين.. تفوح بعطر
المُحيين ولا تكتب قصصاً للحب أو الهوى، كتلك التي ترويها صفحات
البنات في مثل عمرها.

هي دوماً على انتظار، تعرف أن السماء يوماً ستهدىها قدراً لا تدريه
اليوم، ولكن غداً ستفصح عنه الأيام.



اليوم طرق بابها الحلم، كان الصباح على تغريدات عصافير
فاستبشرت، وأنتها حقاً البُشرى، على أطراف أصابعه يدق الباب.. فتحت.

- صباح الخير.

- أهلاً.. صباح النور

- حضرتك أنا مندوب من شركة هاترك للمنظفات.

أخرج من حقيبة كبيرة تحت قدمه كيساً: هو ده المسحوق يا فندم
ده منتج جديد هيغطي السوق، ناولها إيصال مختوم باسم الشركة:
حضرتك من الفايزين معنا.

تهلل وجهها، واصل: هتشرфина عند مقر الإذاعة والتلفزيون
وتستلمي جايزتك شيك هتصرفيه خلال أسبوع.

التقطت أنفاسها تُداري شدة الفرح: والإيصال ده هيفضل معايا؟

- أيوه يا فندم بس شروط استلام الجائزة إن حضرتك تقدمي
عشرة أكياس هاترك فارغين، فحضرتك حالاً بتشتري عشر
أكياس، وبتشرфина يوم الجمعة الساعة أربعة عصرًا قُدام
التلفزيون.

تنهدت: وده بكام الكيس؟

- الكيس بأربعين جنية يا فندم، يعني بتشتري بأربعميت جنية
وبتشرфина تستلمي الجائزة اللي طبعاً أضعاف المبلغ، الجائزة
يا فندم خمسة آلاف جنية وفقط لعشرة فايزين.

الآلاف الخمسة لاحت لعين وداد، تخيلت نفسها وهي تصرف الشيك.. وتمتلك المبلغ، راحت بُرهة لمحل الأدوات الصحية واشترت طقم حمام جديد، مرت على محل الملابس واشترت فستانين وطرحه، ولم تنس يونس فاجأته بقمصان ياقتها لم تزل سليمة، اشترت لكل واحد من أولادها ما كان يطلب.

أفاقت.. عادت تُفكر في مبلغ لا تملك غيره، ادخرته بصعوبة من جمعية عمل يونس، هي تحفظه في الدولاب بعيداً عن المصروف لتستعين به في موسم دخول المدارس لشراء الأدوات المدرسية.

سألها المندوب: إيه يا فندم قولتي إيه؟!

سكتت برهة، هي بين نارين.. المبلغ المُدخّر عصفور في اليد، وجائزة الهاتفك عشرة عصفير فوق الشجرة.

ردت: طيب وإيه الضمان إني هستلم الجائزة؟!

رد: يا فندم حضرتك معاك إيصال بختم الشركة، وبعدين خلاص، أعداد أكياس المُنظف للحقيبة.. حضرتك إحنا عايزين بس عشر فايزين خليك لفرصة تانية، همَّ يرحل عنها.

فتذكرت الآلاف الخمسة: لأ.. استنى، أنا هشتري الهاتفريك.

أكياس الهاتفريك مُتراسة فوق بعضها، ويونس بعد عودته من العمل يقف أمامها في الصالة: إيه ده يا وداد؟

- ده الهاتريك.. النهاردة، النهاردة طاقة القدر اتفتحت لنا يا
يونس، حكّت له ما حدث.

جلس على الكرسي: جبت بفلوس المدارس هاتريك يا وداد؟!

- تلجلت: يوم الجمعة هنكسب أضعافهم من الجائزة.

ضرب كفًا بكف: جائزة! إنت بتصدقي النصب ده يا وداد؟

أصفر وجهها: فال الله ولا فالك نصب إيه أنا معايا إيصال مختوم.

- هو مختوم بختم النسر يا وداااااااا!!

كانت حنين وانتصار تكتمان الضحكات وهما تجلسان في

حجرتهما، قالت حنين: أمك اتنصب عليها.

ردت انتصار: ويمكن يكون في جائزة.

أشارت كل واحدة لصاحبتهما بالسكات.

ارتفع صوت يونس: يلا.. يلا حضري العشا عليه العوض ومنه

العوض.

طبّبت عليه: اخلع القميص ده أنقع هولك في شوية هاترك، تلبسه

الصباح نظيف.

ناولها القميص، ودخل يغير ملابسه.

خرج على ولولتها: المسحوق ولا بيرغي، ده مغشوش يا يونس،
عامل زي التراب.

أكل يونس لقمة، وابتلع غيظه بشربة ماء، ثم نام يُفكر كيف سيُدبر
مبلغًا جديدًا؛ فالمدارس على الأبواب.



أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون، في تمام الرابعة بعد العصر يوم الجمعة اصطحبها يونس تلبية لرغبتها الملحة.

- لا.. هنروح يا يونس، أنا معايا الإيصال مختوم وهنجرب، أكيد الموضوع جد.

حاول أن يفهمها: الجواب باين من عنوانه يا وداد، المسحوق نفسه مغشوش وكأنه تراب، والنصب ده معروف بس إنت فاتت عليك.

صممت.. فصحبها لهنالك، جمهور كبير من الناس يضربون كفًا بكف: ده حرما والله، كل واحد يحكي لصاحبه نفس قصة المندوب الذي مر عليه وباع له برعمائة من الجنيهات مسحوقًا مغشوشًا.

عامل الأمن بمبنى الإذاعة خرج إليهم، طلب منهم أن يرحلوا لأن التجمع بدون سبب أمام المبنى ممنوع، وأنه لا علاقة لهم بهذه الجائزة الوهم.

جرجروا حسرة خطواتهم وانفض كل منهم لوجهته على تمتات بين السب وبين الدعاء على الظالم.

يونس ووداد يُواصلان السير على الكورنيش، هو على ابتسامته المتهكمة التي يكظم بها الغيظ، وهي على غيظ ينط من عينيها تسب في المندوب الذي غشها، وتؤكد ليونس إنه لم يظهر عليه أنه نصاب.

من جديد تخرج الإيصال المختوم من حقيبة يدها: الإيصال أهو مختوم.



ليست المرة الأولى.. سنوات مع الشغل والنفاد، كذلك حكمت المحكمة حضورياً على حماده وينجز.

هو في السجن يُمارس المعلمة، ويملي التعليمات فيدير القهوة من مكانه، واحد من رجاله يتولى ذلك.

أوصاه أن يفشي في الحي إشاعة: المعلم حماده الحمد لله أخذ براءة، بس هو في سفريه كده، بيقضي مصلحة عشان يرجع يوسف قهوته.

حسن يقوم مقامه، يؤدي ما يأمره به حماده من داخل السجن فيسير كل شيء على أحسن حال، هو يذهب لاستلام البضاعة وهو يُوزعها وهو يرقب القهوة تدور على ما يُرام منها ينتشر الصنف.

الآدمغة على عهد الكيف حتى ولو أن حماده بعيد فرجاله بالواجب يقومون على أتم وجه.

غاب حماده ولكن الصنف لم يغب، الأوكار لا زالت على تداوله، تقاطعات الشوارع في الظلام تشهد نفس الرؤوس المُلتفة حول قسمة الكيف.

الكل يعرف أن المعلم حماده من خارج البلاد لم يزل يُفكر في أدمغتهم ويرسل لها كيفها ليظل المزاج عالياً، والكيف عالكيف.

الأيام تمضي وحماده بين القضبان، الإشاعات حول سفره تتردد، والقهوة لم تنغلق، والأصناف لم تشح.



الجامعة بالنسبة لانتصار عالمها الخاص، إليه تهرب من وحدتها..
تهرب فيه عن مخرجٍ لهمومها التي بلا سبب.

أسماء هي الصديقة التي اختارتها.. لا تعرف لماذا، ربما لأنها
مُغتربة، والغربة بالنسبة لانتصار معنى يسكنها.

من إحدى المحافظات القريبة من القاهرة جاءت أسماء لتدرس
الحقوق في جامعة القاهرة، وتسكن مع الطالبات المُغتربات بالمدينة
الجامعية.

أصبحت أوقات انتصار وأسماء على شراكةٍ تطول، لم تكن انتصار
تعرف ذلك الطريق المجهول الذي كشفت لها أسماء عنه ذات يوم.

في ذلك اليوم أخبرتها أنها تتراد الطريق.. طريق الوصول، وأن
لها شيخ يُعلمها الكثير من الأسرار، وأنه وعدها أن تصبح في يومٍ من
الأولياء الفائزين بالجنة.

راحت تقنعها أن طريق الجنة هو الطريق الأهم، الأهم حتى من
الدراسة، أخبرتها أنه يسكن قريتهم.. وأنها من المريدين له، لم يشغل
انتصار أمر الشيخ.. ولكنها انشغلت بعالمٍ جديد ربما يكون هناك.

الشيخ سعد أحد مشايخ طنطا المعروفين، يأتيه المريدون من
كل مكان، فيُعلمهم ما يضمن لهم طريق الآخرة، وكأنه يملك تذاكر
الدخول للجنة، هكذا تتحدث عنه أسماء.

عرضت عليها أن تصحبها لزيارة له لترى بنفسها كيف تكون
حضرته، لكن انتصار اعتذرت بأن والدتها لن تسمح لها بسفرٍ، وإلى
شيخ لم يعرفونه، في بلدةٍ ليس لهم فيها قريب.

وسوست لها أسماء: وإيه اللي هيعرف أمك؟! هنروحوا من
الصبح بدري وعالمغرب نكونوا هنا.

ارتبكت انتصار.. لا، ده لو الحكاية دي اتعرفت ماما متعرفيش
ممکن تعمل إيه.

عادت تقنعها: أنتِ ماعدتيش صغيرّة، أنتِ بقيتِ في الجامعة،
الصبح نركب القطر ساعتين زمن وساعة عند الشيخ ده سرّه باتع..
صدقيني.

عينا انتصار تجوبان حولها، الفكرة تنقر رأسها بين الرغبة في
المخاطرة، وإيثار السلامة.

وأسماء تُواصل: جَرّبي وتعالِي معايا.. هتاخدي البركة منه.

حين وسامح في لقاء في ساحة الجامعة يتبادلان حديثا فلسفيا عن
الجنة والنار.



سمعان يجهز حقائبه.. يُلملم ثيابه.. يضع بينها زجاجة عطر
أهدتها له حين يوم أن نجح في الدبلوم، يذكر نبرات صوتها: إحنا
أخوات يا سمعان.

هي بالنسبة له أكثر من مجرد جارة أو أخت، هي بلا إذنه تربعت عرش
قلبه بين هلال و صليب بمشاعر إنسانية لا تعرف دينًا ولا جنسًا ولا لونًا.

بات ليلاته يحدث يسوع، يُشاركه الآمه المُعلقة فوق الصليب،
يترجاه أن يخلصه من حبها ولكن لا مفر.

الهروب هو الحل الأمثل بالنسبة له، ربما هناك في أراضين بعيدة
ينساها.. يُفارق وجهة شرفتها لوجهه أُخرى ومقصدٍ جديد.

حنّه مع والديها في الصلاة بدموع مُتجمدة تتبادلهما نظرات الألم،
لأول مرة يُفارقهم سمعان.. لأول مرة سيصبح البيت بدونه.

صبحي يبث فيها القوة: بركة العدرا تُصاحبه والرب يرعى
خطواته، ويفتح له أبواب الرزق.

نوال لا تتمالك دموعها: عمره ما فارقنا، يا سمعان يا ضنايا يا
بني.. يا حبة عيني.

حنّه تتلفت عن اليمين وعن اليسار، تمسح دمعتها الساخنة بأطراف
أصابعها: اليسوع يحميه.. موفق يا رب، سمعان طيب وابن حلال وبركة
العدرا مش هتسيبه، يا أم النور تصاحبه وفي خطواته تتابعيه.

خرج سمعان.. يُخفف عنهم ألم اللحظة بابتسامة باهتة: إيه يا جماعة هو أنا أول واحد أسافر؟ يا للاً أم سمعان جهزت حبة ملوخية ناشفة وبرطمان مش.

داعبها: بدوده يا نوال، من بتاع الصعيد.

تبادلوا الضحكات، استأذنهم: هعدي اسلم على طنط وداد، يا عالم يا مة..

نظر سمعان نظرة استياء، توجه نحو الشرفة.. طوي هو السلّمات
لهناك.

طرق الباب، فتحت له حنين، مدّ يده يسلم عليها: أشوف وشك
بخير يا حنين، طيارتي بعد ساعات.

سلمت عليه بابتسامة: الله يوفقك يا سمعان، أنت تستاهل كل خير.

نادت: ماما.. تعالي سلمني على سمعان.



الطريق يأخذهما للشيخ في البلدة، لأول مرة تخطو انتصار سراً..
لم تخبر أحداً من أهل البيت.. حتى حين.

عجلات القطار تمضي، وهي على الكرسي بجوار الشباك تتأمل
الطريق، تُشاهد المزارع وترصد بعينها المباني التي تظهر بين الحين
والحين، أسماء لم يتوقف حديثها عن الشيخ.

وصلتا لهنالك، البيوت الطينية على طابقها الواحد، أعواد الخوص
بين فتحات جدرانها لنفاذ الشمس والهواء، البوابات خشبية مُتناصلة
يعلوها مطرقة نحاسية مُعلقة على هيئة كف.. أو كرة.

الأزقة هناك مُتعرجة، بعض البوابات مفتوحة على مصراعيها،
الدجاج والبط يتجول هنا وهناك، وصوت العجن يطب أذن المارين،
رائحة الروث تفوح، الأدخنة تنتشر لأعلى تعلن عن أرغفة تنخبز
بالأفران.

عند أحد البيوت توقفت أسماء، أمسكت المطرقة ودقت بها
الباب.

علا صوت الشيخ من الداخل: ادخلي يا أسماء.

تلون وجه انتصار، كيف عرف أنها أسماء! أسماء أخبرتها أنه
ليس لديه هاتف نقال، فهو لا يستخدمه، لا وقت لديه يضيعه في السرد
أو الاتصال، هو دائماً في انتظار، ومريديه يأتونه متى يشاءون، أما مواعيد
الحضرة فمعروف ومقدس للجميع لا يتغير إلا بالإعلان المُسبق عن ذلك.

الخطوات في طريقة تفضي إليه كان لها صدئ يدب أذن انتصار،
هي تتأمل غرفته المواجهة للمدخل، أريكة طويلة تمتد بعرض الحائط
تستند عليها وسائد، الشيخ يتوسط الأريكة، يرتدي جلباباً أزرق وطاقية
بنى فوقها شال أبيض يلف وجهه المُمْتَلئ، لحيته سوداء يشوبها
شعرات بيضاء تعلن عن قدوم شيبٍ.

عيناه بارقتان تحجرتا على نظرة ثاقبة، شفتاه غليظتان تُتمتتان
بكلماتٍ غير مفهومة.

أمامه منضدة عليها كُتِبَ وأوراق وقلم، وزجاجات داكنة اللون
لا يبدو ما بداخلها، على جانبه مكتبة خشبية ذات أرفف عليها كُتِبَ
صفراء بعضها بغلافٍ سميك.

أشار لهما فجلستا على الأرض أمامه، لا أحد يحق له أن يُجاور
الشيخ مقعده، عرفت ذلك من قبل.. أسماء حكّت لها.

نظر لانتصار نظرة طويلة: أهلاً بالضيفة.

ردت أسماء بسرعة: إن شاء الله تبقى صاحبة دار.. وتبقى من
مريدينك يا مولانا.

أغمض عينيه، هز رأسه يميناً وشمالاً: الطريق صعب.. حلاوته
للصابرين، اللي يصبر ويتعلم هيكون من صفوة المريدين.

ردت انتصار: إن شاء الله أكون صابرة، أنا بحب العلم وأتمنى
أكون من مريدينك، أسماء كلمتني كثير.

واصل : الجنة للأولياء يا انتصار، وطريق الولاية مش زي أي طريق
يا بنتي، لازم تجتهدى.. تصبرى، وأهم حاجة الطاعة.. الطاعة.

التقطت انتصار أنفاسها، لم تدرِ بماذا ترد، نبضات قلبها على
سرعةٍ غير عادية، ولسانها لم ينطق ببنت شفة.

ردت أسماء: طبعًا.. طبعًا يا شيخ، انتصار جاتلك بنفسها وأكد
عارفة إن الطريق مش زي أي طريق.

مد الشيخ يده.. صافحها، وطلب منها أن تُردد ما يقول، تلا بعض
الآيات، ثم صلى على الرسول.

ابتسم: أنتِ كده أخذتِ العهد يا انتصار، بس خلي بالك يا ويل
اللي يخون، إلا خيانة العهد يا انتصار.. العهد بالطاعة.

راحت أسماء تشرح لها: علينا نسمع كلام الشيخ.. كل شيء بإذنه
وأمره، حتى الأوراد اليومية اللي بنقراها في الصبح أو المساء، احنا ملك
لشيوخنا يا انتصار.

هزت انتصار رأسها مرتابة: حاضر.. حاضر، عمري ما هخون.

واصل الشيخ: طريقنا.. طريق الفتح المُبين يا انتصار، وكل خطوة
لقدَّام بتعلي مقام، ولما مقامك يعلى يا انتصار جنود ربنا هيكونوا
معاك.. يدافعوا عنك، وممكن تكمل المشوار وفي يوم تبقي شيخة
وليكَ مريدين.

رنت الكلمة في أذن انتصار، دارت الأفكار في رأسها: أبقى شيخة!
ويكونلي مريدين!

راقت لها الفكرة.. راحت تتخيل نفسها وهي في ثوب المشيخة،
تعتلي أريكة وأمامها المريدين يأخذون العهد ويتلقون الأوامر.
أفاقت على أوامر الشيخ تلاحق أذنيها، ووصيته بالطاعة، يؤكّد
عليها وهي ترد: حاضر.. حاضر يا شيخ.

آذان العصر يرتفع، أسماء وانتصار تهمان بالرحيل، أستاذنا الشيخ
على موعد الحضرة في الأسبوع القادم.. الحضرة الأولى لانتصار،
والخطوة الأولى بطريق الفتح المبين كما أخبرها الشيخ.

الطريق ينطوي.. والحديث بينهما يطول، أسماء تحكي لها عن
مشوار سبقتها فيه منذ ثلاثة أعوام وهي ترتاد الشيخ، تحكي عن
أسراره، تعدها بعوالم أخرى بعيدة لا تشبه عالم الأرض، عوالمهم هي
بين الأرض والسماء، لا يصل إليها سوى من يسير بطريق الفتح، فيأخذ
العهد.. ويقدم الولاء والطاعة.

افترقتا عند بوابة بيت المغتربات الذي تسكنه أسماء، وأسهرت
انتصار الخطى إلى بيتها، الأفكار تراودها عن عذر تقدمه لداد، بالتأكيد
ستسألها عن سبب التأخير.

قدماها مربكتان، يدها تدق الباب بحذر.

فتحت وداد: كنتِ فين يا انتصار؟ إيه اللي أخرك كده؟ ردي عليا!

انبهت وجهها: كنت.. كنت مع صاحبتني في المستشفى تعبت فجأة.. وكان لازم أروح معاها.

كذبت، لم تعتد ذلك من قبل، لكن العهد أن يظل كل شيء سرًا، وإلا لن يتم الفتح.

دخلت حجرتها، أطفأت النور ودخلت في خلوة تُردد ما أمرها الشيخ، فكل شيء بعددٍ محسوب، آيات مُحددة بأعدادٍ مُحددة، وأذكار بأعداد لا يجب عليها أن تزيد ولا تنقص.

حلم العهد يُراودها، الطريق يرتسم أمام عينيها، ترى نفسها في الأحلام شيخخة على شأنٍ لها وصيت، تلفها الملابس البيضاء وعتبتها تتراءى للجميع خضراء، فيرتادونها طالبين وتحت قدميها يصبحون مريدين.



الدعوة عامة.. لمعرض الفنون الذي تُشارك فيه الفرقة الرابعة بإبداعاتهم، أرادوا أن يتركوا ذكرى قبل تخرجهم في الكلية فاتفقوا على ذلك. كانت رسالة للجامعة بأكملها أن طلبة اللغة العربية وآدابها مُبدعون، فالإبداع ليس مقصوراً على تخصصات الفنون الأكاديمية. تأكدت الرسالة، المعرض على مستوى فني رائع بين لوحات زيتية وأعمال حفر ونحت ومشغولات.

تسمرت قدما حين أمام لوحة الخيول، الخيول بالنسبة لحنين رمزاً للقوة والوفاء، كأنها تسمع صهيل الخيل وكأنها تمتطي ظهره الممشوق.

وقفت بإعجاب تتأمل، مالت بعينيها على رسام اللوحة الذي جاورها الخُطى كأنها تتأمل في عينيه إحساس نفس الفرس الذي يجول الصحراء هناك في الصورة، بادلته التحية.. صوته الهادي يسكن ذاكرة فؤادها.

نبضها يعلو.. يدق أذنيها على استحياء أول شعور من هذا النوع، يتسلل قلبها خلسة بلا استئذان، الإمضاء في اللوحة سامح.

سألته أن تشتري اللوحة فقد حازت إعجابها، اعتذر بأن المعروضات ليست للبيع؛ فالمعرض من أجل التعارف وإبداء التعليقات، وهو لقاء أخير للمبدعين قبل التخرج.

كيف يكون ذلك هو اللقاء الأخير، هو بالنسبة لها اللقاء الأول
لمشاعرٍ أخيرة لم تذوقها من قبل، ولم يذوق هو نفس المشاعر إلا في ذات
اللحظة، عيناه باحت لها بذلك، كان يتابعها بنظراته، يتأملها.. يطيل
معها الحديث عن الفنون والألوان، والحقيقة أنه مُعجب بألوانها هي
الفريدة، لون براءة عينيها ولون البهجة في ابتسامتها الساحرة، واللون
البنّي الذي تلونت به خصلات شعرها المنسدلة على وجه مُستدير
اختمر بحمرة الخجل.

هي ذاتها فتاة أحلامه التي طالما رسمها في لوحات بلا عنوان، الآن
عرف أن اسمها حنين، نفس الحنين الذي يُخالجه الآن فيسوقه إليها بلا
استئذان.

كأنه يعرفها من أزلٍ قديم، ربما قابلها مُنذ أن كان طفلاً، وربما
كانت يوماً جارتها، وربما تشبه واخدة من أقاربه، أو ربما هي تشبه أمه
التي ربه صغيراً فحفظ في ملامحها حنان يلقاه الآن في وجه حنين.

الأفكار تجوب به حولها تقوده إليها مُتأملًا، كل شيء فيه عاشق
لأنخفاضِ نظرتها أمام عرش فنه العظيم.



انتصار في الطريق إلى شيخ جديد.. سمعت عنه وعن سره الباطع،
عرفت أن له في ذلك العلم باع، وعنده من الكتب ما لا بأثمانٍ يُباع.

الليل دامس.. البرد شديد، ولكن الأهوال يتخطاها المريد، الشال
الأسود يلف جسدها المُمْتَلئ، هي شاكله من الجبروت لا تُناسب
وصف النساء، لا تعبى بالمخاطر.

فوق الأرض تدوس طين المطر، تكشف الطُرقات المُتعرّجة بين
أشعة خافتة، تتعثر في حجرٍ بين الحين والحين فتمسك نفسها عن
الوقوع على الأرض وتمضي في مواصلة الطريق.

نباح الكلاب لا يعينها رغم أنه حقًا مُخيف، لا شيء يهتمها سوى
الوصول إلى بيت الشيخ، فعنده ما تراه ثمين.

البيوت هناك بعضها لا يزال على حالته بالطوب اللبن وله بوابة
خشبية كبيرة تناصلت أخشابها وتلونت بلون السنين، وبعضها علت
الأرض على عتبه فأصبح مدخله منزل يشبه منزل المدافن حيث يرقد
الموتى.

الحياة في هذه القرية البعيدة تشبه ذاكرةً منسية، كأن الأعوام مرت
إلا عندها توقفت منذ عقود من الزمان.

هي تسير.. لا شيء يثنّيها عن مواصلة المسير، ففي سبيل ما تصبو
إليه يهون العسير.

وصلت عند بوابة بيته طرقت، ثم رفعت باباً مُتوارباً.. أَلقت السلام، هناك على الجانب الأيمن من نهاية الفناء الواسع يجلس الشيخ على أريكة، موقد الكيروسين يضفي ضوءاً خافتاً، وصوت الشيخ مُتمتماً ثم علا فجأً: ادخلي يا انتصار.

لم تكن على سابق معرفة به، لأول مرة تأتيه، واصلت الخُطى نحوه.. سلمت عليه، وجلست أمامه في أدب.

أُنت على سيرته وصيته الذائع ثم قالت: سيرة الشيخ زي النار على العلم وأنا جيت مريدة يا شيخنا لسه بتعلم في الطريق.

هز رأسه: الطريق واعر يا انتصار.. واللي بيمشي فيه معندوش خيار، وخطاوي الرجوع منه محفوفة بالأخطار.

طأطأت رأسها: أنا واخده العهد يا شيخنا وبحور العلم سباحة.

- بس أوعي تغرقى يا انتصار.. لو في يوم جربت تحودي عن المسار.

- لا يا شيخنا أنا ماشية وعزمي عزم جبار.

- كده يبقى مش هبخل عليكِ بالأسرار.

ألقى حفنة بخور في مبخرة أمامه كادت تنطفئ فأعاد إليها جذوتها، استعر المكان بروائح الأدخنة المُتصاعدة.

أخرج الشيخ من درج بجانبه ورقة وأخرج قلمًا، بلله في طبق أمامه به سائل أحمر اللون ثم راح يخط فوق الورق سطورًا على رسم هو يعلمه، وبعضها آيات من القرآن، وبينها أسماء أعجمية لا تعرف عنها شيئًا.

طوى الورقة عدة طويات فأصبحت حجابًا، أخذته انتصار من يد الشيخ وشكرت له البركة، فمثل هذا الحجاب لا يناله إلا الواصلون الذين هم بالطريق ماضون وأبدًا لا يتراجعون.

علمها سر الكلمات.. وأخبرها بالأسماء، عرفت أن الوراثة ممتدة وأن بها من الأسرار ما يُخفى إلا على رب العباد.

هي في طريق الكشف تمضي.. تخوض عولمًا مجهولة، وتكشف أشياء مستورة، ومن يكشف فالحكم عليه بيان واضح، لأبد من حبه حتى لا يكون للأسرار فاضح.

هي الآن تخوض طريق لا رجوع منه، عيناها تزوغان عن اليمين وعن اليسار، لا أحد يعلم ما تراه، لا أحد يعلم أين اليقين، وهل هذا حقًا طريق المُحبين العاشقين أم هو الفتنة باسم المريدين!



نوال في الشرفة أنصاف أكامها تكشف عن ذراعيها، صف
الغوايش يُداعب بلمعته أشعة الشمس فينعكس منهما.

تحكي للجيران أخبار سمعان، تُبلغهم عنه السلام وتفتخر بما
وعدها: سمعان قالي جايلك بطانية إنما إيه.. مفيش زيها في مصر،
وجلايب قطيفة أشكال وألوان.

والنبي يا حبيبتشي بيبعتلي كل شهر ما خلا ولا شهر واحد، بس
صبحي إيه قالي إحنا الحمد لله مش مستنيين منه مليم واحد، حافظي
على قرش الواد عشان ناخذه شقة.

نادرة دسطة شموع للكنيسة لما يرجع وأعمله فرح هنا في الحنة
ماحدث عمله.

صوتها يصل لمسمع وداد من خلف النافذة المتوارفة خلف شيش
مغلق، هي ربما تعلم ذلك وربما تعمدت أن تسمعها تلك الكلمات.

وهو سمعان شوية يا حبيبتشي، والنبي لفرحه يبقى سبع ليالي
هنا في الشارع، والرياح يقول للجاي: بركة العدرا ترجعولي بالسلامة
يا رب.

يووووه.. تصدقي ناسيه حلة اللحمه عالبتاجاز، أما أقوم بسرعة..
أنقذلهم حلة اللحم من ثرثرة نوال التي لا تنتهي ليس لديها الآن ما
يشغلها، سمعان سافر وحنه مُنشغلة بالسنة الأخيرة في دراستها الجامعية،

وصبحي طوال النهار في عربته على طريق حفظه وزبائن كثيرًا ما يتكرر
ركوبهم معه.

ثرثرات الشرفة ربما تخفف عنها الأم الوحدة وتشبع غرورها
بأخبار أولادها، هكذا هي على إخباريات مُتكررة بأحاديث تتكرر،
ربما تحكي ما حكته بالأمس لجارة أُخرى في شرفة مُجاورة أو مُقابلة
في الغد.

على هذا الحال تقضي أيامها، لحكايات لا تنتهي.. تارة عن
سمعان وحَنّه والأحياء، وتارة يرفع خاطرها لعالم الأموات فتحكي عن
بطولات والدها الذي كان كما تزعم عمدة في أسيوط.



رحلة ختام السنة الدراسية إلى القناطر الخيرية، ودعوة سامح
لحنين، الدعوة الأولى في تاريخ شهور قليلة مُنذ أن عرفها، ودّ لو يبوح،
لكنه لشاكلة الصمت أقرب، أثر السُّكات.. فلماذا البوح ما دام ليس
مُستعدًّا لتقديم القربان، ليس لديه ما يُقدمه لحنين، أن يخبرها بحبه
يعني بالنسبة له طلبها للزواج، والسنون أمامه ترسم بغموضٍ يشبه
غموضه هو.

خطواته نحوها ثقيلة، وصراع القلب والعقل يتنازعا، لكنه الآن
يدعوها لتشارك في الرحلة، هذا بالنسبة لها لا يعني خبرًا تنتظره، لا يعني
انكشافًا لمجهولات عينيه، لا يعني أنه يعلن عن حبه، لا بأس فلتكتفي
منه بإيماءة.. ولتقبل دعوته.

لتكتفي أيضًا بحديث الفن، فهو أقرب العوالم للمحبين.

تُحدثه عن فان كوخ.. وزهرة الخشخاش، يُذكرها أن لهذا الفنان
ملهمة كانت وراء الألوان، تسأله عن ملهمته هو، فتهتز الحروف على
شفتيه، يرفع نظارته بالسبابة، فاجأها بلوحة صغيرة أخفاها بين دفاتره،
ملامح وجهها عن ظهر غيب رسمها، هي.. كما هي، نظرتها البريئة،
وابتسامتها الحانية.

ابتسمت.. أصابها عدوى صمته، اكتفيا بالحديث عن الرحلة.



صمت الليل يأخذها لحضرة أفكارها هي، يأخذها لعالم لا أحد يعرف عنه سوى أنها هناك وحيدة في حجرتها لا تجيب من يُناديها، ولا تسمح بفتح الباب المُغلق.

ظلام حولها يتسع، أنفاسها تنسحب، وروحها تنسل منها إلى هناك، حيث هي وحدها تدري العناوين، هي وحدها تدري الحقيقة والخيال هالات..

فُهاااك ربما خيالات حقائق، أو حقيقة خيال، تروح إليه، أو ربما عوالم ينسجها القفل وتهواها النفس وتسرح فيها الروح. هناك الشوارع شعاعات من النور تسبح فيها هالات هنا وهناك، على وفاق معهم يعرفونها.. وتعرف الكثير عنهم.

لا زالت هُناااك على تمتمات شفيتها، الظهور يزداد فتتكشف الغوامض، لا زالت هي في الأعماق تغور تحت الأرض، هناك في عالم السموات البعيدة حيث الصحف والألواح.

تجوب حتى تنقطع أنفاسه فتلتقطها من جديد لتعود على نفس تمتمات شفيتها وعينيها المسبلتين، مسبحة طويلة ورائحة بخور، ودوائر النور تتداخل فتنبري ليتسلل الظلام من جديد.

من حيث راحت تعود، في نفس الغرفة المظلمة على نفس حال خلوتها، لا تسمع من حولها، ولا تدري عنهم شيئاً، فلا زالت بقايا أنفاسها تعود.

بَيْنَ الحياتين أصبحت .. سارحة، فلا يومًا ترسو .. ولا أبدًا استصبح
من أهل هُناك، لن تعود كلها من هُناك، ولن تصبح يومًا هُنا.
الغرفة لا زالت مُظلمة، وهي لا زالت في خلوتها، لا أحد يدري
عنها شيئًا بين ذلك الظلام الذي أصبحت تأنسه.



حين في حضرة السماء تهيم، مع ملائكة الأسحار تجوب الأفكار،
لعالمها الخاص دائماً تروح، هي ليست كسائر الأنثيات ولا أمانيتها
كأحلام الفتيات.

فتاها في الأحلام ربما لا يملك ما.. يكفيها أن يملك قلباً ذهبياً وأمان
وردية يروحان فيها سوياً، لا يهمها أين تعيش ولا بكم تشتري الحاجات،
أبجديات قاموسها مخطوطة بالمشاعر.. آمالها خيالات أنثى تعرف معنى
العشق وتؤمن أن الحب موجود.. والكفر بالموجودات جحود.

أحاديث المادة لا تغويها.. وبريق المال لا يستهويها، حين تُحاور
طيور الفضاء وتكتب فوق المساء ما تطويه الأمواج فيبقى سرّاً يعرفه
البحر.. رغم البُعد.

هي إذاً تُهَوِّن عليه القيود لو يعلم، ليس عليه سوى البوح بالحب
في لحظة تنتظرها على أحرّ من الجمر.. وبشوق العاشقين.

العام الدراسي على وشك الانتهاء، وشيء بينهما ابتدأ.. هو يشغل
بالها منذ تلك اللحظة المقدسة حيث جمعهما الفن، لوحة الخيول
العربية ولحظات مأثورة لعمر حين وسامح معاً.

هي فوق سريرها تُواجه القمر، ترسل له هناك بين السحاب
أغنيات المطر الذي لم يقطر بعد بغيث من السماء يفيض على لسان
سامح باعترافٍ، تكاد تتأكد أنه يحبها إلا من حروف ييوح بها على
طرف لسانه.

تلقاه عن عمد صدفة بين الحين والحين، تلاحظ خطواته المحسوبة نحوها وكأنه لم يكن يرقبها أو ينتظر ظهورها لعينيه، يتبادلان الحديث حول أشياء، وحديث النفس تتبادلله النظرات وتفوح به النفس.

سامح بالنسبة لها صمت الفن، تراه مُختلفًا ربما لأن هدوءه يتسع لعواصفها المُتمردة، سكوته يسمح لها بمزيد من الحديث وهي لا تتوقف عن البوح، انكساره يتيح لها أن تُمارس معه فنون العطاء.

حين لا تعرف لماذا اختارته من بين كثيرين، ربما أحبته لوحة على جدار الفن، والفن بالنسبة لها حياة.



على متن الباخرة يشقون عباب الماء إلى القناطر، الأصحاب
يُمَارسون الفرح، الأغنيات تعلو.. صوت الآلات يرتفع، حين على
جانب بعيد من السور الحديدية تُقابل بوجهها صفحة الماء، سامح
يُجاورها الصمت.. يكتفیان بحديث السماء التي تشهد بهما.

تُحدثه عن يونس وعن وداد، تحكي له عن الذكريات.. نفس
الذكريات التي تشبه ذكرياته، كلاهما على عهد الكفاح شاهد.

الأصدقاء جميعهم في وادٍ.. وهما في واديهما يهيمنان ، يحكيان
بحديث الفن يتسليان.

وصلت الباخرة لمرساها، ولم يرس كل واحدٍ منهما على وعدٍ
صاحبه، لا هو باح.. والخجل منعها أن تبوح، لكن روائح الحب منهما
تفوح، تمتزج بعطر البساتين هناك.

أغصان شجرة كبيرة بين الأشجار تدلت تورق عليهما، يستظلان
بظلها.. يواصلان حديثاً لم تنطق به الألسن، حديثاً اختصره سامح في
نقش حرفين فوق جذع نفس الشجرة، حرفي اسميهما معاً.. وسهم نفذ
في قلب ولحظة بح نطق بها الهوى في أذن حين: بحبك.

أخذتها البركة.. لم تُصدق، تلفتت عن اليمين وعن اليسار.. وهو
يكررها، يؤكد لها أنه عاشق، لم يعد يتحمل الكتمان، وأنه الآن آن
الأوان، يرسم لها الوعود بالإخلاص.. ويقسم بقسم الحب الذي أثقل
النبض فنطق به اللسان.

هي تُبدله الفرح بميلاد نفس اللحظة التي تقاسما شوق انتظارها،
مشتبكا الأيدي يتسابقان إلى ساحة الأراجيح، فما أحلى الأوقات على
نصل الهواء بين الأرض والفضاء في فراغ يشبه خيال أحلامهما التي
لم تغدُ بعد حقيقة، لكنها على حقيقة حبّ نبت تتحدى الواقع، تنثر
عسلها في قلب مراراته.

تتحدى بصمودها جموده، تعلن للأقدار أن الصبر على انتظارات
فرج قريب يُحقق الأمنيات البعيدة.

فات موعد إقلاع السفينة على عقارب ساعة لم يشعران بدورانها،
ليس أمامهما سوى أن يضحكان من حالهما.. ويمضيان في طريق العودة
بلا رفاق، فالرفاق الآن سبقوهم في موعدٍ كان مُحددًا.



اليوم الأول في عالم جديد يشهد خطوات حنين للعمل، أحلامها تتحقق، على سن قلمها سيصبح لها صوتًا يصل للعالم؛ فالجريدة التي تعينت بها تُخصص لها عمودًا أسبوعيًا تكتب فيه عن قضايا الأدب والفكر، وعلى صفحة التحقيقات لم يختفِ اسمها.

الآفاق تفتح لعودها الأخضر، البُشريات أنها ستصبح يومًا صحفية مرموقة فهي تمتلك الموهبة والمهارة وبكلاهما يتحقق الحلم.

رئيس التحرير يتوسم فيها آملًا قادمة ويضع على عاتقها مسئولية مساحة من أهم المساحات الأدبية بين الصفحات، جديرة هي بالثقة.. وبالوعود تفي، همًا الآن أن تعدو فوق الصحاب.

الأفكار أنيسها.. وبين الكتب يمضي وقتها، الأيام تمر وهي بانتظار سامح الذي تركها ورحل دون وعدٍ بالعودة.

تذكر يوم أن تمزقت على نصل كلماته الحادة: أنا مش عايز أعطلك يا حنين أنا لسه قدامي مشوار طويل ومقدرش أطلب منك تستنيني.

دموعها انهمرت ساخنة، كل شيء فيها وعده بالانتظار إلا لسانها الذي انعقد على صدمة كلماته الحادة.

يومها أحست أنه لا يملك القرار، كانت تنتظر منه وعدًا قاطعًا، تنتظر رجاءه لها بأن تصون حُبه، انتظرت منه اليقين ففاجئها بالظنون، وربما.. يعود، أو لا يعود.

ربما تكون هي له.. وربما تكون لغيره، هو إذاً يتأرجح بين الصمود والهروب.

الحب يحتاج لقوةٍ تحميه وسامح يحوم حول ضعفه ويقع فريسة لمخاوفٍ تأخذ بحبه للهاوية.

يومها رحلت عنه صامته.. لم تمتلك حتى عتابه، فالتاب مقرون بالوصل، وهو جاء يخبرها بمُنذرات بترٍ مؤقت وعودةٍ غير مضمونة لو صالحته الظروف.

يومها كانت تحبه، فقلبها أكثر اتساعاً من ضيق أفكاره، التمسّت له الأعذار، لأن مرآة الحب لا تبدي العيوب، لم تفكر أن الطيبة وحدها لا تكفي، والفن الحقيقي لا يسكن المترددين.

كانت صغيرة لم تدرك بعد أن حضن الرجل لا يمنح الدفء الحقيقي إلا إذا كان قويًا، وأن المرأة تحتاج إلى الأمان مهما كانت قوية، كل شيء في سامح كان يُنبئ عن سمات شخصية لم ترها حين، لم تر فيه غير الطيبة وملامح الفن.



يُقلب الرمال بحذائه الأسود الذي يطول منتصف ساقه مُحكمًا
على أربطته، يحمل السلاح على كتفه ماشيًا ببذلته العسكرية حيث
الحدود المُكلف بتأمينها ليلاً، أصبح من حُماة الوطن يُؤدي الخدمة
العسكرية هناك في إحدى الكتائب.

وحده ساهراً أسفل سورٍ عالٍ يقف في مبنى مُستدير من الطوب
يلبس الخوذة، ويأخذ وضع الاستعداد.

ليس لديه ونيس سوى وجه القمر بعيداً في السماء، عليه ترسم
ملامح حنين، يذكرها.. يذكر عينيها البريئتين وابتسامتها الصافية، يذكر
حناناً يفيض من بين ملامحها، يسألها أن تُسامحه؛ فيوماً لم يهجرها
لكنه سفر اليدين لم يزل، لا يملك ما يهبه مهرًا لها.

تمنى لو كان أكثر قوة فيستطيع أن يمنحها اليقين، لكنه على
تشوشات مستقبل لم تبدُ ملامحه، وهي على أعتاب أنوثة اكتملت
فحق لها أن تخطو عالمًا ينتظرها زوجةً وأم.

وجهها من فوق وجه القمر يتسم له، يعده أنها في انتظاره، يُواصل
الحديث معها باعتذارات لم يُقدمها قبل أن يرحل.

حنين على سريرها تُصاحب نفس القمر الذي يُصاحبه سامح
فتراه.. يتبدى لها بنفس الوجه الصامت الذي رحل به عنها، تُعاقبه..
فلا يرد، تسأله هل هو عائد، فلا تلقى إجابة.

صدى آمالها يتردد.. ينبت بها أملاً أنه يوماً سيعود لو صالحته
الظروف، بهذا كان وعده المُتأرجح بين القوة والضعف.. بين الظن واليقين.



عام مضى.. واليوم عاد، كأن شيئاً لم يكن، يبحث من جديد عن
براءة عينيها، يقسم لها انه لم ينساها.. ولم يهجرها، لكنه ابتعد حتى لا
يكون عشرة في طريق مُضيّها.

انهى خدمته العسكرية، واستلم عمله في إحدى المدارس ليعمل
بتدريس اللغة العربية، ملامح مستقبله ارتسمت.. فجاء ليخبرها.

هي تراه بعينيها، وتحسه بقلبها.. وتسمعه الآن بعقلها، عقلها
الذي أراد لو يصرخ به كيف تركها بلا استئذان، وكيف يعود اليوم بلا
استئذان!

تُحاول أن تلتمس له الأعذار، لكن جرح سنةٍ لم يزل غائرًا، ربما
تُسامحه، وربما يعود لفعلته بأي عُذرٍ يختلقه، لو أحبها ما تركها في
مهب رياح تبقيها أو تودي بها، لو حقًا أحبها لم يترك أمرها لمجريات
الأقدار تعبت به.

ماذا لو عاد فلم يجدها بانتظاره! وماذا عن عام مضى مارس فيها
طقوس القسوة فهانت عليه! والآن واحد، يعود بأعذارٍ تكفيه هو، ولا
يهمه إن كانت ترضيها.

هي بين بين تراودها الأفكار، وتهاوى بها المشاعر، تتقلب بين
الفرح والحزن، بين الرضا والسخط.



صرخاتها تدوي في أنحاء الشارع: على عيني يا صبحي.. على عيني يا حبيبي.

من الشرفات الكل يطل على فزعة الخبر يتبادلون السؤال: في إيه؟!

نوال على صراخ لا يتوقف، تروح وتجيء تحت البيت.. صوتها يعلو: الحقوني يا ناس الراجل راح مني.

تهافت الجميع عليها، تداولوا كلمات المُواساة على فزعة الخبر: لا إله إلا الله.. الخواجة صبحي مات إزاي.. إيه اللي حصل؟

صراخ نوال يعلو.. عن الوعي تروح وتجيء، لسانها لا يتوقف عن ذكره.. تعلن أنه لا زال حي: لأ.. لأ، مامتش، ماحدش يقول إنه مات.

تُنادي: تعالى سمعان.. تعالى يا حبيبي أبوك مات.

عادت حنة من عملها على هذا المنظر المروع، تلقته حين.. ضمتها لصدرها، راحت تربتها وهي لا تتحكم في صراخها: أبويا مات.. لأ.. حرام عليكمو.

ذهب رجال إلى الموقف، تأكّدوا من خبر الحادث الذي وقع سمعان ضحيته إثر اصطدامه لعربة نقل، السيارة على حال لا يسر.. أصبحت كُهنة وأصبح هو في عالم الأموات، لا شيء الآن يجدي سوى إكرامه.

تعاونوا: يا لالا لالا رجاله إكرام الميت دفنه.

عادوا به إلى بيته حيث يُتمموا مراسم الدفن.



اليوم حنين على ربةٍ غير عادية، الثامنة مساءً موعد قدوم سامح، لأول مرة يخطو عتبة بابهم.. جاء طالبًا لزوجها.

يونس في انتظاره، يُداعب حنين بأسئلة عنه، وداد ترقبها وهي تتأكد من كل شيء على ترتيبه، تضع الورود في الفازة فتُبدل الحمراء بالصفراء تارة، وتارة تضع بينهما بيضاء.

تُضحكها: كل ده عشان عريس الغفلة، يا رب يكون يستاهل بقى.

وجه وداد يحمر: بس يا ماما.

طرق الباب، جرت نحوه بسرعة.. ناداها يونس: استني يا حنين. قام هو.. فتحه، واستقبل سامح.

الحديث بينهما طال، حنين قدمت لهم الشاي والقهوة وأشياء أخرى، مرّ الوقت سريعاً.. مضى سامح، وبقى يونس يؤكد لحنين أن ظروف سامح ليست مُواتية وأنها لو قبلته فسوف يُكلفها ذلك كثيرًا من التضحيات.

وداد أخبرتها أن سامح ليس الشخص المناسب، فربما هي انخدعت بهدوء الزائد، وإنما ما لمحتة هي من طيات كلامه أن لديه الكثير من الصفات ربما ستصدم حنين بعد ذلك، فعبارات الأنا سادت في حديثه.

الكثير من النصّح لم ينفذ حنين، فهي على إصرارها بأنه فتى أحلامها، قررت أن تختاره هو من بين الكثيرين، رغم ما كان.. ورغم أنه الأقل مالاً.. وليس الأعز نفراً.



هي تعرف أنه طيب، وربما لم تكن تعرف أن وراء هذه الطيبة والصوت الخفيض والانحناءة الخفيفة بظهره أشياء كثيرة، وعلامات قرأها يونس، أخبرها بأنه رغم طيبته يفتقد للكثير من القوة، وأن سكوته الذي يطول لا يميز الرجال.

أخبرها أن طواعيته التي تعجبها اليوم ربما تكون مصدرًا لمتاعب غد، لكنها لم تفهم جيدًا، لم تع ما وراء الكلمات من حكم أدركها يونس بحكم خبرته وسنه.

هكذا الإنسان أحيانًا يرفض الخبرات الجاهزة، يأبى إلا أن يجرب بنفسه ليجمع حكمته بذاته، وهكذا كانت حنين، فرغم كل ذلك اختارته زوجًا.

نصحتها وداد أن تعيد النظر في ذلك الاختيار، فهي ترى أن الكثيرين ممن تقدموا لخطبتها أفضل منه، خاصة وأن مستقبله لم يزل على بواكير تطول خطاها، لكن حنين لم يكن يعنيه سوى خيالات حلمها فهي تراه ليلاً على وجه القمر.



الأيام تمر.. أشبار التراب تعلو الأركان في محل عم حسن، الأحذية
تشققت جلودها.. الأرفف تناصلت أخشابها.

دواسة الماكينة أصبحت ثقيلة بصوت يتعرج، يابئ مُواصلة
المشوار، ربما حُزنًا على حسن رفيق العمر الذي غزاه المرض فأصبح
عبرة للناظرين.

لم يعد على فتوته، جسده تآكل من أثر مرض السكر اللعين،
أسنانه تساقطت.. وجهه المُستدير استطال على نحافةٍ، عيناه أصبحتا
كبؤبؤتين سوداوتين في مغارةٍ مُخيفة، خطواته مُرتعشة.. وعافيته قليلة،
وصوته أصبح ضعيفًا كأنه زجاجات تأتي من كهف بعيد.

أحيانًا يلمحه المارة في مدخل بيت يعطي لنفسه حقنة الأنسولين
ثم يُواصل المسير بلا وجهة، لا أحد يعرف إلى أين يروح.

وأحيانًا يراه أحد الجيران عند زاوية جدار يأكل طبقًا من الحلوى
بنهم فيلومه: ليه كده يا عم حسن دا عندك السكر!

أحيانًا تنتابه غيبوبة فيسقط وسط الطريق مغشي عليه، يراه المارة
من الجيران فيسرعون بكرسي ليرفعوه فوقه ويسعفونه حتى يلتقط
أنفاسه من جديد.

كل يوم حالته تزداد سوءً.. هو بين الأحياء والأموات أصبح يقضي
أيامه، الأحزان عشت بين أركان المحل، كل الأشياء أصبحت صامته
مُترّبة بلا ديب حياة.

أحياناً تأخذ المساءات قدميه إلى المسجد فيراه الجيران بين صفوف المُصلين، يمضي الجميع ويبقى هو مُمدّاً فوق الحصير يروح في غطة من النوم حتى يفيق على يد خادم المسجد تربته: يا لالا عم حسن عايز أقفل المسجد وأروح لعيالي.. هستاك في صلاة الفجر. هو يعرف أنه لن يأتي، ربما يأتي في فجر آخر أو مغرب أو ظهر، فعلى غير انتظام يظهر في المسجد ويختفي.



حينين في حضرة سلمات أحلامها الأولى، المقال الأول الذي ينطبع فوقه اسمها.. واحتفالات الفرحة.

وداد تهدي نسخ الجريدة للأقارب والأصحاب، يونس يعيد القراءة.. ويطبطب على ظهر حينين مُبتسمًا، مهاب يُناقشها فيم بين السطور، وييدي إعجابه بالأفكار.

انتصار يسكن عينيها سهم السكوت، تقطر الكلمات بين الحين والحين، ثم تتحدث عن أشياء أُخرى، لم تطل الجلوس بينهم.. دخلت إلى سريرها في حضرة أفكارٍ لا يعرفها أحد.

هي دائمًا مُبهمة.. لا تنفصح عن أشياء كثيرة، تُفضل الصمت وتُحاول إخفاء ما تشعر، لكن ابتسامتها الصفراء كثيرًا ما تنفصح أحاسيس اضطراب تسكنها بلا داعي.. وبلا مُبرر واضح، لكنها كوامن النفوس يعلمها الله.

هي على سريرها لا تُواجه القمر، فقد أغلقت النافذة ليندمس الظلام، الأحلام تأخذها لعالم بعيد.

ربما تمنى لو كانت أكثر جمالًا، أو لو أن صيتها يذيع فتنة شهرة، وربما هي تبحث عن طريق للوصول يكشف لها المجهول، فتصبح مثل كثيرين قرأت عنهم.

هناك عالم دفين يشغل انتصار، هي تعلمه.. هي تروح إليه في
مناماتها وتقوم بين الحين والحين على فزعة كابوس.. تصرخ ليلاً،
فيفزع الجميع، تتقدم وداد نحوها.. تُناولها شربة ماء.. تُردد بعض
الآيات لتعيد إليها هدوءها وهي على صمت لا تتكلم.



لم تزل حنين على نفس القرار؛ فاختيار سامح شريكاً لحياتها
أصبح الآن أمراً محسوماً يعلمه الجميع، أعلنت أنها تحبه، وأنها
المسئولة عن اختيارها.

أخبرتهم بهدوء.. أنها من الممكن أن تطاوعهم فتشني عنه إذا ظلوا
على عدم موافقتهم، لكنها أبداً لن تروح لغيره، وليعلموا انكسار قلبها
لو أجبروها على ذلك.

الأوان فات.. على ذلك اتفق يونس ووداد فلتمضي حنين كيفما
تشاء، ولتمتلك حريتها في قرار شراكة الحياة.

وتمضي الأيام.. تقترب من موعد زفافهما، غداً ستتكشف الأمور..
ربما يخيب الظن ويبدو صواب حنين.

انتصار تمضي نفس الليلة على عتمة نفسها تتخبط، النوم طار من
عينها، والأفكار تتخبط بها.. تمشي خطوات نحو المرأة، تتأمل ملامح
وجهها المستطيل وعينيها اللتان على بعض جحوظ.

تسأل نفسها عن جمال لا يُقارب جمال حنين، فتشتعل غيرة..
تسأل لماذا هي الآن هنا في نفس البيت وحنين هناك في بيت جديد
فتتقد بداخلها النيران.. تروح وتجيء، تعود لفراشها.. عند عوالم بعيدة
وتقوم على نفس الفرعة.

أمام المرأة في حجرتها ترتدي الفستان الأبيض، انتصار والصدقات
يُشاركنها الفرح، يُرددن حولها الأغنيات، ودموع وداد تنهمر.. تمتزج
بالسعادة والقلق معًا، ساعاتٍ وترحل حين.. فيغدو المنزل بدونها..
يغدو سريرها خاليًا منها.

أفرع المصابيح الملونة تتمدد على الحوائط، وصوت التسجيل
يعلو بأغاني الزفاف، هي بانتظار سامح الذي جاء وسط جموع
الأصدقاء ليخطفها من بين الحاضرين، أخذها من يد يونس الذي
تعلقت بذراعه، ليقضيا ليلة حلوة.. هي ليلة العمر.

هناك في حي الحسين على إحدى المقاهي التقطا معًا صورًا
تذكارية ليومٍ محفور بالذاكرة، يوم تبدأ معه حياة جديدة في انتظارهما
معًا.

شقة صغيرة في الدور الأرضي هي كل ما استطاع سامح أن يُجهزه
من أجلها، وهي كل الأمان بالنسبة لها.

نهاية الليل هناك.. على سرير مُغطى بمفرشٍ قطني ناعم، حين
انطفأت الأنوار.



سنوات تمر.. وانتصار على حالٍ غامض، أنهت دراستها الجامعية
ولم ترسم بعد ملامح مُستقبلٍ عملي، هي تنتقل بني وظائف مُختلفة في
كثير من الأحيان لا ترتبط بدراستها في القانون.

وداد تبتلع غصة في حلقها، القلق يربها على أمر ابنتها، كثيرًا ما
اقتربت منها تُناقشها ذلك الأمر:

- حالك مش عاجبي يا انتصار.

- ليه يا ماما؟ عشان ماتجوزتش زي حنين؟

- لا يا حبيبتى كل شيء نصيب، ونصيبك عند ربنا موجود..
بس..

- بس إيه يا ماما؟

- أحوالك غامضة.. بتروحى فين؟ وبتيجى مين؟ وليه ما
تستمرىش فى شغل؟ على طول عصبية ومنطوية على نفسك.

تركتها حنين وقامت.. دخلت حجرتها وأغلقت الباب، اطفأت
النور.. لا أحد يدري بأحوالها، وهل هي حقًا نائمة!

المسبحة الخشبية لا تُفارق أصابعها، فالأعداد المُحددة للذكر
هي الواجب الذي أمرها به الشيخ، وتمتمات هي تعرفها تأخذ عينيها
لنعاس، فتقوم منه على كابوس.

السنوات تمر.. نهار جديد يأخذ خطواتها تتسلسل ليلاً إلى الشيخ
الذي أخبروها رفقاء الطريق عنه، عنده علم لا بُد أن تحصله.

هي لا تدري أن الطريق مفروش بالأشواك، وأنها الآن لا تشعر في
غمار خطاها أن قدميها تنزف، ولكنها تواصل المسير بلا تفكير.

على أعتابه خلعت حذاءها.. وانحت، ألقت السلام فأشار لها بالجلوس،
راح يُلْقِنها مبادئ ارياده؛ فهي الآن في حضرته مريده تترجى القبول.

وهو من شأنه امتلاك المفاتيح التي تبحث عنها، لديه من الكتب
الصفراء ما تحوي صفحاتها إخباريات الذين رحلوا عن «مبادئ السيادة
في علم الريادة»، وعن «قواعد المريدين في التأدب مع العارفين».

سيفتح لها أبواب المرور إلى الجنة، ولكن عليها أن تجتهد،
فالطريق يحتاج لمريدين باستمرار حتى لا ينغلق أبداً.

هي إذا دورها الأساس لإرضاء الشيخ أن تجلب المريدين، تؤثر
عليهم وتُبدل بعقولهم عقولاً تنتهي لنفس الطريق، وتسير في نهجه
وخطاه.

عندما يزيد عدد مريديها سترتقي مقاماً أكثر علوًا، وهكذا ترتفع
المقامات بقضاء الحاجات، وحاجات الشيخ كثيرة، ولكن أولها أن
يزيد المريدون.



الأيام علمت حنين على أعتابه أن الموت قد يتخلل الحياة بأنفاسٍ
كاذبة، هي معه تموت كل يومٍ ألف مرة.. فلائي شيء تحيا الأنثى إذا
غاب عنها الاهتمام؟

انبرت عنها يده فلم يعد يمدّها إليها كما كان يفعل، أصابعها
تيمت.. أصبحت على فراغ لا تشبك بإصابعه.

صار لأنفاسه صهد يلهبها.. هي الآن أصبحت بين أحضانه تكتوي
بنيران عدمها بين يديه ببرودة بعده عنها تتجمد فتصبح صنماً أصم إلا
من تمتمات تُردها بلا معنى.

ليل حنين أصبح خاوياً.. ونهاراتها حزينة لولا ساعات عملٍ تحب
السعي إليه.

سامح لهاوية الخيبة يسقط، وهي لسلمات طموحها تُسلم قدميها
غير مُتزعزعة، الدرجات بينهما تزيد.. والمسافات تطول.

البصيرة تنطمث.. والصوت يختنق، ودوامات تأخذ كل منهما
لغارقة ما يشغله.

دائماً أصبح هو في حضرة السكوت.. صامتاً كعادته.. يجلس في
الحجرة، يتوجد أشياء يفعلها، اليوم يُجالس محبرةً وقلماً من البوص،
وورقات بيضاء يُمارس فوقها فنون الخط العربي والكوفي، بلا هدفٍ
يفعل ذلك، هو فقط يشغل أوقاتاً فارغة.

لحين تعود حنين من عملها مُحملةً بأخبارٍ كثيرة، أخبار مُفرحة..
وأخبار شغلتها وأخبار تُفكر فيها، كل شيء في حياتها أصبح على
عجلة، الزمن يسير بسرعة.. وعجلة زمانه تقف بلا حركة.

تحكي له عن مقالها الأسبوعي، وعن أشخاص من الخليج حضروا
ضيوفاً على مؤتمرها الأخير، وعن رئيس جديد للصفحة الفنية.

يسمعها ولا يسمعها، بضيق شديد يرد عليها مُعترضاً، الآن يُفاجئها:
أنتِ لازم تقعدي من الشغل ده يا حنين.. البيت محتاجلك.

عمل حنين بالنسبة لها عالمها الخاص.. ومستقبل إبداعات
تسكنها: بس أنت عارف إن شغلي مش شغل عادي يا سامح، ده
الموهبة اللي ربنا من علينا بيها.

نظرها بنظرته المعهودة: هي كلمة واحدة يا حنين.. تقعدي في
البيت، وقام إلى السرير.. شد الغطاء فوق رأسه ونام.



مُحملة بالهدايا تعود إليه، ضاحكة.. مُستبشرة؛ فجمال الأمل لن
تنقطع.. ربما يعود يوماً إليها كما كانت تحلم به.

زجاجات عطرٍ برائحة الذكريات: شوف يا سامح.. فاكِر الريحَة دي؟

يمسك الزجاجَة: آه.. دي كانت يوم فرحنا، استعملتها.

تلف يديها حول رقبتَه: فاكِر؟ كان يوم جميل.

يهز رأسه ببرود.. ويضع الزجاجَة على منضدة مُجاورة.. لم
تستهوه ثقافة الشكر.. ولم تنتظر هي منه شكراً على معروف، تُواصل
الحديث غير مُبالية.. أخرجت بقية الهدايا من الأكياس، رابطات عُنق
وَقُمصان.. يُقلبها ويضعها بجانبه ثم ينصرف لشيء يشغله، وتبقى هي
على نفس موضع قدمها تُحاول الثبات على الأرض، الدوار يأخذها
لهاوية يأس من بروده القاتل الذي يُصاحب ادعاءات حُبها إذا عاتبته.

هي في حجرتها ليلاً.. تُصاب بعدوى صمته، تلتقط أنفاساً كادت تغيب
عن الحياة.. تُجر جر أقدامها إليه من جديد على مُحاولات هي تعرف
فشلها: إيه يا سامح مزهقتش من القعدة لوحداك، تعالي جنبني شوية.

يرد عليها ولم يزل مُستلقياً بظهره على الأرض، فتمد يدها تجذبه
إلى حجرة نومها، روائح العطر تفوح.. المصباح الخافت يزيد جوها
هدوءً.. الأنغام تترد على مؤشر المذياع بأغنية كانا يتشاركان سماعها.

قميصها الأسود ذاته الذي أعلن لها الاعجاب به ، كل شيء حولها
يبث فيها لهيباً يشعل ذاكرة أنوثتها.. يُوجج أنفاسها.. كل شيء يشعلها
فتنطفئ على برودة أنفاسه التي تأخذه لسبل عينيْن بعد شكوى زمانٍ
اعتاد عليها.



على سرعتها تمضي الأيام.. اليوم تحقق حلم بعيد، الأفراح تملئ
بيت وداد؛ فمهاب على أعتاب الجامعة أصبح يقف بين الطلاب.

يونس يربته بابتسامة طيبة: مبروك يا حبيبي، والله وكبرت يا مهاب.

يعده بتوفير ما يلزمه حتى يتخرج، يذكر وداد أن تصحبه لشراء
ملابس جديدة.. يدعو الله أن يبقى حيًا ليشهد يوم تخرجه، ويرافقه يوم
فرحه.

ربما بكلماتٍ تنزل على شفثيه بلا سبب، إحساس يركبه بأن
ذلك لن يتحقق وأنه سيرحل عن هذا العالم قبل أن تدركه الأماني.

لمحت وداد عينيه الشاردتين: مالك يا يونس.. سرحت في إيه؟

ابتسم.. هز رأسه: في الله يا وداد.. في الله، الحمد لله.

راح يُوصي مهاب أن يجتهد.. وأن يرسم أهدافًا لأحلامه يسعى
إليها، راح يوصيه أن يُواصل المشوار لو رحل هو عن الحياة.

ضمه مُهاب: ربنا يخليك لنا يا بابا.

خفض يونس عينيه: يلا يا وداد.. جهزي لقمة.. الناس هتيجي
تبارك.



الأعوام تمر.. وسر انتصار على الكتمان، لا أحد يعرف عنها شيئاً.. لا زالت تتراد عوالمٌ بعيدة.. بالأسرار مليئة، عوالمٌ بين الحقيقة والوهم يتأرجح عليها المرتادون، فساعة يدرون وساعة لا يدرون.

العزة تأخذهم بالإثم ساعة، وشعائر الحق يقيمونها بأجسادهم ساعة، أحوالهم تتقلب.. فلا هم من المُخلصين ولا أحد يعرف عنهم أنهم مُنافقين.

اليوم هي عند الشيخ الأكبر مُريدةً، تخبره بما وصلت إليه.. تحكي له عن أشياء تراها ولا أحد يراها، عن قوة خارقة تسكن أوصالها فتمنحها عافيةً تفوق عافية الرجال، وتطمئنه أنها للصلاة داعية وبالمعروف آمرة وعن المنكر ناهية، فيثق بذلك أن السر لن ينكشف.

عليها إذن أن تصبح ترساً في الدائرة ليستمر الطريق، سمح لها أن يكون لها مريدون.. فمن الآن عليها أن تبدأ في جلب مريدين، هي اتقنت الطريق وعرفت بوابات الدخول، وأن الصُحبة لا بُد أن تطول، فالداخل لا يخرج.. ليس هناك ما يحول.



لم يزل عوده البض أخضر، ساعة الجامعة تدق، ونبض قلبه يعلو
يعلن ميلاد حبّ.

مُهَاب يلمحها على استحياء بين جماعة الرفاق، وجهها المُستدير
على بياضه، عيناها البُنيتان وشعرها الكستنائي، خصرها النحيل وأناقة
تُنبئ عن ذوقٍ رفيع.

فتاة أحلامه هي، نفس الصورة التي بات يرسمها بخياله، الآن
تُفاجئه في قاعة المُحاضرات فتشغله عن كل ما حوله.

الساحة تشهد أقدام الكثيرين بعد انتهاء الموعد المُحدد
للمحاضرة، من بين الزحام يرقبها بعينه، يتحين الفرصة لحديثٍ يفتح
بابًا للوصل بينهما.

تابع خطواتها في الطريق إلى المقصف، التقط من حديثها مع النادل
طرفًا عن نوع البن الذي تُفضله، وعرض عليها أن تجرّب نوعًا آخر هو
يشربه، وعدها أن يهديها عبوة.

واصل معها الخطوات نحو الباب، يرتشفان البن بمذاق أول لقاء
كان، عرف أن اسمها صافيناز راشد.

في شارع قريب وأمام سيارة من نوع مُميز بلون أحمر وقفت،
أخرجت من حقيبتها مفتاحًا وأدارته بالباب: اتفضل أوصلك معايا.

ركب بجوارها، تبادلاً أطراف حديث، الأفكار بدماعه تدور،
عَرِفَ أن والدها رجل أعمال معروف، لم يخف اسمه عن مُهاب، وما
خفي كان أعظم.



أنس القمر يزيد الحكايات حلاوة، مهاب يرقد على الأرض تحت الشباك، يضع رأسه في حجر وداد يحكي لها عن صافيناز، وكيف دق القلب لها، هي تسمعه بسعادة أم ترى ابنها أصبح ملئ العين على أعتاب عوالم الرجال، تنصت لنبرات صوته المُحملة بحبه الجديد في منبت مولده.

تختار بين مشاعر الفرح به، والخوف عليه، فهي تعرف أن مُهَاب لم يزل في أول مشوار حياته لم يستعد بعد لأعباء الزواج، تخشى عليه انكسار القلب.

ماذا لو استعجلت صافيناز هذه حياة أخرى مع رفيق أكثر ثراءً يُوفر لها رَغَد عيشٍ! وماذا لو أن أهلها رفضوا رباطها بمهَاب الذي لم يزل على ضبايية مُستقبل لم تحدد ملامحه!

هو يحكي بسعادة وهي بين بين تسمعه، تُشاركه الحوار عنها، تسأله عن تفاصيلها، عن لون عينيها وطول قامتها، عن سر إعجابه بها، عن طبيعتها، وعن أشياء أخرى.

وعنه هو تهيم تُفكر في حاله، تشفق عليه من مجهول لو أبى أن يكتب على صفحاته قرانهما، عن قدرٍ لو فَرَّق بينهما، فكيف سيكون حال مُهَاب؟!

وداد تتنهد، تُحدث نفسها أن تهدأ، أن تُشاركه سعادة اللحظة ثم تترك المستقبل لله تعالى، فهو بيده لا بيد غيرها.



الأيام تمر.. الحياة بالنسبة لحنين آفاق مُمتدة، هي مُفعمة
بالطموح.. تجوب الآمال بخيالها.. تشق الخطى فتصل لعنان السماء.
تقرأ وتكتب.. تنفتح على العوالم الأدبية والثقافية، تنخطر في دائرة
معارفٍ تجدد كل يومٍ، عالمها يتسع.. وعالم سامح على ضيقه لم يزل.
اكتفى بطبشورةٍ وبلاطات تحت قدميه لا تتعدى الأشبار، ومنح
لنفسه لقب مُعلم أجيال، فلا هو يندفع للأمام، ولا يرضى بانطلاقاتها،
لا يرضى عن خطواتها.. لا يفرح بنجاحاتها، لم يعد يراها حنين..
أصابع اتهامه أصبحت تشير إليها فتصم خطاها بالسوء.

ما دامت تعتني بمستقبلها هي إذاً لا تعتني به.. هذا ما يراه، أصبح
لا يرضيه شيء منها، عيناه ترقبانها بنظرات غامضة لا تستطيع تفسيرها،
وربما لا ترغب في معرفة ذلك التفسير، فهي مزيج من الضعف والغيرة
والعناد وأشياء أخرى غاب عنها الحب.

هي تعرف أن الحب إذا غاب غابت معه المذاقات الحلوة للحياة،
لكن عليها أن تصبر.. أن تمنحه حُباً لم يغب عن قلبها هي.. فربما يوماً
يعود.



الفرح الأهم في مشوار حنين الأدبي، هي تمضي نحو النجاحات..
وتفرح بتحقق الأمنيات.. الجميع يُشاركونها الفرح، ووداد تتباهى بها..
يونس دائماً يُباركها.. يُتابع أخبارها يُشاركها الآراء.

وحده سامح يتوحد حزناً بلا سبب، يلتحف فراشاً يُغطيه.. يخفي
غيرته الدفينة والمُستعلة بجمر نجاحات حنين، لماذا هي؟! لماذا هي
تتسع خطاها وخطاه مُتعثرة؟! لماذا هي تمشي في طريق الإبداع ممشوقة
القامة، وقامته عن ذلك تقصر!

عنيدة هي كما عرفها.. قوية ماضية، والضعف يعرقله هو،
السنوات تمر وهو كما هو.. لا شيء يفعل له سوى طبشورة يملكها،
وعجلة أيام تمر وتيرة واحدة.

ليس الذنب ذنب حنين، ولكنه الآن لا يطيق نجاحاتها، رجولته
ترفض قوتها.. وتعجز عن الوصول لقامتها، الآن يبحث عن مهربٍ
منها.



مهاب وصافيناز على شاطئ النيل يرسمان أمالاً بعيدة، يترجيان
السماء أن تُحققها.

المستقبل لم يزل غامضاً، لكن الحب في قلبهما على وضوح
الشمس لحظات الشروق.

هو يُسلمها النبض، يحكي لها عما يضيفه، يعدها بعهود لم يخنها،
وهي تؤكد له أنها يوماً لم تغدر، وأنها تطيق انتظاراً.

نسمات الهواء ترسل لهما نفس العبير فيتشمانه في لحظة قرب،
نفس الشجرة التي تشهد لقاءهما كل مرة، تمد أغصانها فتظلهما
بأوراقها، تُداريهما عن أعين البشر ليروحا لعالم روح واحدة تسري
بجسديهما معاً.

يرشف من شفيتها قبلة الحياة فيتلظى بالصبر عليها، الأوقات
بينهما تمر على حلاوة السعد ومذاق الوعد.

في قارب صغير ضمها راحا على صفحة الماء يطولان بأحلامهما
السماء، ضوء القمر يلفهما معاً بخيوطة الفضية فيصبحان قدراً معسولاً
انفلت من بين الفضاء.

الحديث بينهما يمتد، والوعود لا تنتهي، الأوقات تمر من بينهما
وحولهما، وعقارب الساعة عند نفس اللحظة التي بها ينتشيان..
توقفت.



لم تزل حنين على محاولات التقرب منه، ولم يزل هو يهرب منها إلى حضرة أفكارٍ قاتمة تُلون داخله.

خارطة نفسه تتعقد، طريق توهية يأخذه.. عيناه شاردتان، ساعات نومه تطول، وأيامه على نفس الدائرة تدور، ترقب خطوات حنين بأنفاسٍ مسممة.

هو لم يزل يحبها، لكنه أصبح يكره ضعفه أمامها، لم يعترف يوماً بذلك الضعف، ولم يشعر بالقوة أبداً.

خطواته أصبحت مرتبكة.. نظراته غير مفهومة، وأوقات توحده دائمة، الآن أصبح مُنفصلاً عنها بذنبها الذي لم تذنبه، لم يعد راضياً. الخلاف بينهما يزيد، لكنها أبداً لم تعدم الأمل، تُحدثه عن المستقبل فيفعمها بالشكوى من ضيق ذات اليد، الذي بفعله هو.. فليس الرزق بغير السعي يجيء، لم يعد يُفكر في السعي.

أخبار حنين تملئ صفحات الأدب، صورها على مواقع الإنترنت.. صوته يعلو بالبرامج، والحياة تزداد ارتباكاً بينها وبين سامح.

الموعد المُحدد لعودته إلى المنزل، فالعمل الوظيفي يجعله في ترسٍ مُنتظم، وعوالم الإبداع عند حنين لا تعمل بين تروس تجوب الأراضي على عقاربٍ ليست زمنية، تهيم بالآفاق لا تُفرق بين الليل والنهار، فكلاهما للفنون مأوى.

نوافذ الحجرة مُغلقة.. المصباح مُنطفأ، وهو في صمته غارق،
الأفكار تروح به لهُناك عندها، تُحرك فيه ظنوننا، تزرع بداخله الشكوك
بلا براهين سوى أن حنين الآن خارج المنزل.

الأسئلة تجوب رأسه عن عالمها الواسع، عن أفقٍ استطاعت أن
تجوبها، عن نجاحات أصبحت تعطي هي عرشها، وهو على أرضٍ
مُهتزة لم يزل مُتسمراً لا يخطو للأمام.

الأحبال تلتف حول عُنقه، الكراهية تتوالد.. تصبح دوامات تتسع
دوائرها حوله فيغرق فيها، لم يعد للحب مكانٍ في قلبه الذي أصبح
مسوداً بأدخنة الريبة.

حنين أصبحت تحمل عنه كثيراً من الأعباء، فمكاسبها تزيد على
مكاسبه، لكن خسارته هو كل يومٍ تزيد، كل يومٍ تتسع الحفرة تحت
قدميه المُهتزتين فيكاد يهوى.



في مكتبة الفن تلتقط ريشات وأقلام.. تتذكر نفس اليوم الذي
جمعها بسامح في معرض اللوحات، تبحث عنه من جديد بين الألوان،
تتمنى لو يعود سامح لحضرة الفن، هي تعرف أن للفن أثر سحري،
بالفن ترتقي النفوس.. بالفن تذوب الآلام، بالفن نجد مُنفساتٍ جديدة
لجراحنا فتمثل للشفاء.

عادت مُحملة بما تتأكد أنه سيبعث الفرح الجديد الذي غاب عن
البيت، مُنذ أن غاب سامح عن مشاعر الفن.

طرقت الباب.. فتح سامح، كان مُقطب الوجه: اتأخرتي ليه يا
حنين؟ مفيش فايده؟

ابتسمت: اهدا بس وشوف جبلك إيه؟

راح يُفتش الأشياء.. يُقلب الريشات بأنواعها يفرد الأوراق المطوية
على لونها الأبيض، يتذكر يوم أن كان يرسم فوق مثلها فيرتاح.

هز رأسه: جميله. بقالي كتير ماشترتش أدوات رسم.

واجهته: مش لازم تتأخر تاني عن فنك يا سامح.. أنت موهوب..
دور على نفسك وحبها.

هز رأسه: الحياة صعبة.. معقول هلاقي وقت ارسوم؟

ردت: أيوه يا سامح زي ما بتلاقي وقت تنام أو حتى تسكت
بالساعات.. أرجوك.. أمسك ريشتك تاني وعدّها.. وعدّا زائفًا أو
هكذا.. شعرت من برودة ردة.

واصلا ليلتهما على شرف فرحة وبهجة عمت البيت بضيوف الفن
من أدواته.

بجانبه ظلت ترقب خطوطه وهو يخطها فوق لوحة بيضاء.. لم
تكن تعرف أنها يوماً لن تكتمل، لم تكن تتأكد أن الأيام ستمر وأن
سامح سيخلف الوعد.



عن حضرة فنه غاب سامح من جديد، هجر الريشة والألوان
فانسَلخ من الحياة، غابت عن عينيه البهجة.

كان في عالم المُبدعين غريباً، فلم يُواصل معهم الطريق.

الألوان التي أهدتها له حنين جفت في دواتها، انبرت الريشة من
أثر الصمت.



حين تُلبي الدعوة لدار الأوبرا.. العرض المسرحي الأخير
بالمهرجان التجريبي السنوي، فكيف تفوتها حضرته!!

هي بالفن ترتقي، وبالإحساس تسمو روحها وتشف، بالموسيقى
تسمع صوت الله يدب بين البشر رافضاً للظلم، داعياً للعدل والخير
والسلام، صوت الناي يرتفع بعذابات الحزانى ليتنبه الفرحين فلا
يستأثرون بالسعادة، يعلم بحاجات الفقراء.. يُنادي: مدوا أياديكم
بالعطاء.

غناءات الأوبرا دعوة ربانية تعلو في قبة الصالة لسمعها الحاضرون:
انشروا الحب في الأرض، فبه تلين الأحجار.. وتخضر البراري، وبه
تتعمر الصحاري.

الأصوات تعلو بالمعاني.. والقلوب تهذب فتدمع العيون.. تقطر
ألمًا، رجاءًا.

الهائمون هُناك في حضرتهم يرتلون معاني الفن بداخلهم فيعرفون
الله أكثر، ويكتشفون الطريق إليه أكثر وأكثر، يتشافون من الأمراض
فتلتئم الأحساد.. والأبغاض، لتنبت مكانها الخيرات.

نظراتهم لحضرة ربها خاشعة على أرض مسرح يُبتلى فيه الفن،
هي في طريق العودة ليلاً بصُحبة الأصدقاء يتبادلون النقاش حول فكرة
العرض، لكل كانت وجهة، ولكل كان تفسير، فهكذا وجوه الفن تتعدد
فوق الجسد الواحد.

الفن يُغازل العيون لتراه العين كما تشاء هي لا كما يكون، فلمن
يمتلى فرحاً أن يسمع صوت الناي كأطروحة، ولمن تملأه الأشجان أن
يسمعه أنيناً للأحزان وإن كان القلب يحن لمعشوق غائب، فأنين الناي
رسائل عشق المحرومين، تترجى لحظات الوصل.

في حضرة روح الفن تسبح أرواح في اللوح وتشهد غيباً حلّ ليسكن
رمزاً فوق الأرض، رمزاً في ناي أو في قيثارة أو في صوتٍ يتهدج حين
تقمص فنان اللحظة فامتزج الواقع بالحلم، وفضاء الله مع الأرض،
فتصبح حضرة بالملكوت.



لمح أسماء.. فانخطف بصره، يومها كان في زيارة وداد، وجاءت هي مع انتصار التي لا تكاد تُفارقها، فطريق عهدهما واحد.

يُحدث نفسه عنها: بسم الله ما شاء الله.. بنت مُلتزمة بالزي الشرعي وباين عليها طيبة وبنت حلال.

أقرب منها: السلام عليكم.. ازيك يا أستاذة.. منورة.

تصنعت خجلًا يضفي على وجهها حمرة: أهلاً بوجودك.

أطرقت رأسها بعينين يندبان بهما الرصاص، رشقته بهما عن قصد، فمال ضعيفًا مُرتبكاً.

- أنا عرفت إنك بتدرسي.

- آه، بدرس علوم شرعية، إن شاء الله أكون حاصلة على الإجازة قريب.

- ما شاء الله.. ما شاء الله، بارك الله فيك.

خرجت وداد إليهما تحمل الشاي، كانا يجلسان في الصالة، وكانت انتصار في حجرتها.

شاركتهما الحديث: سامح جوز حنين يا انتصار.

- آه عارفة يا ماما.. ربنا يحفظه.

رشفت من كوب الشاي رشفة لامست بها شفاه سامح بسهم عينيها المتبجحتين على خلسة من وداد التي كانت تقلب السكر في كوب الشاي الآخر.

قبل أن ينصرف سامح أملاها رقم هاتفه بحجة أن لديه كُتُبًا دينية
رُبما تستفيد منها في الأبحاث الشرعية التي تهتم بدراستها.

عاد سامح إلى البيت حيث عالمه المُظلم وحده صامتًا في حضرة
صورتها، يستعيد مشهد قتله حيًا على أعتاب عينيها بسهم أصابه، يُردد
على نفسه أنها حقًا النموذج للمرأة الصالحة التقية التي تحتشم الزي
وتدرس الدين وتُمارس طقوس العبادة.

تمنى لو كانت حينئذ مثلها، راح ينسج من مرض خيالاته صورًا
لها، يمر بها ليلاً ليدوقها على طرف هياماته فيتسرى بها، أصبحت هي
المهرب من انكسارات ضعفه وخيبته البائسة.

تائه هو بين قليل من الحيلة وكثير من الأوهام، يتسلح بشعارات
دين اختصره في لحية، ظن إنه بالطقوس وحدها يكون الإيمان.

مسبحة أسماء أصفرت حباتها بلون الغل الذي يفوح من قلبها
فلا يراه إلا من بالبصيرة يرى، وسامح عميت بصيرته عن أشياء
كثيرة، عميت عن أصل الحب وعن عالم الروح، صار أسيرًا لعلامات
الأجساد، وليس بالجسد يكون نقاء الوصل.

على فراغ من الإخلاص راح ينبت بينهما شيء بدأته أسماء وهرب
إليه سامح، توهم أن هناك عندها سيجد نفسه الضائعة.



الشراكة هي طريق الوصال، هكذا فكرت حين لتعيد الوصل
بسامح، لأبْد إذن أن يصطحبان في الطريق.

الموعد السنوي لحفلة دار الأوبرا حيث إعلان نتائج الفائزين في
المُسابقة، حين كانت من الفائزات في العام السابق، واليوم حضورها
شرفي لتهنئ فائزًا جديدًا.

سامح يُجاورها مقعد أمام مسرح العرض، القادمون يتوافدون
على اقتراب الموعد.. يتبادلون التحية، حين تُسلم عليهم.. تخبرهم
بانسائها لرؤيتهم، تعرفهم بسامح الذي يبدي اعتراضًا على التواصل،
يرمي حين بنظرات التوعد، يهمس:

- متسلميش بإيدك على رجالة.

- إزاي بتضحكي كده مع راجل غريب، إيه يعني احنا افتقدناك؟

حين تكظم الأنفاس، تطلب منه أن يُوجّل هذا النقاش حتى يعودا
للبيت، تذكره أنه بجانبها وأنه لا شيء يدعو للشك المريض الذي
يُراوده.. لا داعي لغيرة عمياء تقذفها باتهامات باطلة، إنهم زملاء
العمل وليس بينهم سوى الاحترام المُتبادل على طراز خاص بمذاق
الفن والإبداع.

هم واقفًا، تركها وانصرف بلا استئذان، تبادل الحاضرون حولها
نظرات الاندهاش بدون تعليق واحد، حاولوا تجاهل الموقف منعًا
لإحراج حين.

استأذنت بهدوء تلحق به حيث لمحتة عن بُعد يركب مواصلة
على الطريق، لم يلتفت لندائها.

وصلت للمنزل.. راحت تطرق باب حجرة النوم التي انفرد بها، لا
يرد سوى بكلماتٍ معدودة: الوضع ده مش هينفع يا حنين لازم تشوفي
حل.

همدت على كرسي في الصالة، دموعها تنهمر.. لا تدري أي وضع
يقصد؟! أن تُمارس عملها! أن تتواصل مع أصحابها! أن تخطو كل يوم
خطوة للأمام لتصبح أكثر نجاحًا وأكثر شهرة.

فماذا إذا يرضيه؟ وما الوضع الذي ينفع على حد تعبيره؟ أن
تنكسر في البيت على ملل ساعاتٍ بلا هدف؟ بلا نجاحات؟ أن تتخلى
عن إبداعاته وأصدقائها وشاكلة حياتها.

تؤكد فعلاً أنه وضع ربما لم يطول بينهما، وأن شراكتهما آيلة
للانفصال.



انبتير طموحه.. وكثرت شكواه، لم يعد لديه سوى الحديث عن
ضنك الحال وسوء الأحوال والخوف من المآل واليأس من تحقق
الآمال.

اهترأت أنسجة الأحلام، وضاعت ملامح المستقبل، هو غير راضٍ
عن حاله، يكره تأخره، ولا يقوى على التقدم خطوة للأمام.

الغيرة تقتله، وخُطاه مُرتبكة، فلا هو يُواصل الطريق معها، ولا
يدعها تمتضي ثابتة الخطى.

احتارت حنين بينه وبين نجاحاتها، كادت تنوء.. أصبحت ملامحها
ترسم بحزنٍ لا تقوى على إخفائه، فالخلافات تدوم.. وطريق الحلول
أصبح معدوم.

هي بين الحين والحين تترجاه أن يبحث عن ذاته من جديد، أن
يفكر في حالها الذي يزداد سوءاً بلا ذنب، فلا هو يرضى ولا هي ترتاح.
الحياة كل يوم تمضي في طريق الاستحالة، الليل أصبح مضنياً،
والنهار على مشقة شمسٍ آفلة تعلن غيامات غدٍ آتية.

أوقات حنين أصبحت صعبة، وأوقاته على تشابك خيوط تتعقد
يوماً بعد يوم.

إلى أسماء مهربة الوحيد، راح يقضي معها الأوقات على هاتف
بين الصباح والمساء، يُحاكيها على عقارب ساعة تمر فيمر معها
انكسارات فراغه، ساعات وحدته تطول وعبوس وجهه يزداد.

حينين على مُحاولات إرضائه تستمر، وتوهته تزيد، هي تحكي له
عن أحداثٍ تجمعهما تُذكره بالريشة، تدفعه أن يعود لعالم الفن يبحث
عن أشياءه القديمة عن بقايا ألوان جفت، فلا يعبى بأفكارها التي
أصبحت بالنسبة له باهتة.

ينتظر الأذان فيمضي للمسجد، يغيب وقتًا قصيرًا ويعود مُتمتمًا
بتسايح ختم الصلاة، ثم يمضي للحجرة يفتش الأرض، يُجهز
مُلخصات دروس طلابه.

أوقات صُحبته أصبحت مُملة، والمشكلات على وجوده تنبت،
صوته أصبح عاليًا بلا أسباب، ربما لأن جوربًا يختفي عنه، ومرة لأن
العشاء تأخر، وأخرى لأن هاتف حينين يرن.



حينين في الطريق لبيت والدها.. تمسح دموعها.. تخفي أحزانها
وراء كحل عينيها الحزنتين وطلاء شفيتها الذابلتين.

هي تُذكر نفسها أن سامح كان اختيارها هي وأن عليها أن تتحمل
النتائج وحدها، وداد ويونس لم يعودا قادرين على حمل هموم كاهلها،
هي أولى بهموها.

كلاهما يشعر بأحزان حينين من وراء ابتسامتها الباهتة، لكنها أبداً
لن تعترف.. دائماً تدعي السعادة وتنفي خرافات حزنٍ يُخيم عليها إن
لاحظه أحد.

طرقت حينين الباب.. يومها فتحت وداد مذعورة: جيتي في وقتك يا
حينين.. أبوكِ تعبان.

دخلت إليه.. كان راقداً فوق السرير يلتقط أنفاساً مُتعبة.

اتصلت بسامح: الحقني يا سامح تعالى بسرعة نودي بابا للدكتور.

على عادة بروده: أنا بجهز حاجات مُهمة يا حينين، عندك مُهاب
مممكن يروح معاكِ

وحدها صحبته للعيادة، قضت ليلتها بجانبه حتى اطمأنت عليه.

هرب من قلة حيلته وقصر خطواته لطول لحيته، أصبح أشعث
عابثاً مُقطب الجبين باستمرار، حضرته بين المساجد والمسابع تستر
عورة نفسه وخواء عقله.

على حالٍ واحدٍ يقضي مُعظم أوقاته صامتًا يكتفي بنظراتٍ زاجرة تُعبر عن عدم الرضا بحنين، لم تعد في نظره مثلاً للكمال، فملابسها غير شرعية، وعلاقاتها المُنفتحة علاقات مشبوهة.

اتصال أحد الزملاء يعني خروجًا عن اللائق، والمُشاركة في ندوة يمتد موعدها لبعد الغروب ضرب من الإسفاف، فالمرأة يجب أن تلتزم بيتها وتظل في حضرة زوجها لا غيره.. هذه أفكاره.

أن تُؤدي واجبها نحوه يعني بالنسبة له ألا يكون لديها واجبات أخرى، يعني أن تكون مسلوبة الأحلام إلا منه، لأنه بلا أحلام يعيش، الحوارات بينهما انقطعت، فعلى قضيين مُتوازيان يسيران.. لا أمل في اللقاء.

حنين تبحث عنه في ذاكرة جسده الذي صار غريبًا عنها، لم تعد تشعر بدفء لمستته.. وما بينهما أصبح حاجزًا بممنوع الاقتراب أو اللمس.

في حجرة النوم وحيدة تتلفح الظلام، تغوص في أحلام يقظة تبحث فيها عن وجهه الذي عفرته السنون فطمست ملامحه ليصبح وجهًا غير وجهه، فلا هو موجود ولا هو حقًا غائب.. ولا هي عادت ترتاح.



في الصباح عادت إلى البيت مُتعبة، كان سامح يُجهز أشياءه..
صامتًا كعادته.

هي ملت من أسئلة ليس لها إجابات شافية، لا تعرف أي جهاد
يذهب إليه سامح.. لا تعرف من كلفه أن يحوب البلدان مُنصبًا نفسه
خليفة لله في الأرض أمرًا بمعروف وناهيًا عن مُنكر.

لا تدري من علمه أن هذا هو دوره البديل لدوره الذي تَخلى عنه في
الحياة فلم يعد على قيدها ينبض.

رفقاء المسجد على موعد معه في موسم الشتاء، البريد شديد..
جلبابه الأبيض القصير يدنو من بنطال مداسه يكشف عن كفي قدميه،
طاقة بيضاء تلف رأسه ولحيته الطويلة غير مُهذبة.

عيناه ليست لشيء تنظر، هي في ساحةٍ بعيدة تهيم، ربما بساحة
أفكارٍ تدور برأسه.

حمل حقيقة يد بها ملابس وبطانية، أخبر حنين أنه ذاهب للجهاد،
عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المُنكر، عليه أن يطأ البلاد البعيدة
التي لا تصلها رسالة الإسلام واضحة، فأهلها مُسلمون يبحثون عن
مُعلم.

هناك يأمر الناس بارتياح المساجد ويجمعهم في حلقات بحضرته،
يشرح لهم السنة ويُعلمهم أمور الدين.

حين لم تعرف إلى أين يذهب، ولم يعد يعنيه أمره، هي في انتظار الخلاص منه.

في الخُطى إلى الباب أخبرها: أسبوع وأعود للمنزل، هي تتمنى لو طال غيابه فتغيب معه طقوس الخلافات وأوقات الملل.

ردت: ترجع بالسلامة.

إلى رفقته ذهب وتكرها لرفقة وحدتها، تسترد أنفاسها المُتعبة.



الشيخ الآن يُعلمها سر خطير، وهي على خطاه تسير، ربما دون تفكير.. فإذا فكّرت هي بذلك تدع مجالاً للشك في حديثه، وهذا في نهجهم غير مُباح.

عليها إذن أن تفسح في عقلها مكاناً لأفكارٍ يغرسها هو لا غيره، وعدها إذا تأدبت سيعطيها العهد، وهل هناك شرفاً تناله أرفع من ذلك الشرف! بالعهد تصبح هي روح الشيخ في جسدها، وتُواصل مشواره، وماذا هناك أكثر من هذه الأمانة! حقاً أمانة.

عليها إذاً أن تلتزم بالأدب وتتلقّى الأوامر وتجتهد وتجلب المريدين أكثر وأكثر، هي أمام الشيخ خافضة الطرف مُطأطأة الرأس، تستمع.. وتمثّل.

يُعلمها عن عالم الأرواح، ويعدها بأن هناك أسرار لو عرفتها ستمتلك ذلك السر الخطير.. سر الأرواح فتصبح من عباد الله الروحانيين.

نسى الشيخ أن علم الأرواح سرٌّ من أسرار الله لم يختص به أحد سواه، فالروح من أمر ربي.

ولكن لا بأس، هي تُصدقه، ففي عوالم كثيرة يختلط أمر المُسميات فيغلب الظن ويغيب اليقين.

العوالم كثيرة، ولكل عالم دائرته المُغلقة عليه، ولكن هل من الأدب أن ندفع الأبواب على أصحابها بلا استئذان؟!

عندما تنكشف الأسرار ربما يستطيع واحد أن يفتح الباب بلا مفتاح، يفتحه بقوة الدفع أو بآلة تسرب بين أسنان القفل بعدد من الكلمات، وبسلسلة من الأوراد، وبتساويح غير تساويح المُسبحين.

قد تحضر أرواحًا غائبة، أسرارها لم تزل عند الله، حضورها ليس المنتهى، ولا لأبواب العلم هو المُبتغى، حضورها فتنة في ثوب الكرامات، حضورها بين الحقيقة وبين دروب الخيالات أو الإيهامات، تلك الكرامات التي جرجرت من أجلها قدميها وجاءت لعند الشيخ.

هو يملئ عليها سر الأعداد، كيف تجلب أرواحًا من عالمها بعدد من التسبيحات، وكيف تفتن العقول باسم وشعار الكرامات!

الأسرار كثيرة، ولكنها تحتاج لجلسات أدب تطول، وشيخنا اليوم مشغول، فالحديث اليوم لن يطول.

عليها أن تمضي الآن ثم تعود في موعدٍ يُحدده لها عندما انحنى تُقبل يده لتنصرف على وعدٍ بعودة قريبة لتلقي المزيد، فهذا أدب المريد.



في يخت كبير كانت مراسم الفرح، صافيناز العطار هي العروس،
لرجل الأعمال الشهير «زيدان المصري».

فضلته على مهاب، دون أن تُشاركه القرار، دون استئذان رحلت
عنه لحياة الثراء، هجرت قلة حيلته.. تركت غداً معه كان غامضاً ليوم
معلوم؛ فمهرها طاقم الماس، وسكنها فيلا على النيل وحفلة زفافها
على يخت يمتلكه «أدهم».

اختارت المال..

ذيل فستانها يميل بخيوطه الذهبية، يفتersh الأرض حولها وهي
تُعانق السعد بين ذراعيه، صوت الأغاني يعلو، الآلات الموسيقية تعزف،
زيدان وصافيناز يجوبان اليخت برقصات الفرح، صفحة النيل تتألاً،
خلف سورٍ يتدور على مائدة مفتوحة لمن يشتهي الطعام، أنواع اللحوم
والدواجن، الخضر.. الفواكه، الثلجات والعصائر.. كلها ستفيض عن
الحاجة.



غدرت به، خانت العهد، أيام مرت كأنها لم تكن في حياته نجمة،
لم تعد تلقاه بنفس الفرح، لطريق غير طريقه تفد منه عندما تراه، أرقام
هاتفها مغلقة، وهو على جمرٍ يتقلب، يحاسب نفسه عن أشياءٍ ربما لم
يفعلها عن أسباب قد غفل عنها.

أيامه بدونها تكدرت، الساعات تمر ثقيلة، النهار على صمت
كآبة، والليل على انتظارات فرج يأتيه بها من جديد، أحضانه باردة..
وأنفاسه تائهة على ذكريات حلوة كانت بينهما.

صباحٌ أتاه بالخبر اليقين، صفحات الجرائد تعلن زفاف صافيناز
العطار لرجل الاعمال الشهير زيدان المصري.

مهاب صعقه الخبر، مُتخبطاً لا يصدق، راح يطلب هاتفها الذي
أصبح غير موجود بالخدمة، أخذته نوبة بكاء قادته لصمتٍ ربما يطول.
يتذكر أوقاتهما التي مرت كطيف حلم.. كيف فرطت بحلمهما،
كيف باعته بختاً من أجل حفنة أموال.

وعدها.. وكان بالوعد سيفي، وعدها أنه يوماً سيُصبح من الأثرياء،
فلماذا تعجلت الرحيل؟

بُست أن هناك أشياء: لن يشتريها المال غداً ستعرف.. غداً
ستعض أصابع الندم يوم لا ينفع ندمًا.

هو يعرف أنها يومًا ستعود إليه.. لكنه إن أتى ذلك اليوم لن يعود إليها، سيخبرها أنه الآن هو البائع.

دموع مهاب تتحجر الأفكار تروح به وتجئ.. أنفاسه مُنقطعة وعينه شاردتان.

مهاب في حجرته صامتًا يكتوي بنيران غيابها، وهي في حضرة عالم جديد تدخل من أبوابه سعيدة، تتأمل مظاهر ثراءٍ سيكون لها منه نصيب. وداد ترقب مهاب، تُحاول أن تتخطى عوالمه النفسية التي أصبحت على غير أحوالها، أوقات وحدته أصبحت تطول، والابتسامة فارقت وجهه. تعرف أن شيئًا حدث بينه وبين صافيناز، تهمسه صامته، تُذكره بنصيحتها الغالية التي لم يعمل بها مهاب.

قالت له يومًا: دي مش من توبنا يا حبيبي.

كانت تُحدثه عن الأصل، كانت تقصد أن المال لا يشتري أصل طبع، يومها أخبرها مهاب بأحلام صافيناز ومطالبها، عرفت أن طموحها المادي يعلو سقف مهاب، يتخطى جيبه الذي لم يزل فارغًا.

طرقت باب حجرته على استحياء فضولٍ تعرف أن مهاب لا يحبه، فهو بطبعه يميل إلى الكتمان، يتألم بلا آهة، يحتاج بلا طلب، يصمت على وجائع كثيرة هو وحده يعلمها ويسرّها.

سألته: مالك يا حبيبي؟! أنا أملك يا مهاب.. احكي لي.

ظل صامتاً يُراوغها النظرات، ترغرت عيناه بالدموع.

داعبته: صافيناز عاملة إيه؟!!

انهزمت دموعه: صافيناز اتجوزت يا ماما.

التقطت أنفاس وجيعتها عليه، ربتته: كل شيء نصيب يا حبيبي.

الدنيا مبتديش كل حاجة يا مهاب، ومنعرفش الخير فين، ضمته

لصدرها، أغمضت عينيها تعتصر ألماً بداخله وهي تشعر به.



تسلم عمله بأحد الفنادق، اليوم يدخل عالمًا جديدًا يرسم ملامح أيامه القادمة، لم يعد طالبًا، أصبح الآن مسئولًا يسعى لكسب لقمة عيش. تمنى لو أخبرها الآن، تمنى لو اقتسم معها أول لقمة من عرق جبينه، لكنها استعجلت الرحيل عنه.

على أحلامه المنكسرة يُواصل المشوار وحيدًا، ينتظر من الله عوضًا، لا زال يُحاول التسلي عنها، لم يحرز النجاح، ولم يكشف عن ضعفه.

الآن أدرك أن الحياة على غموضٍ يتعدى ما نظن أننا نعلمه، أدرك أنه لا أحد يعرف شيئًا، لا أحد يضمن شيئًا، كل الرؤى أمام عينيه مُهتزة، وكل الخطوات مُرتبكة، يُحاول الثبات.. يرفض الفشل.

في مدخل الفندق مكتبه مُواجهًا للمرتادين، عليه أن يحسن الاستقبال؛ فليرسم إذن زيف ابتسامة على شفثيه العطشى لمذاق قبلتها.

ليتخلى عن وجهه الذي اعتاد العبوس مُنذ أن رحلت، وليسط أسارير وجهه، ليمضي من جديد؛ فالحياة عندها لن تتوقف، أو هذا ما يجب أن يكون.

ليصبح الآن على كُرسی المُتفرجين.. فالفندق سلواه الآن، والحانة التابعة له تكشف له الستار على عالم لم يعرف عنه شيئًا عن بشرٍ لم يُشاهد لهم مُستقبل.. وربما لم يقرأ عنهم، فتستهواه المُشاهدة بين الحين والحين مُتأملًا ما فيها.

سرداب طويل مُتَزَجِج، النازل فيه كالنازل في مغارة، الأضواء خافتة تبدو كأنها ومضات ملونة بالأحمر تارة والأزرق تارة، وتارة بالأخضر أو البنفسجي.

ربما يحل الظلام فجأة، وقد يكون عن قصدٍ يتيح للعابرين خلوة حضرتهم في لحظات هيام يستفتحون بها ليلتهم.

الأحضان والقبلات الساخنة تزدد وهجًا في هذا السرداب الضيق حيث الوصول للساحة الواسعة في عالم بعيد على مسافة أمتار قريبة من الواقع العلوي.

هنا في الساحة السفلية والتي ينتهي بها ذلك السرداب ذو المدخل المُعزَل عن مدخل الفندق.

كل شيء مُباح، الرقص مُباح، والسقوط في الهاوية أثناء الجلوس مُباح، السكر على أعناق زجاجات الخمر مُباح، والعراك بين اليقظة والغياب أيضًا مُباح.

الأمزجة هنا تشتريها حفنة جنيهاً حيث تتوفر بأنواعها المختلفة، فلكل قادم مزاج خاص، وله أيضًا جيب خاص يكتظ بعملة بلده.

يفعل ما يشاء، ليس هناك ممنوع؛ فالقواعد في هذا المكان تتكسر على أنصle العرف والشرع والقانون، لا حساب.

لحظة واحدة يستقيم فيها الحساب، لو فرغت الجيوب.

الآتون يتوافدون، يستبقون الدفع بالدولار واليورو والاسترليني، وبالدرهم والجنيهاً.

لم تزل حنين على تخطات أمل لم يتحقق، الفجوة بينها وبين
سامح تزداد، أصبح يعتلي جسدها في غيبة روح، لم تعد تشعر بطقوس
وصله، قبلته الباردة تثلج شفيتها فتطفئ لهيب أنوثتها لحاجة يقضيها،
أصبح بين الحين والحين يأتي إليها، وهي مُرغمة لا تعلن الاستياء.

الوصل عند حنين أنفاس تستبق الحب، وشعور ينبت في قلبين
على نفس الأرض.

الوصل بغنج اللحظة، يبدو كأنغام الناي في ليل الأشجان على
ضوء القمر الساهر ليلاً، يعلن أن الظلمات يوماً لم تحلك، وأن لجين
الفضة يواري الهمسات.

حنين في غيبة حلم ذاقت فيه الحرمان، هي بين يديه تمثال من
صلصال لين، والوقت يمر ثقيلاً، فلا يوماً ستبوح الأصنام، وليس
بوصل الجسد يتشكل عشق الأرواح.

أصبح جرح حنين الغائر يوجعها، فما أحقر أنثى لا تختار، ما
أفظع سجن الليل الصامت بين الجدران، وخرائط جسد يشبه دمية
تتحرك خلف ستار، ينسدل على مشهد سئم التكرار.



الأيام تمر، وجرح مهاب على نفس الغور يوجعه، يُحاول نسيانها
فتحضره ذكرياتها، تُحاوطه عن اليمين وعن الشمال.

همس صوتها يحكي له عن أسباب كثيرة، فلا يلتمس لها عُذرًا
واحدًا.

هو الآن لا يُسليه عنها سوى ساعات عمله بالفندق، فهناك يرى
عوالماً جديدة وأناساً آخرين.. وعلى باب الحانة عندما يختلس
النظرات لبضع دقائق يُشاهد عالماً آخر لم يكن يعرف عنه شيئاً.. أبداً
لم يُشاهده من قبل، أقصى ما شاهده مُهاب خُضار الزرع في بلدتهم،
يوماً لم يكن يعرف رائحة الخمر ولا شكل زجاجاتها.. يوماً لم يكن
يعرف أن الكثير مُباح لا وازع سوى الضمير.. الغائب طبعاً.. لا أحد يتم
حسابه.. هو الآن أصبح فيلسوفاً يزن الأمور.. هو يعرف أن الله لا يغيب
برهته وأن لهذه العوامل نهايات هو يعلمها.

لم يتمنى يوماً لو أصبح مريداً لمائدة على الحانة، يكفيه ابتسامات
ساخرة لمشاهد يراها فلا تقربه، ربما تُسليه عن جرحه لوقت ولا يلبث
أن يعود.

فالجراح غالباً تُداويها الأيام، عليه إذا أن يصبر.. يمضي بين تروس
الوقت مُحاولاً النسيان.



هو هُناك في حضرة الجهاد، وحين بحضرة النيل ترقب صفحته الصافية، تتأمل الأشجار ذات الأغصان المائلة نحوه، تخط سطور روايتها الجديدة.

تواصل عبر صفحات الإنترنت تُتابع أخبار الأدب، تُهاتف أصدقاءها.. تبادل معهم حديث يلتفون فيه عند حضرة أفكار تجمعهم، يتحدثون عن المسرح والسينما وماذا يُعرض الآن في دار الأوبرا.

أوقات حين تمر على وهدّة إبداعات تنير لها الطريق، وطريق سامح هُناك في نهاية مشواره عند صحاري بعيدة حيث طلبه الشيخ الأمير ليطمئن على مسار دعوتهم للخير ويُواصل معهم التدريبات؛ فالجهاد كما أخبرهم يحتاج للقوة، عليهم أن يتمرسوا كيف يقفزون من فوق الأسطح العالية، وكيف يصوبون الرصاص فلا يطيش، كيف يشعلون النيران حولهم، ويمرون من بينها مرور الشعرة من العجين كما يقول المثل.

سامح هُناك يقفز بين حلقات اللهب المُرتفع في ساعات تدريب، يُصارع خصمه فينتصر عليه، يختفي بين الرمال ويمسك الثعابين، يشوي السحالي فيسد رمق جوعته.



الصخب في الحانة يعلو، صوت الآلات يرتفع، والقهقهات تندلع،
ديدي تشعل الصالة، بياض جسدها يومض للسكارى فيتهياون ما شاءوا.

خصرها يهتز، فيدوخ أمزجتهم الشرهة، سواد شعرها يعتم ما
حول كل واحد ليختلي بها في ظلام حضرته، وحرورية تجوب الموائد
بفستان يكشف عن نهديها البارزين ولا يطول ركبتها.

تميل بزجاجات الخمر حتى الشفاه الفارهة بشبقٍ قبليةٍ منها،
مواعيدها مُكتظة في أزمنة لا تمشي على عقارب ساعة، هي بين الوعي
واللاوعي تسترق ما تجود به الأيدي.

الصخب يزيد، والتهية تتسلسل للأدمغة، ديدي تُواصل الرقص،
وحرورية في صفقاتها تستمر.

المساء يمضي لساعات مُظلمة، فالشمس لا تتسلل لجزاجات
حانةٍ يسترها تحت الأرض.

طواير المرتادين في أول الطريقة ينتظرون خلو مكانٍ، يتساومون
على الدفع من أجل الفوز بالدخول.

حفنات من النقود تقذفها الأيدي فتأخذ برهتها عاليًا ثم تسقط
تحت أقدام ديدي كرمالٍ لساقها البيضاءتين وكفي قدميها الملونتين
بأظافر حمراء



هي في الشوارع ليلاً تُجر جر قديمها لبيت والدها.. دموعها ساخنة،
خطاها مُتلعثمة.. وهدة الأرض تأخذها لدوامات صدمة لم تُفكر يوماً بها.
رغم متاعب كثيرة.. رغم فجوة لم تضق يوماً بينهما، رغم
استحالة الحياة التي تزداد مع الوقت، لم تُفكر يوماً بالطلاق.. كانت
تكتفي بشظف العيش.

اليوم آن الأوان، فالخلاص دائماً موعِد يحين في غيابات السماء
ويجل في لحظة فوق الأرض.

طرقت الباب، فتح يونس.. ارتمت في أحضانه باكية، أسرع وداد
من المطبخ: يا ساتر يا رب مالك يا حنين؟

صمت بُرهة: انطلقت.. الحمد لله، أخيراً خلصت.

دبت وداد صدرها.. رفضت حنين أن ترد على سؤال واحد،
رفضت أن تنطق بكلمة دخلت حجرتها صامتة.

تحررت منه بيمين ليس لاغياً، انطلقت من عصمته للأفق البعيد،
هي الآن تمتلك نفسها بلا قيود، بلا عُقد مُركبة بلا أحزانٍ تُكبلها.. أو
تُعرقل خطاها.

الطلاق بالنسبة لحنين كان الخروج من عُنق الزجاجة هو التحرر
من سجن سامح الذي اختارته يوماً بنفسها، فلفت الجبل حول رقبتها
وناولته إياه.

لم يكن ذلك حلمها يوماً.. خذلها، ولكن لم تنكسر استقامت
على عودٍ كاد يصبح هزياً لولا عزميتها القوية على أولى الخطوات
من جديد بطريق ليس مُبهماً.. وليس واضحاً، تعرف أنها الآن أصبحت
وحيدة، لكنها وحدة الأنس بذاتها التي استردتها بعد ضياع.

الآن عليها أن تُفكر في أحلامٍ تنتظرها، ليس لها أن تلتفت للوراء،
ليس لها أن تتألم، ليس لعينيها أن تستسلم للدموع.

ليس لحنين أن تقبل ضعفاً يسكنها، عليها أن تتخلص منها، أن
تجثته من بين النبضات لتبت قوة من جديد.

خطاها لم تزل مُرتبكة، على اهتزازات ما حولها، على زلزلةٍ
حدثٍ عظيم هان عليها، لكنها في الغد أحسن.



الساعات معها تنتهي على وهم لذه، صورة حنين بعينها الطيبين
تُراوده فلا يستطيع الهروب.. أسئلة كثيرة تتخبط برأسه فلا يجد إجابة
واحدة تشفيه.

ماذا فعلت حنين؟ هو نفسه لا يدري هل ظلمها أم ظلم نفسه؟ الآن
يشتااق لرؤيتها ويكلاه سيرتها في آن واحد.. ربما لأنه يعرف أن العودة
مُستحيلة.

يفيق على رنة ضحكتها التي يفسدها العمر: إيه يا سامح للدرجة
دي رحت في عالم تاني هو أنت لسه شوفت حاجة يا حبيبي.

تعلتيه مُستسلماً لحضنٍ أصبح يتوغله فلا يتقبل رائحة حتى نفسه.

على أعتاب أسماء يُواصل مشوار الهروب من ضعفه لبرائتها،
فراشها بمذاق الجسد وروحه ضائعة تبحث عن مأوى، ألوانه مُنبهته
تبحث عن ريشة.

لم ينهم فلا يشبع، يسقط في توهة بلا عنوان يتخبط بين مسجدٍ
يرتاده وخطيئته مُدنساً بالذنوب حيث لا يجد مأوى.

تقبض عليه بشفتين محرومتين فلا يشعر معها الأمان، تُراوده عن
اليمين وعن اليسار فلا هو يرتاح في الأرض، ولا السماء عادت تتقبله.

يروح لبراح سنواتٍ بعيدة حيث التقى بحنين فجمعتهما ألوان
لوحة في حضرة فن، ويعود لاهثاً لحضرته المُدمنة.

الآن يمتقتها وهو لم يزل فوقها يكره امتطائها، ولم يزل يمتطيها
مُنغمسًا في نفس دنسها أنفاسها بطعم المرار، وصوتها بمذاق القسوة
خاليًا من روح.

أغرقتة في أوهام طيبتها فسقط في شرها مُتورطًا في شر أعماله.



هي الآن في شقتها، وحيدة، تستمتع بعدمه من حياتها.. تستعيد نفسها، تستنشق هواءً غير ملوثاً بعقدٍ كانت تركبه.. تخلصت من أشياءه.. ملابسه، حقائبه، أوراق، تخلصت من بقايا ألوانه التي فسدت.. لونت حوائطها بألوان زاهية، فتحت نوافذها لشمس جديدة.. تمنحها النور والدفء.

حين تشق الخطى بين السحاب في حضرة أحلامها التي الآن تتحقق، قلمها لن يجف بعد اليوم، سطورها تنساب بحكايات الفن على صفحات الجرائد والمجلات، الطريق أمامها أصبح مُمهّداً فتمضي.

هي الآن تترأس صفحة الأدب في إحدى الجرائد الشهيرة، صورتها تجوب العالم على رأس مقالٍ أسبوعي، البرامج التلفزيونية تسعد بحضرتها ضيفة في حديثٍ عن تجربتها المتميزة.

حين في حضرة الإبداع تشكل، أحزانها تنبري يوماً بعد يوم وأفراح نجاحاتها تنحفر في ذاكرة جديدة، بوجدانها ذاكرة تنسيها ما فات وترسم لها تأملات.



أبواب الحانة لا تنغلق، تستقبل المريدين كل مساءً جديد،
فالحضرة هناك على رأس الموائد الممتدة المكتظة بأطباق المزة
وزجاجات الخمور.

حورية على رأس مائدة، تفتح زجاجة خمر لأحد الزبائن، يرشف
من خمر شفيتها رشفة تفوق لذة ما تقدمه، ترقب بعينها الزائغتين
ألوان النعيم.

الهوانم يُجاورن البهوات على موائد مُستديرة، روائح العطور
تفوح، بواقي المرات تفيض في أطباقها فيحملها النادل ليأتي بغيرها من
أنواع أخرى.

العملات الورقية تشتعل لتشغل سيجارًا تلو آخر، حلبات الرقص
تتسع فتتلوى الأجساد، تتعرج.. تتداخل في هيامات اللذة.

هي الآن تُجاورهم أشبار المكان ولا تُرافقهم المقام؛ فالمقامات
بقدر ما في الجيوب محفوظة.

تجوب الموائد، تفتح مزيدًا من الزجاجات، وذاكرتها تنفتح،
تتوارب بين يقظة وحلم على نفس السرير المُتسوس الذي تقرّح فوقه
جسد أمها المريضة، الفقر أمرضها، الفقر قصر عنها الدواء الذي غلا
ثمنه.

تذكر ظلمة نفس الحجرة في الدور الأرضي الذي قاطعته أشعة الشمس فتعالت عليه ولم تذكره يومًا، الشباك يفتح على حارة ضيقة فلا ينفذ النور.

كانت ترقب وجه أمها الذي يزداد شحوبًا، ترقب عينيها الموجوعتين بالبؤس، المُحاطتين بهالات سوداء، ترقب صغرة وجهها وتهذل شفيتها على التمتمة بالدعاء لحورية، وهي تُساعدُها لتعتدل، تتجرع شربة ماء ولا تشتهي كِسرة خبز.

حورية كانت تربت جسدها الهزيل، تُطمئنُها أنها ستصبح بخير، وهي تعلم جيدًا أن الخير ولى عنها، فلن تعود كما كانت.

تعرف أنها النهايات، وتعدّها بأن البدايات ستحلّو من جديد، الآن حورية في حضرة ذكراها، تعتذر لها لأنها لم تفِ بالوعد.

عاهدتها أن تصون نفسها، تقسم لها أنها أرادت لو فعلت، لكن شبح الفقر طاردها، تابع خطاها حتى فرت منه إلى هنا، في تلك الحانة المُختبأة تحت الأرض.

تقسم لها أن الخيار كان صعبًا، وأنها لم تقوَ أن تلق نفس مصيرها الذي كان، تُذكرها أنها ليس لها قريب ولا صديق يُعاونها.. يكفلها، ليس لها سوى الله، تُطمأنّها أنه يعلم حالها، وأنه سيصفح عنها، تُجدد العهد بأنّها يومًا ستتوب إليه.



حينين في حضرة «الشيخ ياسين» بأحد بيوت الثقافة، تم الإعلان
عن الحفلة في موسم الاحتفال بالإسراء والمعراج.

القاعة تمتلئ بالحضور، وصوت الشيخ ياسين يشجي الجميع
بقصائد العشق الروحي لـ «ابن الفارض».

يغنيها فيفهم الحاضرون معانيها، يزدادون عشقاً لله ورسوله، يهيمون
بأبخرة الحب التي تعبق المكان، تفوح بينهم أدخنة الوله الحقيقي الذي
يسكن القلوب والعقول.

الموسيقى تزيد صوته حلاوة، فيشجون بالمعاني التي تُهذب النفس
وتسمو بالروح فتُحلق بها في سماءات الله.

الصفو الروحي هو الصفو الحقيقي، والخلوة خلوة روح لا خلوة
الجسد بين الجدران.

أرواح الحاضرين الآن تُحلق، كلهم في حضرة ابن الفارض يريدون
لمعانيه، وقلوبهم على صفو معه.



سنوات مرت.. ثرى مصر أوحشه، عاد إليها مُحملاً بخيراتٍ
كثيرة.. لكنه أتراها تعيد لحظة سعادة كان الشمل يلتم بها؟

أقمشة ومفروشات ساده وبرفانات.. أجهزة وخيرات كثيرة من
العراق، تتأملها نوال بلا رغبة فيها، شفتاها تُتمتمان: كتر خيرك يا
حبيبي إيه ده كله يا سمعان؟!

ودت لو لم تمسك دموعها.. لو تخبره أن كل هذه الأشياء لا
جدوى منها، فالصمت يُخيم على البيت بعد رحيل (صبحي). وهو
سيعود حيث جاء بعد أيام إجازته، حنة أصبحت على حالها الحزين
تعود من عملها فتلتحف الصمت في حجرتها، من سيسعد بكل هذه
الأشياء، ستصبح أكواماً صامته في بيت لم يعد جدرانها يرى الفرح.
سمعان يتأمل عيني نوال الشاردتين: كنت عايزه حاجة ثانية يا
ماما.. قللي يا حبيبي؟

تجيبه بحيلة قليلة: لا يا حبيبي الخير كثير، ربنا يخليك لينا يا
سمعان.

يُحدثها وعيناه تثقبان الشرفة المُقابلة، يتلجلج: طنط وداد عاملة ايه
يا ماما.. وحين؟ تربت كتفه.

يُواصل الحديث: ما تيجي معايا يا حنة نسلم عليهم واجب برضه.

هو يعرف أن السنوات مرت.. هو الآن أصبح أكثر نُضجًا، أصبح يعي الأمور، لكن نبشًا في قلبه لا زال على استحياء يدفعه للسؤال عنها.. حنين بداخله يُحرّكه الآن يداها، لا بأس.. أيام قليلة وسيأخذه البعاد من جديد.. لا شيء في أن يذهب لزيارتهم: وأخبارهم إيه يا حنّ؟

رجت بصوت أصبح على تعرج يخنق الكلمات: بعد ما عمك يونس مات حنين اطلقت وأهي عايشة في شقتها وكثير بتبقى هنا عند طنط وداد.



حيث الفن الإسلامي يتجلى.. وحيث التاريخ يعبق الشوارع في
حي خان الخليلي كانت تسير.

المعروضات النحاسية على بريقها الخاص تتشكل، الأباريق..
المباخر، والصواني.. القدر والصحون تتزخرف بالنقوش الدقيقة
الفرعونية.. والإسلامية.

وجه نفرتيتي يطل من إحدى فتارين العرض المترصة بواجهة
محل، كليوباترا.. والملكات.. كأنهن لازلن على قيد الحياة يحكين
مآثر حقبة مضت ولم تزل هي، مصر.. هي الحضارة والتاريخ.

العربات الخشبية المنتصبة على الحوائط تتراص عليها القلادات
والأساور والأقراط، يلتمعن لعين حنين.. حيث تهوى التشكيلات الفنية
المحفورة على معدنها النحاسي والفضي.

راحت تنتقي ما يروق لها رغم غلاء ثمنها، فهي تقدّر قيمتها،
واصلت السير في خطوات عاشقة لترى الشوارع هناك.

تأمل المارة.. تتفحص وجوههم، تقرأها بين صمت وابتسامات،
تواصل.. تفتح باباً للود العابر.

المعروضات الجلدية والهدايا.. المشغولات.. والجلاليب
المزركشة، أشياء كثيرة تداعب شهيتها التسويقية.

محلات العطارة بين الحين والحين تفوح برائحة التوابل، فتُغازل حاسة الشم.. تتعقبها، ثم تعرج على المحلات الخاصة بأدوات التجميل؛ المكاحل.. المركبات المُختلفة، الزيوت والكريمات، والصابون وأحمر الشفاه، كل ما تبحث عنه حين هناك، أنهت جولتها.

في ساحة الحسين وقفت تتأمل واجهة المسجد وقبته، تذكر آل البيت وتُصلي على الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

السائحون هناك بين مُقترِبٍ ومريد؛ فالبعض أتى من البلاد المُختلفة ليشهد حضارة مصر الفرعونية ويزور آثارها، والبعض من أهل البلاد.. أكثر ما يبغيه في المكان ضريح الحسين.

ارتفع آذان العصر، ساقتها قدماها لمدخل النساء عند البوابة الخلفية للمسجد، فأدت الصلاة، استغفرت ودعت الله وذكرت الرسول وآل بيته.

مالت بعينيها على مدخل يُؤدي إلى ضريح الحسين في المسجد، الجميع هناك يلتفون حوله، كلُّ يتوسل به، يطلب منه الشفاعة في طلب شفاء مريض، أو عودة غائب، أو تفريج كربة.

الشموع مُقادة.. والنفوس لحب الحسين مُنقادة، الدموع هي مرسال الشوق.. والرجاء فيه يمتد.

الأيادي تطول كسوة الضريح طلباً للتبرك، فعلى لمسة منه يتسابق
الملثمون حوله.

حين في أرض المسجد تُصلي على الرسول وتدعو لآل بيته،
تتقرب لله بالدعوات، هي في حضره الله ضيفة في بيت من بيوته تدعو،
تتوسل لله يتقبل دعواتها.



الخطوات على أثر الصلاة خفيفة، والروح طليقة تسبح في الملكوت، عيناها تتعلق بسحبٍ سيّارة في السماء، وقداها على الرض تُواصل المسير منتشية.

على أحد المقاعد جلست، تُجاور شيخًا يقضم خبزة محشوة بالعجوة، نظر إليها مُبتسمًا: اتفضلني معيا.

- بالهنا والشفاء.

عيناه طيبتان، وله ابتسامة تبوح بصفو هي تعرفه، صوته مُتهدِّج بالحكمة، وثنايا وجهه تخبّر عن سنواتٍ كدّ مضت.

أشياء خفية جعلتها تختلس النظر إليه، ربما لشبه كبير بين هذا العجوز الطيب وبين وجه والدها الراحل، وربما لأن الأرواح جنود مُجنّدة وتآلف حدث بين روحها وروحه في عالمٍ خفي نلتقط منه خيوط الوصل بلا أسباب.

مرّ عليهما رجل يحمل في يده علب عصير، طلبت منه اثنتين فقدمت له واحدة، شكرها.. وأكمل حديثًا بادئته إياه، فعرفت أن اسمه عويش.

حكيها عن بلادٍ بعيدة جاء منها راكبًا القطار، من قلب الصعيد حيث أتى إلى هنا، فهو لأولياء الله تعالى من المُحِبِّين، ولآل البيت من العاشقين.

يأتي زائرًا للحسين، وللسيدة زينب، في حضرتهم يرتاح قلبه، ويتخلص من أوجاع جسده، راح يحكي: عمرٌ مضى في حب آل البيت،

أذكر جدي عويش الأكبر وهو يعدني بصحبته إلى مولد الحسين، كنت أقضي الليالي على هذا الأمل مُنتظرًا مجيء اليوم الذي أصبح فيه مُبكرًا فأجاور جدي الخطوات إلى محطة القطار، لم أنس ذلك الطريق وأنا أجلس جانب الشباك أُشاهد الطريق وأعد المحطات حتى نصل إلى القاهرة.

أشار: هُنا في أرض هذا المسجد نفسه كنت أجاور جدي السجود، وأشاركه الدعاء، وأسمعه بأذني يبلغ الحسين وآل بيت النبوة عن عشقه الساكن بالقلب.

وبعد أن مات جدي لم تنقطع عني هذه العادة، ولم يكن حب آل البيت في قلبي إلا في زيادة لا يشوبها نقصان، فحب الرسول وآل بيته نعمة كبيرة ندعو الله ألا يشوبها نقصان.

سألته حين مُندهشة: من أجل زيارة الحسين تقطع المسافات من قلب الصعيد؟!

ابتسم: وهل يكون الحب إلا بالدليل ولا الوصول إلا بالمسير؟! ساعةً في قرب سيدنا الحسين هُنا بمسجده تُساوي عُمراً، فبذكر الله ورسوله وآل البيت ترتاح القلوب يا حنين.

استأذنها بالانصراف.. املي رقم هاتفه النقال، فوعده أن تسأل عنه وتطمئن عليه، طلبت منه ألا يعز عليها بالسؤال فبحديثه طابت نفسها، عرِفَتْ أنه للناس فيما يعشقون مذاهب، وأن كل لا محالة بطريقه ذاهب.. وأنه حقًا، فالأقدام تدب حيثما تحب.

مهاب لساحة الحانة مُشاهدًا ولأرض المسجد في مواقيت الصلاة
مريد. حالته تفكير في هذا العالم القريب الذي يجمع شاكلات من
البشر..

آن الأوان أن تتزوج، بذلك حدثته وداد، لم يكن حلم مهاب بالزواج
إلا من أجل صافيناز التي غدرت به، وتركته وحيدًا أسير ذكرياتها، بين
وهم أحلامها وحقيقة غيابها.

وداد تعلم أن مهاب لن يشفى من آلمها سوى بالانشغال عنها،
تريد له امرأة أخرى تسد فراغها، وهيات له من ذلك، وصافيناز حُبّه
الأول، حلم صباه.. وأمل رجولته الذي تسرب من بين يديه على مرأى
من عينيه وهو مكتوف اليدين.

عميق كان جرحها، وكتوم هو مهاب، بلا تأوّه ينزف صامتًا لينسلي
جسده من روحه، فكاد للعدم يروح، هو يعلم أن الحياة لن تتوقف،
فهي قهراً تستمر.

راحت تُحدثه عنها: رباب بنت حلال يا مهاب، صلة القرابة اللي
بينا وبين أهلها هتقرب المسافات، يا حبيبي الزوجة اختيار مش سهل،
اسمع كلامي.

هو لا يُفكر في الزواج، روحه لم تزل مُعلقة بصافيناز، وهي تُواصل
محاولات إقناعه: ورباب بنت أصول هتصونك وتحمل اسمك، وتربي
ولادك أحسن تربية، وأهلها يا بني نسب يشرف.



صافيناز سرقتها الأيام، هي في نشوة الفرح بما آتاها لم تزل،
الدراهم الغير معدودات كانت ثمنًا بخسًا لمهاب باعتها بها، ودعته
بذاكرتها التي أصبحت تشوش عليه، تُحاول أن تنساه لتذوق طعم ما
أُوتيت من خيرات.

هي في حضرة البذخ تعيش، تسكن فيلا على النيل، أعمدتها من
الرخام.. وفراشها من الحرير.

البهو يتسع على أرائك مذهبه، ولوحات ثمينة وسجاد منسوج
بالفن، الخادمة تقوم بأعمال المنزل، وصافيناز لها أعمال كثيرة.

انشغالات تملئ جدول يومها، فهي بين النادي والصحاب
والزيارات الاجتماعية، بين صالونات التجميل، ومتابعة الأخبار.
زخم الحياة لم يزل يبرق لعينيها الأشياء، تاهت على حادثة
أمرها، السكرَةُ تذيبها النشوة فتحجب عنها الفكر، تنسيها أشياء كثيرة،
وتنسيها مهاب.

«زيدان» اتخذها زوجة لأنه كان يحتاج لمثلها يتألق بها بين
الأصحاب، تُشاركه الحفلات الهامة، تحجب عنه الشكوك.

أما زوجته الحقيقة هي ذاته، لا يركن لغيرها ولا يحب سواها، لا
يشغل عنها، هو عنها يُشغل صافيناز بما يلهيها.

ليس لديه وقت سوى لجمع المال، بوابة قلبه دائمًا مُغلقة
للتحسينات، هو يكتفي بالنزوات.

لا أحد يعلم شيئاً عنه حتى صافيناز، تكتفي منه بكلمات معسولة
تُعزف على أوتار سدا جتها فتُصدقه، تُؤمن بكل ما يمليه، يعرف أنها لا
تُفكر كثيراً، ببريق الملذات .



هجرته صافيناز، لم يعد يبحث عنها، لكنه يبحث عن أنيس لأحزانه، الجنون كاد يركبه، صورها تُطارده عن اليمين وعن اليسار، ذكريات كل لحظة تسكنه رغمًا عنه.

على نفس الشاطئ يجلس بدونها، يُحدث وجهها الغائب، يُعاتبها فتواري عنه عينيها، تهرب من أسئلة كثيرة لا تعنيه إجاباتها، فلا عذر عنده صالح للالتماس.

أصبح الألم هو الدليل الوحيد على أن حياته لا زالت على قيدها تسير، خطواتها أصبحت ثقيلة كخطى العجائز، هجرها لفرح بجوار صافيناز.

قسمات وجهه اثنت على كسراتٍ تشبه تجاعيد العجائز، الغيب البعيد هو الونس الوحيد بالنسبة له، لم يعد على حاله مهاب، ولم يعترف بضعفه الذي أصبح، يرسم ابتسامته المُنهزمة يُداري بها ما كان. يفصح لذاته أن الأمر لم يعد يُمثل بالنسبة له شيء، وأنه لا يشتري من باعه، والحقيقة أنه يتمنى لو دفع روحه ثمنًا لعودتها، لكنها.. يومًا لم تعد، ويومًا لم يتقبلها من جديد بقبول حسن.



على نفس حالته تمر الأيام، صافيناز تركت بداخله جرح غائر..
ندبة بقلبه، على أثرها تشوهت الأيام راح مذاقها.

هو في حجرته ليلاً.. يتوحد أحزانه.. لا أحد قادر على اختراق
أغواره، لا أحد يستطيع مديد العون إليه، فهو لا يترك مجالاً ذلك..
يوصد أبواب الحديث.. يكتفي بسماع نفس الأغنيات التي كانا
يقتسمان مُتعة ألحانها على ضفاف النيل.

طرقت وداد الباب.. جلست بجانبه، اقتحمته على مضضٍ منه
يواريه الإحراج، عيناه تترجاها أن تخرج وتتركه لوحدثه وطرف لسانه
عن ذلك يتمثل الأدب معها.

فاتحته الحديث: الحياة مابتقفش على حد يا مهاب، ساقية الأيام
بتدور يا حبيبي والوقت بينسي، تنهد.. ودّ لو صرخ فيها.. لو أخبرها
أنه لن ينسي صافيناز.

أعادت عليه الحديث عن رباب، راحت تذكر له محاسنها وحسن
تربيتها، تعدّه أن تضمن له صلاحها كزوجة وربة بيت تصونه في ماله
وعياله.

هي في واديهها تسرد حلو الحديث عنها، وهو في وادٍ آخر يُتمتم:
أريدها ربة قلبي.. تسكن أغواره، تجيد العزف على أوتار قلبي حتى
لو لم تجد فن الطهي، اتمني لو أكون أن طفلها تربيني فأتعود مزاجها.

أفاق: حاضر يا ماما.. إن شاء الله هفكر في الموضوع ده.. أكيد.. أنا
فعلاً لازم حاجة تنسيني.

فرحت: ربنا يهديك يا حبيبي.

كان نفسي يكون ابوك عايش ويفرح معانا.. الله يرحمه، ويسكنه
الجنة. آمين



انتهت الليلة وكادت أن تنتهي أنفاس حورية، أزهقها نفس حالها كل يوم، عليها الآن أن تتسلل بين الشوارع تُداري نفسها، المهم أن يُتاويها الخفاء حتى تشق الشمس دمس قبل الفجر؛ فهي لا تجرؤ على الرجوع لبيتها في مثل هذا الوقت، لو علم أبناء الحي بحالها لقطعوا رقبتها، وعلقوها على مدخل الحارة، هي بالنسبة لهم بنت الحي، أمرها لا يخصها هي بل يخصهم جميعاً، وعارها.. عار على الجميع.

الستر إذاً أفضل لها، لا بأس، فلتختفي في سرايب الظلام حتى ينشق النهار فتعرج على السوق، تشتري بعض الخضّر، والفاكهة، والخُبز، وتعود فكأنها بكرت للتسوق.

أحياناً تلمحها عين في شرفة من الشرفات، فتلوح بيدها، تلقي السلام لتؤكد أن لا شيء تخفيه.

تدخل في شقتها في الدور الأرضي، تغلق باباً خشبياً بضلفتين لكل واحدة شراعة بزجاج أعيته الشروخ، تتأمل نفس الحوائط التي سقط دهانها وأجربت ألوانها.

تدخل بسرعة إلى الحمام تغلق الصنبور الذي انفلت محبسه ليسرب الماء بين الحين والحين.

تمسك عبوة المبيد الحشري، ترش الأركان التي تأوي حشرات أتعبها الحرب ضدهم، وبلاعة الصرف على مقربة من الباب تُسهّل مرورهم من تحت العتبة.

رائحة الكمكمة تطبق أنفاسها، لم تكن قبل ذلك تنتبه، الآن وقد
تشممت روائح الخمر، وروائح العطور الفوّاحة بملامس البهوات في
الحانة، أصبحت تعرف الفارق، تُميزه جيدًا.

خلعت عباؤها السوداء التي دارت تفاصيل جسدها تحت الفُستان
العاري الذي كانت ترتديه هُناك، أزاحت رباط شعرها المُتلف حول
وجهها لينفلت شعرها، تمامًا كما كان ينفلت قبل ساعات قليلة عند
موائد زبائنّها.

راحت تعد نقودًا هي مكسب ليلتها، وتُصبر نفسها بأن الأوان
اقترب، وأن ما تدخره يومًا سيكون كافيًا لتشتري شقة، وسيارة، يومها
ستنخلع من هذه الحارة البائسة.



الأنوار تملئ القاعة، فرحة وداد بمهاب اليوم ينقصها يونس، حين
تُجاورها الخطي على ذكرى دفئة وحلاوة ابتسامته، كأنه الآن حاضر
بينهم يُشاركهم السعادة بزفاف مُهاب.. حين ونوال أول المدعوين،
الأصحاب.. والأهل.. والأحباب كلهم في وادٍ يهيمنون.. يغنون
للعروس، أغنيات الغزل ومهاب بجانبها يُغني لهايمات صافيناز التي
رحلت غدرًا، يُداري غور جرحه بيهت ابتسامه، الشباب يرفعونه فوق
الأكتاف وروحه لتحت الأرض تغيب، تتمنى لو تلحق بيونس، فينفك
من اسر ينتظره من برائن زيجة لا يسبقها حب.. ولا هوى قلب.

لا أحد يدري أفكاره وحده، هو يعرف أن الله يعلم الأسرار.. يُذكر
نفسه أنه صاحب ذلك القرار فيستجمع قواه التي كادت أن تنهار، يثبت
على عقارب ساعة تمر، ربما عنده هو توقفت على ذكريات تُحاوِطه
عن اليمين وعن اليسار.

آخر الليل آخذه لبيته الجديد حيث عتبة يخطوها لأول مره، شاركته
الخطي رباب.. أغلق الباب.. ضمها ل صدره، كشف عن وجهها لتراوده
ابتسامه صافيناز.

أطفئ الأنوار.. أغمض عينيه على مذاق قبلة يجترها من نفس
الذاكرة في غور دماغه حيث تسكن صافيناز.



صافيناز راحت عنها السكره، وجاءتها الفكرة، أفاقت الآن من وحل
الشراء الذي ملّته تبحث عن فتات قلبها، عن بقاياها بانكسارات النبض.

تبحث عن قرطاس الترمس، ولقمة السميّط في حضرة مهّاب على
شاطئ النيل، النيل الذي أصبح يضمن عليها بتبره السائل، فلم تعد
تشرب سوى مياه الآبار في زجاجات المياه المعدنية.

الآن تتوه كالمجنونة بين ثريات تدلى من أسقف قصرها، تصرخها
أن تنظفي لتحاكي ظلمة الليل في ذات القارب الصغير الذي كان يصحبها
في أحضان مهّاب بحضرة القمر.

تروح وتجيء بين جدران عالية تتوسطها أعمدة الرخام المُركّشة،
تنظر للوحات المُعلقة عليها والتي تشربت ماء الذهب، فلا ترى
أشخاصها سوى سُجناء بين الإطار المُذهب.

هي أيضًا الآن تُهرول على بلاطات ملساء في براحات، سجن
أنفاسها تطبق عليها.

القلادة الذهبية كانت تخنقها، هي لا تريد ذهبًا، الأساور الماسية
تقبض معصمها كأنها كلايش سجن، ويريد يدها يُسرّى يصرخ،
الدماء تنفر منه، والدموع من عينيها تنهمر.

الأيام بلا ألوان.. أصبحت بظلال باهتة، وهي تهوى ساقطة فلا
تنعم بحياة ولا الموت يريحها.

ملائكة السماء لا تنغمدها برحمة، وشياطين أفكارها تُوسوس لها
بحيل الخلاص، لن يدعها زيدان لحال سبيلها، ولا سبيل لمهاب الذي
اشتاقت له بلا أمل.

هي بين الحين والحين تحيا وتموت، تروح لعوالم بعيدة وتعود.



على وعده الذي لم يتعود أن يخلفه .. أخبرها أنه قادم للقاهرة
فبكرت الانتظار، القطار سيصل تمام التاسعة.

هي على نفس المقعد الذي اعتادت أن تنظره عليه، تسمع صفير
القطارات مترقبة وجه أبيها يطل عليها من السماء، يرن في أذنيها بآخر
كلمة سمعتها منه: «ما جتيش ليه يا حنين؟»

- «لسة في الشغل .. بكرة إن شاء الله أرجع بدري .. عشان نحتفل
بعيد ميلادك».

من يومها لم يأت ذلك الغد، لم تلقه حيًّا، باغته الأجل صباح
اليوم التالي، تذكر يوم أن رن الهاتف على صوت وداد: تعالي يا حنين ..
تعالي بسرعة.

- في أيه يا ماما خير .. مالك؟!

- تعالي بسرعة يا حنين .. بابا تعبان شوية، علا نبض قلبها على
أثر ذلك الخبر، ارتبكت الحروف على شفيتها فلم تنطق
سوى: يا ساتر .. يا رب استر يا رب.



ركضت السلّمات نزولاً لبيتهم، لم يكن الباب مُغلّقاً، صوت بكاء وداد كان يزلزل الحوائط، ومهاب مُنكفى على ركبتيه تحت الأريكة المُمد عليها يونس صامتاً، أشارت وداد لحنين، فعرفت أنها النهاية.

مالت عليه مُنهاراً: لية كده يا بابا؟ دانا جيالك كمان هدية، كنت جاية بالليل عشان عيد ميلادك.

لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله، يا رب.. يا رب.. بابا.. يا رب.

راحت تتحسس ملامح وجهه، تضع أصابعها على عينيه المُسبلتين ولا تجرؤ أن تفتحهما، ودت لو فاجئها بنظرة أخيرة، راحت تقرأ له بعض الآيات وتضم وداد لتمنحها صبراً لم تقوَ هي عليه.

لم يأخذها من أحزان ذاكرتها سوى فجيرة خبر حادث القطار القادم من الصعيد، والذي أسفر عن ضحايا ومصابين.

أخذتها اللففة على الرجل الطيب «عويش»، انهارت دموع نفس الذاكرة التي أخذتها لُصُبة والدها، راحت تُنادي السماء أن تفتح أبواب رحمتها.

جلست على مقعد يوارئها عن الأعين.. انهمرت دموعها، أسندت رأسها لأعلى، أخذها صمت دفين، عقارب الساعة تمر، هي في ساعة بين ذاكرة الروح.. وذاكرة الجسد تتأرجح، بين الأرض والسماء، هاتفها يرن.. ولا تسمعه.

القطار التالي قادم بتأخير ساعة عن مواعده نظرًا لظروف الحادث،
من عربة رقم ٨ نزل عويش الطيب لاهثًا، يتحدث مع النازلين عن
نفس الحادث الذي شغل الجميع، يحمدون الله على سلامتهم، ويدعون
للمُصابين بالنجاة.

لم يأخذ حنين من غفلتها سوى نداءً على بُعد أمتارٍ منها يقترب:
حنين.. حنين.. أنتِ فين يا بنيتي، رنيت عليكِ كثير.

قامت على فزعةٍ خطواتها، لم تُصدق عينيها: عم عويش!
اقتربت تتحسسها، تتأكد أنه هو.. هو.

وهو على نفس غضبه: خَبَرِ إيه يا بنيتي، كنت ماشي عاد وما
شاي فكيش.

أخذتها نوبة ضحكٍ مُتقطع، ثم تنفست الصعداء: خبر قطر
الصعيد فزعني عليك: حمدٌ لله على السلامة.

راح يُواصل الكلام على نفس طريقته الجادة: والله يا بنيتي ربنا
كريم، لكل أجلٍ كتاب، كنت راح أركب القطار نفسه واتعطلت عنه..
أمر الله.

شبكت يدها في يده، تطمئن أنه حقًا بخير، صاحبتة الخُطى.. لا
يهمها من حديثه سوى أنه حقًا بخير.



مشيا معًا لتحت الرُّبع، ذلك المكان العتيق بين حنايا القاهرة،
شارع به عبق الأصالة، هُناك يُقرن بائعو الجملة لبضائع مُعيَّنة تخص
الأحصنة.

على عتبة دكان فاجئها الجلوس بجانب «بوجو» البائع المعروف
بعاهته، فعلى قدمين لا يتحركان يزحف ليتناول البضائع.

طلب عويش منه سرجين، ومجموعة من الجلاجل النحاسية التي
توضع اسفل قدم الحصان، فيحدث رنينًا يُشبه رنين الجرس، وطلب
أيضًا مجموعة من الحدودات التي توصل أسفل قدم الحصان (حافرة)
واصلت معه المسير، أخبرها أنه يشتري هذه الأشياء لبيعها في بلدته.

وصلا معًا للخيامية، من أشهر شوارع مصر العتيقة، حيث توجد
المشغولات بفنونها المتنوعة



بجوارها.. يرأوده طيف صافيناز الأيام تمر، على عذمية لون، فلا
هي حلوة، ولا هي مرة، لا هو مع رباب وجد نفسه من جديد، ولا عن
حب صافيناز تاب.

نفسه لم تزل تعصي عليه، لم تزل تهفو إليها بين الحين والحين
فيجلدها، يزعق بها، يذكرها أنها غدرت، فتلقنه أن الحب يمحو على
الذنوب فيغفرها جميعاً.

ابنته الصغيرة رفيدة هي الآن سلواه، من أجلها يحب الحياة، من
أجل عينيها البريئتين يتسم.

رفيدة هي زهرة البيت، عطر النهار، ونسيم الليل، على شبه ملامح
يذاها هو بعينه تشبه صافيناز.

مرة سأل وداد: فيها شبه من صافيناز يا أمي.

دبت صدرها بيدها وكمتمه باليد الأخرى: اسكت.. اسكت يا
مُهاب إيه اللي بتقوله ده يا حبيبي، البنت شبه أمها، رفيدة زي القمر..
شبه رباب وشبهك كمان.



من جديد يهوي قلب مهاب على أرقامها تصعق شاشة هاتفه،
تدبها.. صارخة فيه ليرد.

أصابعه تقترب من زر الرد، وضميره يدفع الهاتف بعيداً، يضعه
على طرف مقعده، يتجول هو في صالة الاستقبال التي يعمل بها،
يتلهى عنه.. يسمعه، فيسد أذنيه بأصوات الموسيقى التي تملأ في أرجاء
الفندق، ينتبه لها فيشعر بهدوئها مُحاولاً أن يتند.

الآن تُحاول العودة له، الآن أرقامها تترجى صوته الذي أوحشها،
والآن لم يعد هو ملك لنفسه.

هو الآن زوجاً للرباب التي اختارها بعقله مُنفلتاً إليها من ألم جرحه
الذي لم يندمل.

هو يحدث غيبتها، يخبرها أنها لم تعد أميرته، وأن قلبه لم يعد
ملكاً لها، والحقيقة هو وحده يعرفها، هو وحده يعلنها في بهو قلبه
الذي أصبح فارغاً من يوم أن هجرته، من يوم أن غدرت به صافيناز.
اليوم تعود بعد أن فات الأوان، اليوم تعود بعد أن أتت رفيده ابنته
من رحم امرأة غيرها، نطفة منه هو، يحنو عليها بأبوته ومن أجلها
يسعى لشقاء الرزق.

ماذا إذن تريد منه، هو لا يحتمل أية اضطرابات تزلزل حياته!
صافيناز الآن في عصمة رجلٍ غيره، وهو لا يطأ بقدميه طرقات الخيانة.

فليمضِ إذاً في طريقه رافضاً عودتها، وليزل على وفائه لرباب حتى
ولو كان قلبه ملغاً لطيف صافيناز.

أصوات صراخه ترتد في أصداء نفسه: أتذكر يوم أن باعتك بثمان
بخس لتكسب عزاً وثراء.

الآن عرفت أن عزّها الحقيقي كان في أحضاني، سحراً لغباوات
امرأة، سحراً لأوانٍ فات.



المسبحة الخشبية ذات التسع وتسعين حبة أصبحت لا تُفارق يدها،
عينها شاردتان في مدى بعيد، شفتاها تُتمتمان بكلماتٍ غير مسموعة،
ربما تُسبح باسم الله، أو ربما تُنادي أرواحًا بعيدة هي على وصلٍ معها.
المهم أنها لبست لباسًا مُزخرفًا بالتقوى.. أصبحت تأمر بالمعروف
وتنهى عن المنكر، ومن يُخالفهما آثم.

رفعت اللوحات المُعلقة على حوائط حجرتها، فالأفضل منها الآن
السور القرآنية والأدعية والأذكار لأنها تجلب الملائكة وتطرّد الأرواح
الشريرة.. هكذا هي تعتقد، ربما لأنها لا تعلم أن حروف القرآن ليست
مُجرد أبجديات تُعلق على الحوائط، ولكنها معاني سامية تسكن القلوب
فتملأها بإيمان يصدقّه الإخلاص في الأعمال، وربما لأنها لم تذق يومًا
معنى الروعة في إحساس مُرهف يسمو فوق الأشكال والتعليقات، وربما
أيضًا لأنها لم تدرك أن الملائكة ليست كائنات للجلب ولا الأرواح
الشريرة تنطرّد بِمُعلقاتٍ على الحوائط، وربما لأن ليس كل ذلك ما
يهمها، فهمها الحقيقي أن تصبح الشیخة انتصار.. وأم يعلن لها شیخها
يومًا عن مقام وصلت له.

هي الآن أصبحت بوقًا ينفخ فيه الشيخ فينتفخ بهواءٍ كاذب، يصدر
أصواتًا فقاعية، شعارات دينية لمذهب أو طريقة، هي الآن من أصحاب
الطريقة، وفي الطريق يتنافس المتنافسون، على المقامات يتناحرون.

أصبح لانتصارٍ هدف سامي هو الوصول للمقام الأعلى، لأبْد أن
تصل بسرعة، فعليها أن تسرع الخطوات، لترتقي المقامات.

وداد على حيرةٍ من أمرها.. الأفكار تُراودها عن حال انتصار
ولكنها لا تجد ما يشين، فهي لا تراها تفعل سوى ذكر الله، والسير في
الطريق إليه.

كثيراً ما تُحاول انتصار إقناعها بذلك، تُؤكد لها أنها تُكرس وقتها
للطاعات.. فبماذا إذاً تتهمها وداد؟!

طبيتها لا تسمح لها بإدراك الورايات في عالم انتصار.. فهي لا
تعرف دهاليز هذا الطريق.



يُراوده في أحلامه.. أشعث الرأس.. مُتهدلاً.. بنفس الخطي يُتابع
خطواته، يشغره من أغوار حاجبين كثيفين وجبين مُقطب.. بنظرة حادة
تنفك شفرة صمته، فيعرف أنه يُناديه لطريقه.

يخلع واحدة من المسابح الخشبية الطويلة المُتسخة التي تلف رقبتة
فيلفها حول عنقه، يطيل النظر إليه من جديد برسائل تمتد بينها في ذات
الصمت العميق، يمد مُهاب أصابعه مُحاولاً أن يتحسسه فلا يجد سوى
الفراغ.. يأخذه لهاوية عميقة تسقط فيها روحه فيقوم من نومه مفزوعاً على
ضربات قلبه تزداد وأنفاسه تتقطع، علامات استفهام في رأسه لا تنتهي.

من هموم أُنقلته، ومن حبه الضائع بين يديه، قرر أن يهرب لعالم
انتصار.. ذلك العالم الذي راحت تُحدثه عنه فأصبح يأتيه في المنامات.

ظن أنه الطريق إلى الله، أنه الطريق للخلاص، فالزهد في الدنيا ربما
ينسيه ملذاتها ويأخذه لملذات الآخرة، فليصحبها إذًا في ذلك الطريق
وليكن لها نعم الرفيق.

الآن يرضى أن يُطاوعها، الآن عقله يتجرجر نحوها هارباً من
المنطق، المنطق الذي جعل كل حياته في مُنعطفات ذنبٍ واحد لم
يقترفه قصداً.

هو الآن يُمكن له أن يقتنع بكل ما تمليه انتصار عليه، فليسمع..
ولينصاع، ليتشكل على شاكلة جديدة تنأى به عن كل هذه الأوجاع.

الهروب أصبح مأواه الوحيد، فخطاه أصبحت على الأرض بين ندبة
وندبة لا تستقيم، فلعله عندها تستقر خطاه، بهذا حدثه نفسه التائه.

الآن هو في حضرتها يتلقى العهد، يتربع أمامها.. يُردد ما تلقنه، يقسم على طاعتها والتسليم لها، وأن يحفظ ذلك العهد بالطاعات التي يُؤذن له بها، فالإذن فيما ينطق أو يتصرف بأمرها هي، هذا من أدب المريد مع الشيخ.

عليه أن يأخذ البركة منها هي فلا غيرها سيسلمه إلى الجنات، طريق الجنة محفوف بطاعة المريد للشيخ، هي وحدها تريد له الخير، ومن الإنس حوله شياطين يريدون له الهلاك فليحذر.

أحضرت زجاجة ماء بمنقوع من أعشاب أخبرته أنها أعشاب لها في أصول السنة أسرار - هكذا تقول - فعليه أن يتناول منها شربة ليمتلئ بالبركات، سبقت برشفة لتحل بركة سؤرها.

المبخرة بجانبها كانت جاهزة لتشعلها فتفوح الأدخنة بروائح تبعقه، تسكن لاوعي بداخله لتصبح ذاكرته الخفية، فكلما شم هذه الرائحة يتذكر العهد.. فلا يتنصل، كلما شم تلك الرائحة يزداد تشبثاً بالطريق إليها ومعها وبصحبتها.

أحوال مُهاب أصبحت على غرابة.. صمته يطول، عيناه تروحان نحو شرود.. أوقاته يقضيها على وحدة في غرفته، حتى زيارته لوداد أصبحت بمذاق مُختلف.. لم يعد يُبادلها اطراف الحديث.. لم يعد يسألها عن أحوالها.. أقصى ما يفعله أن يُجهز لها الطعام ويضعه أمامها.. ثم يقضي وقته ساكناً.. يعود ويسألها لو أن شيئاً تحتاجه ثم

ينصرف عائداً لبيته، لم يعد حتى يُحدثها عن رفيده صغيرته التي كانت تُداعب أحلامه على مرأى ومسمع من الجميع.. لم يعد يُحدثها عن رباب.. ولا حتى عن ذكرى صافيناز.

يوماً كان يزورها.. فطرقت حنين الباب، همت وداد لتفتح فسبقها.. وفتح هو، ألقت حنين السلام فردده بنظرة غاضبة: إيه اللي انتِ عامله ده يا حنين؟ سكتت.. لم تفهم.

واصل حديثه: ده مش زي شرعي.. ارجعي لدينك، ربنا يهديك.

وداد تعرف طبع حنين العنيد.. قاطعته: خلاص يا بني خليك في حالك. ادخلي يا حنين.

ثارت حنين: حاله.. حاله، ما بقاش يسر يا ماما، حاله اتقلب من يوم ما بتك جر جرتة للسكة دي.

غضب: بس يا حنين هتخسريني.. انت ما تعرفيش حاجة، اختك انتصار في منزلة عالية، في مقام انتِ ما توصليش له.

انصرف بلا استئذان.. وتركهما على حيرةٍ امرهما، لا يدريان كيف ينقذانه من برائنها.



الناس على شاكلتهم كل في حضرته يهيم، بشرٌ مختلفون تسوقهم
البلدان حتى عنده.

غرف الفندق بالنسبة له لم تكن مجرد أماكن يسكنها النُزلاء، هي
خرائط بشرية يتعرف على متاهاتها فيرتاد الأماكن البعيدة من نفس
كرسيه.

من بين كل الوجوه يبحث عن وجهها، يتمنى لو يُصادفها القدر به
من جديد، يسأل نفسه: ماذا لو أن ذلك حدث؟!

يعود لارتباكاته بحثه عنها، يُؤجل الإجابة لأجل غير مُسمى، كل
ما يعرفه أنها أوحشته، أنها لا زالت تسكنه رغم كل ما كان، أن قلبه لم
يزل غرفة لم يطأها إلا نزيل واحد، غاب عنها الآن.

هو في حضرة ذكرياتها مريد، يطوف بجسده الأماكن وروحه هناك
عندها مُتعلقة بها.

ودَّ لو يتخلص منها، لو ينتزعها، لكنها بأرضه انغrust، فاجتثت
من فوقها، وبقيت الجذور في أعماقها.

هو بين يتأرجح، يروح تارة لعالم انتصار حيث يجد مهربه،
وتارة يعود لعوالم الحانة يتأمل دهاليزها، يُفكر في حياةٍ على عجبٍ
تتوزع فيها الأرزاق بحكمه لا يعلمها إلا الله.

أغنياء يدوسون الأموال تحت أقدام راقصة في سردابٍ تحت الأرض.. وفقراء فوقها يقبضون على اعراضهم بقبضةٍ من نار، يُقاومون السقوط في الهاوية من أثر العوز والحاجة.

يعود بدماغه لصافيناز التي تركته من أجل حفنة نقود ويفيق على رنة هاتف من انتصار تملي عليه عدد الأذكار المسموح له بها هذه الليلة.



تنفث في أذنيه.. فتسري الأفكار بين دمائه تمتزج به فيصبح كيئاً
جديداً مُتوحداً بها.

تخبره بأول التعليمات: هي الشيخ وهو المريد.. يفتح عينيه،
يستقبل طاقتها المندفعة من مسام جسدها لتسري جسده، ينصت..
تُواصل: على المريد أن يطيع الشيخ، يُنفذ أوامره، فهو طريقه الوحيد
للجنة.

الجنة.. ذلك الحلم الأبدي والعشق السرمدى للطيبين، ونفس
الحلم هو ذلك التجارة الرائجة للمداهنين والمدّعين.

الولاية.. الخيط الأول للوصول، فأولياء الله لا خوف عليهم ولا
يحزنون، هم للجنة يصلون، بالكرامات مُختصّون.

لعابه يسيل، وعقله يبدأ في التجمد إلا عن صوتها، همست: اسمع
كلامي وهتشوف الفتح المبين، هتبقى ولي.. وهتضمن الجنة.

يا لها من فكرة مُغرية، ويا له من طيب ساذج، أمّا هي.. فتواصل الخطوات
معه ليسير على نفس الدرب الذي انغمست فيه، ولا سبيل للعودة منه.

من ثقبٍ ضيق دخلت لهذا العالم، يوم أن نفث الشيخ الدجال في
أذنيه أول أوامره، فانطلقت ثم راحت بينهم تشرب ماءهم المنقوع،
وتُردد أوراذهم وتعاويزهم، تطوي أوراقهم المنسوخة بآياتٍ وطلاسم.

ليس لها أن تخرج من نفس الثقب وتعود لعالمها، أصبح ذلك الثقب لا يكفيها لتخرج، وأصبح ليس هناك مخرج.

إذن كيف تمضي وحيدة في تلك الحيرة! لا تعرف للخروج سبيلاً، كيف تذوق وحدها طعم هذه الفجيعة، فجيعة الحبس إذا لم تستطع الخروج، فليدخل إليه المريدون من نفس الثقب الضيق الذي أصبح لا يسعها، من نقطة ضعف.. من أية نقطة ضعف ينفرج الثقب للمريد.

من ثقب عقل ساذج أو من ثقب جرح لم يندمل بعد، أو من هوس الوصول يوماً لمشيخة تمنح سلطة.

الجنة هي العنوان، وثقوب الضعف كثيرة.. وطريق العودة صعب.. صعب.

هو بين يديها الآن يمر من الثقب إليها حيث يصير الأسر، تلقنه التعليمات: الطريق إلى الله مرهون بالطاعة، وطاعة المريد هي أساس الطاعات؛ فالشيخ هو صوت الله على الأرض.

عليه الآن أن يتلقى الأمر، هو في حضرتها مريد.. يسمع ثم يعيد، ليس شرطاً أن يفكر، ليس له أن يسأل عن أسباب ما يجهل، عليه فقط أن يُنفذ الأمر؛ فالشيخ هو الأعلم بالصالح، لا بُد أن يثق به ثقة عمياء.

لكل شيخ طريقة، فبعض الشيوخ تتسم مع مريديها باللين، تلزمهم بأورادٍ قليلة وقراءات ليست كثيرة.

أخبرته منذ البداية أنها شيخه الحازم، وأنها ربما تثقل عليه
الطلبات، ولكن ذلك لمصلحته.

نعم لمصلحته؛ حتى يمر في الطريق إلى الولاية أسرع، وليتذكر أن
الولاية هي الطريق إلى الجنة.. إلى ماذا؟! إلى الجنة.

عقله ينسحب، وحديثها مكانه يستقر ويثبت، يترسخ في رأسه التي
أصبحت منبأً لأفكارٍ أملتها عليه فضربت بجذورها لقاع عينيه وعند
فواصل عظامه، كل ذلك لتصبح حركاته بإذنها هي، وإلا أصبح مريدًا
عاصيًا.

هو يُواصل الاستماع ولا يفكر، واجب اليوم تُحدده: ذكر الله مئة
مرة، والاستغفار مئة، أما التسبيح فمئة وعشرون، ماذا؟! مئة وعشرون،
لو زاد عن ذلك العدد فقد خالف إذن المريد، لم تأذن له إلا بذلك
العدد، بلا نقصان أو زيادة، وإلا حلَّ عليه الغضب وتأخَّر الفتح المُبين.



انتصار كثر مريدوها، أصبحوا يجري لهم الريق، فلها الآن أن تستثمر الفرص، المنافذ كثيرة، والعقول بين يديها مُغَيَّبة مُضللة.

الإعلان في حضرته اليوم عن أمر هام، انتبه المريدون للأمر: الذبائح والنذور طريق للتقرب، ازهدوا الحياة.. قدموا ما بين أيديكم صدقة، الدنيا فانية ومتاعها زائل.

صيتها لأبد أن ينتشر في البلاد، فهي أدري بأحوال العباد، كلما عرفتھا الأماكن اتسعت لها النفوس، عليها إذن أن تشتري باللحم والطعام عقولاً ونفوساً، فمن أين لها أن تفعل ذلك؟! من جيوب مريديها، فجيها.. لا جيب لها هي، هي أولى بمالها للزمن تدخره، فالقرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود، وكم من الأيام السوداء تنتظر ولكن الغيب يحجب.

ظنته تبدى لها، ولم تدرك أنها على أنصاف عمى، فالمجهول أكثر مما تعلمه، والغيوب وراء أوهامها أكثر من زيف علومها.

الدور إذن اليوم على واحدة من المريدين لتصدق، فالأمر جاء بأن الجمعة القادمة لأبد من ذبيحة في قرية قريبة يعرفها الجميع، لم تكن المأمورة تمتلك ثمن بقرة عوان لا شية فيها، ولكنها حفظت أن الأمر سيف قاطع التنفيذ ليس للمناقشة.

عليها إذن أن تبيع ما تملك من سوار من الذهب، وبثمنه تشتري ذبيح يوزعونه على الفقراء هناك، فبذلك سيذيع صيت الشبيخة ومريديها.

عن طوعٍ خلعت المأمورة سوارها الذهبي وأعطته للشيخة انتصار
عن طيب خاطر فوضعتة في جيبها، ودعت لها بالعوض من الله، وعدتها
أنها قريباً جداً ستصبح من الأولياء، فانتشت وبذلك اكتفت.



وداد في حضرة يونس.. روحه تُهفّف حولها، تُؤنسها.. تشد أزرها
تطمئنّها أن الله معها، وأن الصعاب ستهون.

تشكو له حال مُهاب الذي أصبح على حيرة.. تطلب منه أن يشفع
عند الله لحنين التي أصبحت وحيدة في الحياة.. تحكي له عن انتصار
التي توغلت فأصبح أسرها صعب عليها فهمه.

تجوب أنحاء البيت تتحسس الجدران الصامته، تشعر أنفاس
يونس ترقد على السرير فتأخذها إليه عفو، يأتيها في أحلامها ضاحكًا
مُسْتَبْشِرًا.. نفس ضحكته الباشة التي تمحو الهم وتُبدله فرحًا.. برؤيته
تهدأ أنفاسها، تعلم أن خيرًا سيأتي إليها، فعليها أن تصبر، ولكن الصبر
أوشك أن ينفذ.

فتحت عينيها على طرقات الباب، هي تعرف طريقة حنين: أيوه..
أيوه يا حنين قايمّة اصبري، وحنين تواصل الطرقات.

طبعت حنين على جبينها قبلة: ازيك يا ست الكل؟

ردت: الحمد لله.. والنبي صحتيني من أحلى حلم، كنت مع أبوك
الله يرحمه.

تنهدت حنين: الله يرحمه ويحسن إليه.. خير يا ماما.. خير إن شاء الله.

لمحت حنين على الكومود بجانبها خيوطًا وبقايا أقمشة وقطع من
القطن.. ابتسمت: إيه ده؟ بتعملي إيه؟ عروسة تاني؟

ابتسمت و داد: آه.. بعمل عروسة لرفيدة.

قبلتها: طب وأنا عايزه عروسة.

ضحكت: من عيني يا حبيبتى.. هعملك أحلى عروسة.

أكدت: بجد يا ماما؟ أنا عايزه عروسة تعمليها لي بأيدك.

- حاضر.. يا للا بس نجهز لقمة.



حلقة الذكر تسبق إتمام الذبح النذر المُتفق عليه، ليس لأحد أن يخرج عنه وإلا فيكون قد خالف الإذن الذي تلقته الشيخة ولقنتهم إياه، على الجميع أن يُرددوا، وبالعدد هم ملتزمين لا يُخالفون الأمر.

هي على رأس دائرة من النسوة ذوات العباءات السوداء والمسابع الخشبية تلقي الأذكار وهم يُرددون، تتشابك أيديهن في حلقة واحدة.. وأدمغتهم تهتز على نفس الكلمات في نفس واحد.

مُهاب على الجانب الآخر يستعد ليذبح البقرة بنفسه، معه رجلين من المريدين.

انصاعت رقبة البقرة تحت السكين لتسيل دماؤها، وبذلك تصبح نذرًا لآل البيت والأولياء الصالحين، مدد.. مدد.. مدد، مدد يا سيادنا مدد.

توافد الفقراء على بيت الشيخة انتصار، فالخبر ذاع كالدخان بأن عندها لحمة، وبكيس اللحمه يصبح أحد العقول مداسًا لقدميها الكريمتين، وصاحبًا لخطوتها العزيزة، وبما تبقى من ثمن الأسورة الذهب لصاحبة اللحم الحقيقية المأمورة بالذبيح، تصبح الشيخة انتصار أكثر مالا.

ظنًا منها بأن القرش الأبيض سينفعها في يوم أسود، لا تعلم أنه لا شيء سينفعها ولا شيء سيزيل سواد ذلك اليوم المُنتظر لا محالة، فالله يمهل.. لكنه لا يهمل.



مساء حنين في حضرة شيخ العاشقين جلال الدين الرومي وقواعده
الأربعون تتعلم فن الحب، تقرأ عن عشق الروح لا الجسد، تلتمس
خلوة الأرواح المتآلفة، تتعلم أن الجراح هي طريق النور لأجسادنا،
وأنها لأبد أن تكون على هدوئها وصفائها لتستمتع أكثر.

الرومي يُعلمها أن ترسل السلامات للأرواح الغائبة، فهي لا تحتاج
أن نجلبها لأنها تسمعنا هناك في عوالمها الخفية، وهي تُساعدنا لنقيم
بداخلنا ما أوشك أن ينهدم.

هي من هناك.. من عوالمها البعيدة يُمكنها حقاً أن ترسل لنا
السلامات، ويُمكنها أن تفهم ما لا تفهمه أجساد نعيش بجوارها مثل
السجناء، فمن يعرف الحب لا يموت، الرومي يُعلمها أن داخل كل
إنسان أشياء موجودة دون أن يعرف هو ذاته أنها موجودة.

هي في حضرة جلال الدين الرومي تقرأ الأحرف نورا، ففي قلب
كل واحد منا شمعة تنتظر من يضيئها، هكذا هي يؤكد لها عبر السطور
من بينها.

تتعلم قدسية الحب وروحانية العشق، فمن مات بالحب يحيا
أبداً، تتعلم أن الأجساد تُبلى، والأرواح تبقى طليقة حرة.

هي في حضرة ابن الرومي تتعلم كيف تبحث عن الجمال داخل
قلبها وليس حولها، هي معه تفهم معنى الحرية وتعرف أن الطائر الذي
يولد لا يعرف الفرق بين سجن القفص والهواء، يعرفه فقط بعد أن
يُحلق بجناحيه في الفضاء.

هي تهيم في عشق الله وتتأكد أن يومًا سيأخذها قلبها إليه، لذلك فهي لا يجب أن تستسلم للألم والأحزان، فربما يكون يومًا ذلك الألم هو الدواء.

طريق الله في قواعد وعشقه مفتوح، وأبوابه لا تنغلق أبدًا، الكل عند الله سواء، عبدًا كان أو عابر سبيل، الله يتقبل الجميع بأبواب رحمته الواسعة ونوافذه التي لا تنغلق.

الله هو المعشوق الحقيقي الذي يتلقانا في النهاية فاتحًا ألف باب، لا يهم أن تتحول إلى تراب في يوم ما، ما دام عشق الله يسكننا، فمن روح هذا التراب ستنبث الزهور.

لم تعد حنين تبحث عن السعادة، أدركت ان عليها فقط أن تجهز في قلبها مكانًا لاستقبال هذه السعادة التي لا محالة قادمة ما دام الله موجود.



انتصار معه على الهاتف تملي عليه الأوامر وهو يخطها بيده،
يكتبها بيده حتى لا ينساها حتى يعيها جيداً.

«كل من حولك شياطين يريدون لك الهلاك ويعدونك عن طريق
الجنة إلا أختك، فهي تحبك، وتأخذ بيدك لها».

يكتب.. ويهز رأسه مُقتنعاً، يشعر بأنفاس حوله، يتلفت فلا يرى
أحدًا.. ولا شيئاً، يحملق بعينه اللتين أحمرتا، ينظر من جديد عن
اليمين وعن الشمال فيرى خيالات تطير هنا وهناك، تُردد ما كتب،
تؤكد.. وتُباركه.

يمد ذراعه ليلمسها، فلا يجد سوى هواء، يتخبط تنكتم صرخاته
بداخله، تزداد عينيه اتساعاً وتضيق عليه دائرة من الهوام، من السراب.
يصبح في لا وعي، يعي ما يشعر.. أو هو بوعي تام يتأرجح في لا
وعي يركب رأسه، يغمض عينيه ساقطاً على الأرض ليهرب إلى خلسه
نوم، يعرف أنها ستسأله عن أحلامه.. وماذا رأى، عليه أن يدرك إذن
تلك الأحلام حتى لا يخطئ في حكيها بعد ذلك.

دخلت رباب.. نادته: مهاب.. مهاب، أنت نمت وأنت قاعد؟

لمسته، مهاب فتح عينيه يصرخ بها: عايزه آيه مني أنتِ شيطانة..
شيطانة، ابعدي عني.

أمسكت رأسها بيديها، جرت لخارج الحجرة وتركته.

رفيدة ترقبهما من الصالة، تتكور على نفسها صامتة تحبس صراخها.. وتصمت.

ورباب تضمها: ما تخافيش، ما تخافيش يا حبيبي.

دمعاتها تنهمر: هو بابا تعبان؟! هو أنت شيطانة؟! ازاي! أنت ماما.. أهو.

يسود صمت مُفاجئ، هو يعود لغفلته، يرصد أحلامه جيدًا فهو بالأحلام أصبح مُكلفًا، وبعوالم يروح إليها في أحلامه يتشكل عالمًا جديدًا في عالم الواصلين.. العارفين، عالم أهل الخطوة وأصحاب الكرامات بحسب ما ذكرت له انتصار.



مهاب في حضرتها طالب مريد، في خطواته الأولى نحو طريق الله، بهذا تلقنه ثلقنه أن الطريق إلى الله على أطراف أناملها، في أسرار هي تعلمها وسوف تعلمه أن أطاع.

تؤكد له أن مفاتيح الجنة مضمونه للعارفين فينتبه، يفتح عينيه كالمشتاقين للفردوس، لكنها لا تطفئ شوقه، تدعه حائرًا ليظل إليها عائدًا ولها مؤليًا.

حكى له عن الأولياء، ووعدته أن يكون وليًا إن استطاع على الدرب صبرًا، عن الغيب تحدثه فيصدق ما لا يرى، تعده أنه غداً سيرى.. ويرى، عندما يصبح وليًا له كرامات، يرى ما لا يراه الآخرون. فالأولياء كما أخبرته هم الواصلون، وفي عالم الأرواح يغرقون ثم يعودون بغيب ينكشف لهم، لهم هم فقط.

المقامات كثيرة، ومن يصبر يرتقي، والنصيحة أن يكون وفيًا لا يخون العهد الذي عليه بايعها.

هو الآن تحت قدميها كطفل ليس له حيلة، أصبح قليل الحيلة إلا منها، هي حيلته الوحيدة، بأوامرها يأتمر راضيًا.. ولحضرتها وفيًا.

رن الهاتف.. رفعت حنين السماعه: أهلاً رباب!

- أنا خلاص يا حنين مش قادرة شوفوا حل لأخوكو.

- أهدي يا رباب.. ربنا هيحلها إن شاء الله.

- كل وقته بقى أُختك.. ماعرفش بيروح فين، وإيه الحضرة دي اللي بتاخده معاه فيها كل يوم في بلد؟!
 - إهدي يا رباب أنا هتكلم معاه.
- كل حاجة بقت بإذنها.. النوم، الأكل، والشرب كمان بإذنها، أُختك سيطرت عليه، يقول إنها شيختي ولازم اسمع كلامها.
 - مش ممكن الحال وصل لكده.
- أيوه كل يوم عاملاله حجاب يحطه تحت راسه، وميه بأعشاب غريبة يشرب منها.. وبخور.
 - مهاب.. مهاب بيمشي ورا الأحجية والبخور.
- أنا خلاص مش قادرة أعيش معاه بالحال ده، حتى مُعاملته معايا بقت بأوامرها هي.
 - أصبري.. أصبري يا رباب عشان خاطر رفيده.



فاض الكيل بصافيناز، ملت غيابه عنها، ملت رائحة الخمر التي
تفوح من فمه عائداً في أنصاف الليالي بنصف وعي.

هو في صباح يرتمي بجوارها على السرير، بجسدٍ غاب عنها طوال
الليل، وهي كالمجنونة تدبه بيديها غير مُكترثة، تصرخ: قوم.. قوم
طلقني حالاً، خلاص مش عايزاك، مش عايزة فلوسك.

قام مفزوعاً يفرك عينيه المُتفختين: إيه.. في إيه، اتجننت؟!
أمسكت بيديها رقبتة: أيوه اتجننت، طلقني.

دفعها، مشي خطوات بعيداً عنها: إهدي.. إهدي يا بنت الحلال.

ذهب إلى الحمام، ثم عاد إليها، حاول استرضائها لتكف عن
تصديق رأسه: أنتِ ناقصك حاجة!! أنا عايش عشان أسعدك.

برقته بعينيها المفزوعتين: ناقصني راجل يا زيدان، أنت مش
عايش معايا، أنت عايش للسكر والعربدة وصفقاتك اللي ماعرفش
عنها حاجة.

زاغ عنها بعينه: إهدي يا صافيناز، أوعدك كل شيء هيبقى كويس.

راح يُواصل ارتداء ملابس: لما ارجع هتفاهم.

صاحت: عمرنا ما هتفاهم.

ربتها: أوعدك.

رفضت: مش أول ولا عاشر وعد، عايزه اتطلق يا زيدان.

ضمها، هحجز حجرة في فندق، ونقضي شهر العسل من جديد،
وبعدها لو عايزه تطلقي هطلقك يا صافيناز.

التقطت أنفاسها على عدم ثقةٍ، رقدت على السرير صامتة، ورحل
هو إلى حيث يدري ولا تدري هي.



حضرتهم اليوم في زقاق من الأزقة الخفية بحيّ من الأحياء الشعبية، صاحب البيت اسمه المعلم «كومي» صاحب القهوة، مشاريب الحضرة عليه هذه الليلة، والعشاء على رفيقه في حلقة الذكر، المعلم حوده صاحب «عربية الكشري» التي ذاع صيتها.

المريدون في هذا الحي يتزايدون يومًا بعد يوم، يخبرون بعضهم بعضًا بالشيخة انتصار وأنها «ست بتاعة ربنا وطريها عالجنة حدف».

إنها تبذل الكثير من وقتها لله تعالى من أجل إرشادهم والأخذ بيدهم لطريق الله، من يطيعها سيصبح وليًا من الأولياء وسيرى بعينه ما لا يراه الآخرون، الكرامات.. الكرامات، من يلتزم بالتعاليم سيرتقي سلمات الولاية أكثر سرعة.

الشيخة انتصار على وشك الوصول، والمكان جاهز للحضرة، الأكلمة تفرش الأرض، الساترين الرجال والنساء انسدل، الأعشاب المطلوبة والماورد، البخور والمبخرة وصينية العشاء قبل كل ذلك، فجسد الذاكرين يحتاج للقوة.

الليل يمر، ودائرة الحضرة يسمع بها المارون فيخرجون للمعرفة، ثم ينضمون للطريق، الحاضر يعلم الغائب، والمريدون يتزايدون، وصيت الشيخة انتصار أصبح مشهورًا.

رن هاتف مهاب.. رد مُسرعًا: أنا مشغول يا رباب مترنّش عليا تاني.. أغلق الهاتف.

عاد لحضرته بين المريدين يتحلّقون بأياديهم يترنّحون بأجسادهم على أذكارٍ أمرتهم بها الشيخة انتصار.

زيدان المصري في حضرة صفقة جديدة، عنوان الفيلا في طريق
صحراوي على الأطراف، الجو هُناك صامتًا، لا شيء غير عوي ذئاب
فوق أعالي الجبال البعيدة، وصفير رياح الليل هو المأوى الوحيد
لمواعيدهم المربية.

تعرجات الطُرق تأخذ عجل عربته إلى مُنحدرات هو يعرفها لأنه تردد
على المكان، فليست هذه هي الصفقة الأولى التي يُزايد على مكسبها.

مساحة الفيلا شاسعة، البوابة الحديدية تنغلق على سور دائري
يلتف حولها حيث تمشي خطواته الآن نحو الباب الخشبي في الداخل.
رن الجرس، فتح له نفس الخادم الذي اعتاد أن يستقبله: أهلاً..
أهلاً زيدان بيه، الباشا في انتظارك.

الأضواء خافتة على جدارٍ يُؤدي إلى البدروم حيث ينتظره الباشا
على حسب ما لقبوه، وحوله الأعوان الذين يديرون له الصفقات.
مائدة كبيرة عليها صنوف من الطعام، وعلى جانبها مائدة أُخرى
يتراص فوقها زجاجات خمور من أنواعٍ غالية الثمن، وأطباق المزة.
كانوا يُواصلون القهقهات على أثر نكتة أو ربما حكاية طريفة
حكاها أحدهم.

تقدم زيدان، ألقى التحية، جلس بجوار حميد يلتقط أنفاسه: إيه
الأخبار؟!

رد مازحًا: الأخبار عندك.. جاهز؟!

- المبلغ اللي أنت طالبه كبير.

- الصنف المرة دي يستاهل.

دب يده في جيبه أخرج علبة صغيرة بحجم عملة مُستديرة، فتحها.. ولمس بما في داخلها أصبعه ومسح على ظهر كفه الأيسر، ثم مده لأنف زيدان، لكنه دفعه بسرعة انزاح للوراء: ما قولنا كده لا، أنا بس موصلاتي يا باشا.. موصلاتي.

قطعت حديثهما ديدي حين خرجت من غرفة على يمين الباشا، جسدها العاري لا يواريه قميص أسود من النوع الشفاف يكشف عن بياض جسدها، نهذاها المُنتفخان على استدارةٍ تحررا من حاملهما، ساقيهما الملفوفتان ينكشfan من فتحتين طويلتان على جانبي القميص، شعرها ينسدل هاربًا من قيود الحياء فيزيد عينيها الشبقتين بجاجة تعجب شاكلة الباشا.

مالت عليه، غاب على شفتيها في قبلةٍ تستعد بها لرقصٍ شرقي يُطغى الأنس على ليلتهم الطويلة في ذلك المكان المُقفر.

الأنغام على اهتزازات خصرها تعلو، والمزة تحلو.. والليل يطول.



اليوم مهاب معها في حضرة، كما أخبرته الحضرة سلمة من
سلمات الفتح المبين، ماذا؟! الفتح المبين.

الحضرة حددت هي مكانها في بيتٍ داخل قرية ينتمي إليها واحد
من مريديها أمرته أن يخلي به حجرة خاصة لإقامة الحضرات به،
وأخبرته أن أجر ذلك عظيم، وأن الخير سيلحق به والبركة ستسكن
المكان، وأهله.. وأهله، وأن استمرار الحضرات في المكان يجعله بعد
ذلك مبروكًا، وربما أصبح يومًا مقامًا لضريح يرتاده الناس للتبرك.

يا لها من فكرة تثير الإعجاب، أي فخر للشخص أن يصبح مكان
بيته ضريحًا، يُذكر فيه اسمه، وهل صاحب البيت هذا أقل شأنًا عند الله
من سيدي أبي مسلم أو سيدي المغربي أو غيرهم من الأسياد؟! الأمر
بسيط قَبَّة خضراء ولافتة، الأمر فقط يستدعي ميرًا من ذاكرة المكان،
فإذا توالى الحضرات والذكر وعُرفَ عن صاحب البيت الصلاح
لن يتردد أهل القرية بعد ذلك في إقامة الضريح، قَبَّة خضراء، ولافتة
بسيطة، الأمر بسيط.

هو معها في الطريق لهُناك، والكثيرون على موعد للتجمع، الحضرة
في بيت واحد من مشايخ إحدى القرى، الطريق لهُناك ليس يسيرًا؛
فالقرية غير معروفة، والمواصلات إليها ليست سهلة، لكن المشقة في
طريق الله تهون.

البركة هُناك، وهم ذاهبون إليها، بهذا اقنعت رأسه فهانت عليه
الخُطى، شعر أن الطريق ينطوي تحت قدميه وتعجب كيف كان بهذا
اليُسْر، كأن الأرض تحملهم راضية عنهم كرامةً لربها.

أو كأن معهم جنود ترسلهم للسماء يخفون المصاعب، نعم..
جنود من السماء، كيف كان سينسى ذلك! إنها القاعدة الذهبية في
قناعات المريد بشيخه.

وصلوا بالسلامة، كان صاحب البيت على شوق الانتظار للشيخة
انتصار، فهي مُتتهى الأمل وخطوتها عزيزة، مداسها بركة ومسحتها
بركة ونظرتها سهم من سهام الجنة.

المندرة اتسعت لقدمهم، فرشها بالحصير، وأمر أهل البيت أن يعدوا
الطعام والشراب، فوجب الضيافة من لزوم الحضرة قبل البدء بها، امتدت
الموائد.. وسال لعاب انتصار، فالطريق شاق.. وشهيتها مفتوحة.

شمرت كمها الواسع: يلا يا جماعة بسم الله، الغروب مقرب، وأول
الليل حضرنا، شجت البطة من تكتيفتها، فانتهدت من آخر عظامها.

ناولها صاحب البيت زوجًا من الحمام، أقسم عليها أن تأكله،
فالحضرة تقتضي نفسًا قويًا، أكلته فقط حتى لا يقع يمين الحاج.

انتهى الجميع من طعامهم ثم التفوا في دائرة استعدادًا للذكر، على
رأسهم كانت الشيخة انتصار.

ذكرتهم بالورد المأذون به وبالاسم المُحدد من أسماء الله الله الحُسنى التي أقيمت الحضرة عليه، ليس لواحد فيهم أن يُخالف، وليس لغير ذلك الاسم المُحدد أن يُذكر على طرف لسان.

بدأت بأول الأذكار، راحوا يُرددون وبالعدد يلتزمون، راحوا في المُتفق عليه يهيمون فتعلوا أصواتهم، ويتمايلون عن اليمين وعن اليسار.

الأصوات تعلو، والتمايل يزيد وهي حولهم تلف بالمبخرة، البخور يعبق المكان، الرائحة تفوح.. وأصواتهم تعلو، وحركاتهم تصبح أكثر سرعة.

بعضهم يسقط على الأرض مُنهكًا مواصلاً ما يُرددونه، وأحيانًا يقع الواحد منهم مُتمددًا، غائبًا عن الوعي، فتهز انتصار رأسها وتشير لمُعاونيها: هاتوه على جنب هنا، مسكين الوجد زاد في قلبه والجنود تقلوا عليه، هاتوه لما اقرا عليه عشان يفوق.



تتأبط ذراعه، تخطو لصالة الاستقبال بالفندق، تهوي من فرحة
الوعد بشهر عسلٍ جديدٍ لأحزانٍ غيابه، الآن تتصدع بداخلها على خبر
عودته.

أمامها من جديد وجه مهاب، تتأمل تفاصيله على وهلتها الأولى،
تمسك نفسها على السقوط في أحضانه رغماً عنه، قدماها مُرتبكتان على
خُطا كادت تنشل عن الحركة، أحقاً صالحتها الأقدار، فأعادت إليها
حضرته؟!

هي تتفحصه، وهو يغض الطرف عنها مُحاولاً إخفاء ما بداخله
من زلزال، لا يُصدق عينيه.

هي.. هي صافيناز، لا يتوه عنها مُهاب حتى ولو تغيرت، أصبحت
على شاكلة الهوانم، عطرها يفوح.. الفراء يلف كتفيها فينسدل بين
الحين والحين ليكشف عن عريهما، فيبدو له ملمسهما الذي أحسه
يوماً وهو يضع خده فوقه كالطفل، يتشمم نعومته برائحة الحب.

ماذا تريد الآن؟! ولماذا جاءت من جديد! سحراً لتعب القلوب،
سحراً لسخریات الأقدار التي أتت له بشبه صورتها التي لا تُؤاري
غيرها.

ليست هي الآن صافيناز، راحت براءة وجهها، وصلت الهموم فوق
وجهها، ابتسامتها لم تعد صافية، وعيانها لم تعودا على نفس البراءة.

أفاق من غفوة المفاجأة، تناول مفتاح الغرفة التي سبق حجزها:
أتفضل زيدان بيه، أشار لعامل الاستقبال أن يرفع لهما الحقائب
ويوصلها للغرفة.

خطواتها نحو السلم تدب أرض قلبه الذي أصبح منبوشاً بها، هي
تمضي للأمام، تختلس من خلفها النظر إليه.. زائغة.

ألف سؤال يتخيط، ولا إجابة واحدة منه، هي تمضي للأمام عائدة
إليه من جديد، تشكر الأقدار التي يُعاتبها هو، تسألها لماذا تأخرت ولم
تعد بمهاب إليها من قبل! وهو يسألها لماذا تُعاندته فتضعها في طريقه
من جديد!

هي الآن لا تريد من زيدان شيئاً، لن تبحث عنه في حُطام رجلٍ تائه،
لن تطلب منه أن يرضيها، هي بلقاء مُهاب الآن راضية.

وصلت الغرفة صامته، اقترب منها زيدان، يضمها ل صدره مُحاولاً
الوفاء بالوعد: هنقضي أحلى أيام غسل.

انفلتت منه، راحت نحو الشباك، أصبحت توجهه بظهرها، تواصل
التفكير بمهاب، الآن أصبح على بُعد خطوات منها، الآن حتى لو رحت
عنه، فقد عرفت طريق العودة إليه.

سألها زيدان: لسه زعلانه؟!

ودت لو تخبره إنها حقاً فرحانه، لكن فرحتها بمهاب سر السماء،
فرحتها بأقدار الخلاص أتت لعندها، أتت لها بمهاب.

تنهدت، راوغته: هغير هدومي وارتاح، وبكره نتكلم.

رقدت في سريرها تأبى السكن إليه، جسدها الآن يلفظه، لا يأنس
لغير مهاب الذي حرك نارا لم تهدأ تحت رماد انتظارها له.

هو يتلصص بيديه جسدها المفعم بصهد الرغبة لمهَاب، كلها
تصرخ فعشقها ليس له.

هو يوقد أنين شوقها، ولا يدري أنها لا ترغبه هو، يُداعب مكامنهما،
وتأوهاتهما تبوح بالشوق لمهَاب.

تروح في غنج صحبته هو لا غيره، تتحسس طرقات جسده، هو
على غيبة زيدان من أحضانها التي تأويه ولا تأوي إليه.

كادت أن تخطئ بحروف اسمه فتتطق باسم مهَاب وهي تصرخ
به أن يزيدا عشقا، يزيدا لهيبا، كادت تتحسس المحبس في خنصره
وهي تصحب كفه بين خرائط جسدها لتؤكد أنه نفس المحبس الذي
وضعت به بنفسها يوم أن اصطحبها في القارب على ضوء القمر.

راحت في نشوة طيفه تتجرع لذة كانت عنها غائبة، لذة لم تذوقها
يوما مع زيدان، اليوم تذوقها على وهم منها بأنها بركات أيام جديدة في
الفندق، أعادت إليه رضاها.

أمر زيدان بالنسبة لها أصبح لا يهم كثيرا، فإذا حضر الماء بطل
التيمم، ماذا يعينها زيدان وقد عرفت طريق مهَاب، لن تدعه يفلت هذه

المرة، لن تدع قلبها ينكسر ثانية، فليفعّل زيدان ما تبدئ له، لن تسأله عن شيء، لن تُعاتبه ولن ترهقه بأي طلبٍ.. أي طلب.

يكفيها أن ينشغل عنها، يتلهى عن أحوالها وتحركاتها، يكفيها أن يحجز لها غرفة في الفندق بين الحين والحين، بحجة أنها تحتاج أن تتخلص من الملل، في جو البيت يبعثه المُتكرر.

فليحصر كل عطاءاته الثمينة في غرفة خاصة بها في الفندق تنزل بها وقتما تريد لتتخلص من وحدتها.

وافق زيدان، أحضر لها مفتاح الغرفة التي أصبحت لها، بإيجار مدفوع مُسبقاً، سواء نزلت بها أم لم تنزل.



مهاب في حضرتها مريد تنقل له العلم، وتعهده أن تناوله العهد بشرط أن يطيع، أن يُعاهدها على الاستسلام في اليقظة والمنان، عيناه مفتوحتان.. أذناه مُنصتتان، وعقله عن العمل يرتاح.

درسها اليوم عن كرامةٍ وعلامة سيرها في المنام، هي إشارة من الله إليه أنه على الطريق الصحيح.

هي ترسم وتنقش في عقله الآن ما يجب أن يراه في الأحلام وهو يخزن ما تقول في ذاكرته العميقة فيتشكل عقله الباطن.

تصف له شكل من سيأتيه مُبشراً بمجرد أن يطفئ هو النور لينام، تُؤكد له أنه سيراه..، وتثق إنه بهذه القناعات حتما سوف يراه، أخبرته أن جنداً من جنود الله سيأتيه مُبشراً، فأغمض عينيه على هذا الأمل.

وهل الأحلام سوى آمالنا المحبوسة في أدمغتنا وعقولنا الباطنة؟! إحياءه إذن جاهز لاستقبال الجندي المجهول الذي أخبرته عنه، والذي بقدومه تتحقق الكرامة.

يستيقظ من نومه مُسبِحاً بحمدها، فقد علمت الغيب وأخبرته حتى بأحلامه؛ فكيف الآن يكفر بها؟!

إيمانه بها كل يوم يزداد، يوقن أنه معها في طريق المراد، وأن الجنة بالنسبة له قاب قوسين أو أدنى، فقط عليه الطاعة.. الطاعة، فطاعة المريد هي المفتاح.

تقدم نحو الثلاجة، تناول نفس الزجاجاة التي أمرته ألا يشرب من سواها، فيها مياه مُباركة أعدتها هي له، قرأت عليها التعاويذ وعدت التسابيح اللازمة ونقعت بها عشبة تجلب الصحة والعافية، عليه إذا شرب فنقص الماء أن يزيده ولا يخاف، فالبركة به لن تقل حتى ولو أصبح أكثر خفة، ولو صار لونه فاتحًا.. لا بأس، فأثر الذكر عليه موجود، والعشب المنقوع أيضًا أثره يبقى.

خرجت رباب من الغرفة وهو يرفع الزجاجاة على فمه، ثارت ثورتها: كفاية بقى.. حرام عليك اللي بتعمله ده، ربنا عمره ما أمرنا بكده، إيه اللي أنت بتشربه ده؟! أنت بقيت مسخ لأوامرها.

ارتفع صوته: قولتلك ملكيش دعوه خليك في نفسك.

صحت رفيدة، ارتبكت خطواتها نحوهما، علا صراخها، ولم يزل مجالهما يزداد وصوتهما يرتفع.

رن هاتفه المحمول.. رد عليها: أهلاً انتصار.

كان صوته مُرتبكا، والغضب لازال يتأرجح على أطراف حروفه.

فاجأته: هي برضه عاملة معاك مشاكل؟! عايزة إيه دي! قولتلك دي هتبعدك عن طريق ربنا.

لم يُفكر، فقط ادهشه: كيف عرفت السر؟ وكيف وصلها خبر العراك بينهما رغم إنها غائبة؟! رح يرد في نفسه طالبًا بركتها، مُتيقناً إنه معها سيأتيه الفتح المُبين.

خفض صوته: لا.. تتفق، سيبك منها، المهم الحضرة النهارده
فين؟

أخبرته: هنصلي العشا في السيدة زينب.

راح يُتمتم «رضي الله عنها.. الصلاة والسلام على آل البيت».

واصلت: وبعدها في حضرة كدة في بيت واحد من الريدين أنا أمرته
تبقى الشقة دي مخصوص للحضرات، بعد كده كل أسبوع هيكون
في انتظارنا، جهز نفسك مية سبحان الله، وتلتمية لا إله إلا الله، ه آية
الكرسي، أقولهم لك تاني؟

لا.. لا، حفظت، بالليل هكون عندك، مدد يا ستنا.. مدد.

المساء أخذه لهنالك، ينتظرها هو أمام الضريح يتبرك، يمسح
كسوته بيديه ليأخذ البركة، يُعطره بعطرٍ أخبرته أنه لا يجب أن يتعطر
بغيره، فهذا هو العطر المأذون به.

هو في انتظارها مُتلهف، يعيد بذاكرته عدد الأوراد المسموح بها
ليحفظ ما لقتته ولا يُخالفها، على باب المسجد التقيا ومن عنده كانت
الخطوات للحضرة.

مشيا في حارة ضيقه تملأها العتمة إلا من سهرجٍ ضعيف يتعلق
بين كل عدة منازل.

الأطفال هُناك كانوا يلعبون بكرة قماشية قذفها أحدهم فاصطدمت
بوجهها دون قصد، راحت تُوبخه بسيل من الشتائم لا تليق بشيخه.

لا بأس.. خرج أحد الجيران، وخرج على أثره آخرون يُقدمون لها الاعتذار، وهي عن الشتائم لم تتوقف.

ثارت ثائرة واحدٍ منهم: خلاص يا ستنا الشيخة قولنا آسفين.

لم تتورع عن شتمه وتوعده، فازداد عناده.. راح يقسم لولا أنها امرأة لدعكها في الأرض، وراحت ترد هي عليه، لا يعنيها الأدب، خرجت النساء من البيوت كأنهن فئران يخرجن من الجحور، راحت كل واحدة تقذفها بكلمة، وهي تتوعدهن بالخراب.

اقتربن منها: خراب لما يخرّب بيتك يا شيخة المنصر إنت، والله لنوريك بقى الكرامات بجد يا بتاعة الكرامات.

اشتبك مهاب مع الرجال، وأصبحت هي كالفأر بين يدي النساء، أفسدن عليها الحضرة.. فكانت في حضرتها تستغيث بالأعوان والجنود، ولكن يبدو أن أعوانها في تلك الليلة كانوا في حضرة شيخة أخرى، فلن ينقذنها من عُلقة لن تنساها، وربما لن تأتي لهذا الشارع مرة أخرى.

رباب عند وداد على موعدٍ هناك مع حنين، دموعها تنهمر: لازم تشوفولي حل.. أنا خلاص مش قادرة.

قلب وداد يتمزق في أحوالٍ لا تدريها.. لا تستطيع إدراكها، انتصار أخبرتها أنها تأخذ بيد مُهاب لأبواب الجنة، وحينئذ تؤكد لها أن الأمر ليس كذلك، وأن مفاتيح الجنة ليست بيد أحد، وأن الطريق إلى الجنة محفوف بالإخلاص وسلامة النية.

حاولت أن تشد أذر رباب: يا بنتي اصبري هو يعني يعمل إليه؟
أهو كله لله.. هو لسمح الله بيمشي مشي بطل؟

كلماتها زادت النيران اشتعالاً: حرام عليكو دي سيطرت عليه،
فهتمته إنه هيبقى من الأولياء على أيدها، ما بقاش يسمع غير كلامها..
كل يوم في بلد من البلاد بيدبح لها دبحه ولا في حضرة وسايينا أنا وبنته.
ثارت حنين: حال مُهاب بقی فعلاً غريب.. اهدي يا رباب وربنا
يقدم اللي فيه الخير.. أكيد هنحاول نرجعه عن الطريق الغريب ده.

ظلت ليلتها على حديث يطول تحكي لهم أحواله العجيبة، تحكي
عن روائح البخور التي أصبحت تعبق البيت، وعن الليالي التي يبيتها
وحده في حجرة مظلمة بحجة أن لديه ورد لا بُد أن ينتهي من ذكره.
وعدت حنين أن تُحاول مُساعدتها بالحديث مُجدداً مع مهاب.



زيدان المصري في حضرة ديدى، فالليلة من نصيبه هو، جيبه كان
الأكثر امتلاءً، وربما هواه وافق مزاجها اليوم.

الغرفة على خفت ضوءٍ أحمر ينعكس على ستائر حريرية، السرير
يستدير على لفاته وهي فوقه مُمدة.

قميصها الشفاف الذي لا يطول فخذيها ولا يداري نهديها، أدخنة
سيجارتها تحوم، وهو على أعتاب الحجرة يستعد.

يملّي عينيه من شبقها الذي يصهد حولها، يداها تُمهدان جسدها
لاستقباله، وهو ينحل من ملابسه.

مال عليها عارياً إلا من رغبته المُفعمّة، راح يتحسس خرائطها بلا
عنوان، هو في ضيعتها يسير بغير وجهة، فيعود من حيث أتى يلاقي
حانات.. وكهوف، يتوه بين سهولٍ وتلال، ساعةً يأخذه الوجد لحضرة
غنجها، وساعة تلفظه فيعود لمذلةٍ أعتابها مريداً لها.

السرديد في متاهاتها على تلايفٍ لا تنتهي، وهو من توهته فيها
لا يعود.



الظلام دامس، والمهمة ليست باليسرة، لكن انتصار أصبحت عليها قديرة، اليوم حان لها أن تخوض؛ فهي بالأسرار أصبحت عليمه، وبذاكرة الأعداد خبيرة، حفظت كم من الذكر يجلب، وكم يطرد، وبكم تحوم الهوام حول الرؤوس.

هي تحتاج لأعوان على إثر ذكرهم يقول السامع: دستور.. دستور يا أسيادنا، ومنذ الأزل لم نعرف من هم أسيادنا، من يتوهم أنه رآهم يحكي، والسامعون بين مُصدق ومُكذب، وفي كثير من الأحيان لا تتضح الحقائق.. وأحياناً تتوه، وفي أحيان أُخرى تصبح الأكاذيب حقيقة.

وتستمر الأوهام تصنع صوراً في الحياة على شاكليّة من الإبهام والغموض، فيصبح اليقين الوحيد هو أن الله موجود بداخلنا وحولنا ومن فوقنا ومن تحتنا نذكره قياماً وعوداً وعلى جنوبنا من حيث هنا فليس غير ذلك يقين.

الظلمات بها طالت في خلوتها التي أصبحت بالنسبة لها طقس من طقوس المشيخة وسُلمة على طريق الولاية.

دخلت حجرتها.. أطفأت الأنوار بعد إخبارية أنها لا بُد أن تنهي عدداً من الأذكار.. ولا تريد أن يزعجها أحد.

رائحة البخور تفوح مُتسربة من عقب الباب، صوتها خافت على متماتٍ لا أحد يستطيع تفسيرها.

وداد في الحجرة المُجاورة تروح بين يقظة وثبات، يُراودها طيف
يونس عن اليمين وعن الشمال.. تخبره عن أحوال مُهباب، تسأله
عن حجرتها في أمر انتصار وهل هي الحق أم الضلال، تترجاه لو أنه
يستطيع مُساعدتها من هُناك من وراءات عالمه الآخر، وكأنه حقًا يشعر
بها، يأتيها بإشارات بين المُنذرات والبُشريات، تفتح عينيها على نفس
الجدران المُقابلة وصورته المُعلقة تدرك من جديد أنه مات.. مات!
تُنادي: انتصار.. انتصار.. اسقيني يا بنتي، انتِ لسه قافلة عليكِ
الباب؟



الموعد الغير مُحدد للزيارة المُفاجئة، هاتف مهاب يرن.. يرد ثم يخبر رباب أن انتصار في الطريق إليهم، عليها أن تعد غذاءً سريع.

ليس بهذه الطريقة يستأذن الضيف للقدوم، بدا عليها الغضب، لم تتمالك نفسها: ده ما بقاش بيت يا مهاب ده بقى تكية.

أحمرت عيناه.. علت أنفاسه: مش عاجبك يا هانم؟

- وده حال يعجب حد ولا يرضي رباب؟ أنا مش عارفه أخذ راحتى في بيتى يا مهاب، دي بقت شريكه لينا في حياتنا.

زاغت عيناه برهه ثم رد منفعلًا: عايزانى أقاطع أختى يا رباب؟!

- لا يا مهاب بس أنا خلاص فاض بيا.

رن الجرس.. توقف كلاهما عن مواصلة الحديث، فتح مهاب.. كانت انتصار ويدها حقيبة صغيرة، ألقى السلام ثم جلست على الكرسي، بدأت حديثًا باردًا، لم ترد رباب أن تُبادلها إياه.

سألتها عن أحوال رفيدة وأحوالها، ثم أخرجت من الحقيبة زجاجة بها ماء لونه بعض الحمرة وترسبت فيه أعشابًا غير معروفة لرباب، ناولت الزجاجة لمهَاب: اشرب يا حبيبي دي مِيَّه كلها بركة، شَرِب، رفضت رباب أن تذوقها، راحت انتصار ترش منها في أركان البيت: بسم الله.. بسم الله.

صاحت رباب غاضبة: إيه اللي بترشيه ده؟! خطفت من يدها
الزجاجة، غضب مهاب: انتِ إزاي بتعملي كده؟!

نشب بينهما الشجار وانتصار ترقبهما صامتة، علا صراخ رباب:
حررناااام عليكو.. طلقني يا مهاب طلقني، رفيدة متعلقة بكتفها، وعينا
انتصار تشعان شرار الغيظ، ومهَاب بينهما يلتقط الأنفاس بلا حيلة.



قدماء أخذته لهُناك.. طوى المسافات في خطوةٍ من أصحابها.. أو هكذا يعتقد، صوتها يرن في أذنيه: «تبقى من أهل الخطوة».

يومها سألها: وماذا عن أهل الخطوة؟!

أخبرته بكراماتهم، فخطوة الواحد منهم تتسع لتصل إلى ما وراء الأميال، أصبح الآن يعتقد بإمكاناته الخارقة، أصبح يوقن أنه بخطوة واحدة يمد بها قدمه يُمكنه أن يذهب لحضرة هُناك.. في بلدةٍ أخرى بعيدة «مدد.. مدد» أو ربما يذهب لقضاء عمرة في لمح البصر.. هو بهذا يعتقد.

بين المُحببين اتخذ مكانه في حلقة الذكر، هو واحد في محيط الدائرة.. بين كثيرين يلتفون على عالمهم يذكرون ما يذكرون، هم وحدهم يعرفون ما يقولون، هم وحدهم على عدد الكلمات متفقون وهو معهم يسمع ما يسمعون، ويعلو بصوته: حي.. الله.. مدد.. مدد. أدمغتهم تترنح عن اليمين وعن اليسار، وعيونهم تغيب في فضاء وراءه فضاء، كأنهم يرون ما خلف بالسما، أياديهم معاً تعلو وتهبط على تصفيقه واحدة يعقبها كلمة: مدد.. مدد.

وهو يُصفق معهم لا يدري أين رأسه، ربما لازالت على وسادته القطنية يفترش سريره الخشبي، لكنه يتأكد أنه الآن حقاً في حضرة على بُعد لا يعلم مداه «مدد.. مدد»..



صافيناز لم تزل تُراوده وهو منها ينفلت وإليها قلبه يعود مُشتاقاً..
طائئاً.

أرقام هاتفها ترن، وأصابعه ترتعش.. ماذا لو ردّ عليها؟ لا شك
سيقع في براثنها.. هو عندها بلا حيلة، قلبه لم يزل يهواها، وقته لم يزل
يمضي على عقارب ذكرياتها هي، فليمسك عليه هواه.. وليمتنع عن
الرد ولو اعتصر قلبه.

الآن هو أصبح من أهل الطريق، فالهوى به لا يليق، أصبحت عنه
غريبة وهي لقلبه لم تزل الحبيبة.

قلبه يروح عندها.. يتذكر ملامحها، تفصيلها.. يذوب بلحظةٍ
عشقٍ كانت ولم تزل.

عقله يصرخ.. لن أعود إليها.. ولو جاءت لعندي بالقرايين.

الآن عرفت.. والأوان فات.

صافيناز لن تهدأ.. لن تسكت عنه، هو يعرفها جيداً، يعرف أنه لن
ينجو منها ما دامت عائدة.

عليه الآن ألا يُبادلها مُكالمة الهاتف، وغداً يحدث ما هو كان حادثاً
لا محال.

دون أن يدري انفلت أصبعه على زر الرد، صوتها.. هو صوتها:
مُهَاب.. رد عليّ يا مُهَاب.

لحظة صمتٍ عقدت لسانه وهي تتوسل إليه: أرجوك رد عليا.. أنا صافيناز حبيبتك.

الآن عرفت أنها الحبيبة؟!!!

لم يزل على صمته، ولم تزل على كلمات ضاعت تفاصيلها في أذنه وهو شارد عنها.. إليها.

صرخ بها: أرجوك.. أرجوك ماتتصليش بيا تاني.

أغلق الهاتف، جلس على أريكة مُعصباً رأسه بيديه المكشوفتين، ولم يزل صدى صوتها في أذنيه، مُتسللاً لنبض قلبه الذي يعلو.. فتعلو أنفاسه، ظن أن روحه انزهقت عنه لو لحظة عفو من عند الله حلت به، فالتقط أنفاسه من جديد، تمنى لو عاودت الاتصال.. ولسانه لم يزل يُتمتم: مش لازم أرد عليها تاني.



النذر المأذون به اليوم جمل، دفع ثمنه للشيخة انتصار اثنان من المريدين على شراكة في الأمر والحضرة في بيت من بيوت إحدى القرى التي يرتادونها لنشر طريقتهم، فهناك يُقبل المريدون الجدد على رائحة اللحم.. والعطايا.

مهّاب بصحبته لا تخطو خطوة بدونه، هو بالنسبة لها ستار من سهام تهمة تلحق بها أو سؤال يرشقها: كيف تجوب سيدة بلدان بلا رجل! وشرائع السلف لا تبيح للمرأة سفراً إلا بمحرم.

إذن فمهّاب هو الأخ والمحرم يذل لها العقبات فتنتلق في البلاد تجمع المريدين لتزداد صيتاً، ولىرضى عنها الشيخ فيمنحها مقاماً أعلى، ويسخر لها عدداً أكثر من الخدام، يا لها من دائرة، أتراها على من تدور عند مدخل البلدة!

سار المريدون بالجمل وعلى رأسهم الشيخة انتصار، يرافقها محرم هو أخوها مهّاب.

انتشر الخبر كالدخان، فأقبل الفقراء هناك إلى بيت الحضرة يشهدون الذبح وينالون نصيبهم من اللحم، ويدعون للشيخة انتصار. ربما لهؤلاء البسطاء عذراً، فالدين بالنسبة لهم ملاذ من الضياع، وهو موروث وجدوا عليه الآباء والعطايا هي الملاذ الآخر من الفقر وقلّة الحيلة.

في مثل هذه البلاد النائية يسهل لها جلب المريدين، هي أصبحت
الواعظ لعقولهم والمُطعم لأفواههم، ومُهاب أصبح المُسخر ومن
إرادته انسل، فلا شيء يصير إلا بإرادتها هي.



مهاب في غرفتها ليلاً بعد إذنٍ من ساعات العمل الرسمية، يتجرع الشوق إليها سمّاً يسري بشرايينه، يتمزق بين حلاوة اللذة ومرار الذنب.

لم يكن يوماً كذلك، يوماً لم يكن خائناً لعهد الله، وداد علمته أن الكبائر طريق المهالك، وهو اختار أن يكون في طريقها هالك.

هي تُقلبه بين يديها لا يدري ماذا يكون، ولا أين هو، يوماً لم يذق هذا الطعم إلا على أعتاب شفيتها هي، يوماً لم يعرف أن الوصل هو الطريق الأوحـد للوصول.

الآن ارتاحت أوصاله بوطأتها، الآن هو يروي تربتها، يخصّبها فتندي به، ترتوي بقطراته فتفتح براعمها.

على أنفاسها يشم رائحة أيام راحت، فيعود عند أقدامها طفلاً، يمتص من عسلها شفاءً لجرح طال، جرحه الآن يبرأ، الآن يشفى، الآن تتبدل آلامه.

راحةً يوماً لم يذقها، يفتح عينيه على عودته منها، يعود من عندها مُنشجاً، فلا هو عنها يستغنى، ولا هو بحاله راضياً.

الذنب يُراوده عن اليمين والشمال ينذره يستعجله العودة، أصبح نائهاً في متاهات خرائطها، يعرف كل الطرقات، يعرف السهول والمنحنيات، ولا يعرف هو ذاهب أم آت، عقله بين يقظةٍ وشتات، وقلبه بين حياةٍ وممات، فلا هي تركته لأقداره، ولا هو إليها حقاً عاد.

شبح زیدان لم یزل یطارده، یُذکره أن صافیناز ملکه هو، بحفنة مالٍ امتلکها، وهي كانت راضية بعقدٍ وشریعة.

ليس لها الآن أن تخون، وليس لنفسه أن تهون، مهاب أصبح على شاکلة بین العقل والجنون.



الأمر جاء لمهاب بالخلوة، انتصار أخبرته.. عليه أن يختلي بنفسه في غرفة يُمارس طقوس الزهد في الحياة، طعامه تمرّة، وله أن يرتشف من الماء شربة.

الورد المأمور به مُدَوّن في ورقة بخط يدها، عدد الأذكار مُحدد.

أما عن مدة الخلوة فهي أربعين يومًا بليلة السبحة المُحددة لذلك ذات تسع وتسعين حبة، عليه ألاّ يخلعها من رقبته فهي بركة من الشيخة انتصار.

هجرهم جميعًا.. وأغلق باب الغرفة، لم يعد لرباب أن تطرق عليه بابًا، ولا تسمعه صوتًا، فهو غائب عن الحياة لمدة أربعين يومًا.

المساء بالنسبة له ظلام حالك.. ليس له أن ينير مصباحًا ولا يشعل شمعة، هو في جوف الليل البهيم.. يهيم، في حضرة أمرها يُردد الأذكار، يتصور أنه اقترب من الوصل وأوشك على المُكاشفة.

الحوائط تبدو لعينيه كأنها شاشة يرى عليها ما لا يراه غيره، أصوات تُحاوطه وخيالات تتبدئ له، وهو يُواصل العدد المأذون له.

الأيام تتوالى والخلوة تستمر، نهارها وحده.. وليلها هيامات أفكار بين الحقيقة والخيال، لم تزل الأصوات في الظلام تهمس في أذنه بالبشريات، تخبره أنه سيصبح وليًا.

صور الموتى تأتيه.. تتجسد أمامه فلا يُمكنه أن يلمسها، عقله يهیی له أنها الكرامات، جعلته يجوب الآن عالمهم.. وحده هو الآن يرى يونس على نفس هيئته.. وبابتسامته، يشير له بالسلام، إنها كرامات الخلوة إذن.

كائنات بين البشر والملائكة تحيطه، وهو بين اليقظة والحلم يُتمم، فيعد ما قرأ ليطمئن أنه يسير على الصواب، ولا يُخالف ما عاهد عليه بزيادة أو نقص.

جنود يلتفون حوله، يُعاهدونه أن يصبحوا في خدمته، يفتح عينيه على ظلام دامس حولها، ويغمضها على نفس صورهم، فلا هم حقيقه يتأكد منها.. ولا هم خيال، هو ذاته أصبح بين الحقيقة والخيال يطرق.



انقضت الأيام.. صباح اليوم الواحد وأربعين، المأذون فيه بانتهاء
الخلوة، رباب على باب الغرفة تترقب خروجه، فاجئها بوجهًا شاحب،
ولحية طويلة.. وشعر أشعث، عيناه لم تزل على هول ما كانت ترى
بين الحلم والحقيقة، حدّثها رمزًا.. فأشار بيده وهز رأسه.. بلا ابتسامة.
أدركت أن عليها الانتظار حتى يعود لطقوس الحياة، تركته وشأنه؛
ليستحم ويُغير ملابسه، فقد انتهت أجازته وعليه أن يعود للعمل، لا
وقت الآن للنقاش.. وليس أمامها سوى الصبر.

استيقظت رفيدة من نومها، خرجت من حُجرتها للصلاة فوجدت
مهاب على شاكلته.. تغيرت ملامحها، كشرت والتصقت برباب صامته
يركبها الخوف، ضمتها.. ربت كتفها.. أخبرتها على كلمات لم تزل
مُتلعثمة فوق شفاها، فهي لم تتعدى العامين: بابا كويس.. هيغير
هدومه ويبوس رفيدة، وكمان هيجيب لها لعبة.

ابتسمت رفيدة ابتسامة صفراء، فهي تفهم ما لا يُمكنها التعبير عنه.



الأيام تمر، والشهور تمضي.. وزيدان على نفس الأرض يقف،
حاله كما هو.. هو الآن في حضرة المقامرة على إحدى موائد الحانة،
ينفث دخان سيجارته، يدب المائدة بيده مُعلنًا أنه الكاسب، يرفع صوته
بالقهقهات العالية.

يجوب الحانة بعينه مُتابعًا حورية التي تفتح الزجاجات، يغمز لها
بطرف عينيه، فتفهم أن الليلة ليلته هو، فليس لأحد أن يدفع ثمنها غيره.
الصخب يرتفع، الأدمغة تهتز بالخيالات الكثيرة على شرف سكر
حلّ بها.

كلّ يهيم في حضرة أوجاعه.. رغباته.. ماضيه.. نزواته، التخاريف
تنفلت من الألسنة، تحكي عن أخبارٍ مرت عن أمواتٍ وعن أحياء، عن
وعودٍ ووعيد، عن آمال ومخاوف.

كل سكرانٍ هناك بما في نفسه ينضح غير مُبالٍ، فهناك فقط لا
يخشى أن يسبح، فلا أحد يسمع، ولا أحد يفهم.

الأنوار بين بريق وانطفاءه، وجسد ديدي على حلبة الرقص يهتز،
فتدنو لأعين كل واحدٍ فيهم.

تقترب من أحضانه وهي هناك مكانها، يمطرها بالأوراق النقدية فتسقط
على الأرض، من يدفع يده بالأكثر، يعلو صوته باسمها أكثر.. وأكثر.



هو الآن أصبح أسيرًا بين الأرض والسماء.. لا يدري عن ذاته شيئًا، الأغلال تشد حول رقبته، الحبل بيدها يطول ويقصر، هي وحدها أصبح بيدها أمره، الإذن منها.. والورد والأذكار بعدد هي تُحدده، حتى الأحلام ترسلها له وتسأله عنها، يرى كائنات لا يعرفها.. بين الحلم والحقيقة يعيش.

هو الآن يحتاج لقرارٍ ليس بيديه.. يتمنى لو انفلت من سجنها لكنه أصبح من خُدامها، هو بين البشر و الجان أصبح كائنًا ليس له هوية، روحه تنجس.. أنفاسه تنزهق، جسده يكاد ينفلق، لكنها تُباغته في الحقيقة بأوامرها، وفي الحلم بهوامها.

حجرته أصبحت سردابًا من الأسرار التي يختنق فيها، لا أحد يعلم شيئًا عن المخلوقات التي أصبحت تُشاركه الأوقات، لا أحد يراها غيره، ولا أحد يستطيع أن يريحه ويخبره أهى حقيقة أم خيال.

هل هي جنود على الأرض حقًا تحيطه أم هي وساوس انزرعت في رأسه فانعكست بعينه اللتين أصبحتا كحجرين يسكنان وجهه المتجهم، نامت رباب.. ونامت رفيدة، وبقي هو.. كما هو.

فتح باب الحجره يتلصص جوف الليل، حمل جرة بها زجاجة ماء وبعض التمرات، اقترب من الباب، صراخة يعلو بداخل رأسه: لم تعطك الإذن لتتحرر بعد، نبضات قلبه تعلو.. تخفق، لسانه يُتمتم: لن تراني هي بعد اليوم لن تنالني بعقاب، حيث لن أعد موجودًا.

يتلفت عن اليمين وعن اليسار: ماذا..؟! جنودها المُسخرين
سيتبعون خطواتك، سيخبرونها بكل شيء عندك.

يتنفس الصعداء، لن يصلوا إلى، سأتفرق في الأماكن، لن أسكن
مكانًا واحدًا، لن يعد لي عنوان بعد اليوم، عنواني حيث أجد حريتي،
فحيث توجد الحرية فهناك وطن.. أرض الله واسعة.

تسلسل الخطوات على السلم، غسق الليل يُواريه، أنفاسه تتلاحق
على ارتباكٍ قدميه.

العتمة تكسو الشوارع.. الكلاب تنبح، القمر يرسل أملاً فضيًّا
يضيء له الطريق على استحياءٍ، بين البنايات مضى، لا يدري إلى أين،
ذاب بين الظلمات، أصبح شعاعًا يشبه شعاع القمر، فهو الآن يسكن
خيال رأسه، يُهنئ نفسه أنه مُنذ الآن لن يأخذ منها إذن ولن يَأتمر منها
بأمر.

ارتفع آذان الفجر على قبضة بقلب رباب، انتفضت من سريرها
نحو حجرته تُوارب الباب على غير العادة، اقتربت لتلصص النظر..
دفعته على استحياء فوجدت السرير خاليًا منه، أشياءه مُبعثره على
الأرض.. ملابسه مُلقاه، حقيبته فارغة من كُتب الذاكرة، زجاجات الماء
المنقوع بالأعشاب مُتراصة على جانب الجدران، مشت خطوات نحو
الحمام ونادت: مهاب.. تحولت عن اليمين وعن اليسار تُناديه.. ولم
يرد، أيقنت أنه نزل من البيت.

مُنذ شهور وهو يصلي الفجر في خلوته ولم يذهب إلى المسجد،
ربما أخذه الشوق لهُناك، لم تُفكر سوى في أنه قد ذهب لصلاة الفجر،
صلت هي في حجرتها، دعت الله أن يفك أسرهِ.

أغمضت عينيها على صورته المعلقة على الحائط أمامها.. تمت
لو أن الأيام عادت ليعود معها مهاب الذي اختارته، لم تنزل تُفكر حتى
رأته أمامها، صراخه يعلو.. الثعبان يلتف حول رقبتهِ، وهو يُحاول
الخلاص منه، يُحاول أن يفكه بيديه، فكلمات التواء.. التف من
جديد حول رقبتهِ، صرخاته تعلو.. خناقه يزيد، وخطواته تتسع.

انتصار تلاحقه بجلباب أسود.. ووجهها يمتلئ بالشرور، صرخات
مُهَاب ترتفع ورباب تتقلب في السرير تُحاول الفكاك من هذا الكابوس،
انتفضت وأنفاسها تتلاحق، راحت تستعيز بالله.. وتُنادي: مهاب..
مهاب الذي خرج.. فهل سيعود؟!



صافيناز اشتعل جنونها على فراغ عينيها منه، ليس في مكانه بصاله
الاستقبال، راحت تجوب المكان، تُقلبه بلهفة.

سألت عنه زميل تتصنع عدم اهتمام: فين راح مهاب؟
رد: هو ساب استقالته امبارح وصَفَّى حسابه.

هوئى قلبها، رحلت من أمامه تُواري صدمتها، خُطاها على
لعثمات حركة، كادت تسقط على الأرض، هجرها مهاب، رد لها الصاع
صاعين، ولم يكن في الحقيقة هذا قصده.

هو تركها هاربًا من حُبها الذي أصبح يملكه، يسري بين عروقه،
تركها هاربًا من عدم ملكيتها وقد أصبحت تملكه، تركها من قلة حيلة
كادت تهلكه.

صعدت حجرتها كالمجنونة تُفتش عنه، تُحدث نفسها أنه موجود
بجانبها، تتحسس الوسادة التي تجاوزت فوقها أنفاسهما، راحت
تتشممها، تُغرقها بدموع الحسرة، تعضها بألم غيبته.

تلف أنحاء الغرفة وهي تدب فخذيها بكفيها المُرتعشين، تُناديه،
تخفض صوتها خوفًا من حولها، تُتمتم باسمه وأنفاسها كادت تغيب.
ارتمت على السرير، أغمضت عينيها، مُتصفرة المشاعر.. إلا منه.



شهور مرت ومهاب الغائب لم يعد.. عن عمله مُنقطع، في الأقسام والمستشفيات لم يُستدل عليه، اتصلت رباب بجميع الأقارب والأصحاب.. علقت صورته في محطات المترو وعلى نواصي الشوارع. تابعت أخبار الحوادث يومًا بعد يوم.. لا أثر له من قريب أو بعيد، كأنه راح في عالم آخر.

بُكاؤها لم يكف ليل نهار.. وجهها تلون بصفرة غيابه المُبهم، أنفاسها أصبحت مُتقطعة.

رُفيدة تسألها عنه كل يوم: فين بابا؟!!! فتضمها: إن شاء الله هيرجع يا حبيتي.. هو راح يجبلك حاجات حلوة كثير.

بُكاؤها يعلو: مش عايزه حاجات حلوة أنا عايزه بابا.

أيام غيبته تطول.. وأملها في عودته يقصر، مجهول اختفائه يكاد يُودي بعقلها: أترأه أين ذهب؟! هل حقًا ما كان يدعيه بأنه أصبح له مقام رباني وأنه الآن يستطيع أن يطير في عالم الأرواح؟! لو كان ذلك حقًا فلماذا إذا لم يُعد؟! هل أعجبتة الحياة هناك بين الأرض والسماء؟! ليس ذلك معقولًا، فالأمر أبدًا لا يتعلق بادعاءاته التي كانت، ماذا إذا؟! ما سر هذا الاختفاء، ولماذا لم يُعد مهاب؟!

أدركت أن التفكير لا فائدة منه، فالأقدار وقعت، عليها أن تدعو الله ليعينها على تربية ابنتها، عليها أن تبحث عن عمل تتكسب منه ما يسد حاجاتها، لا شيء أمامها سوى الانتظار.. والأمل في رحمة الله، يومًا ستمطر السماء فرجًا.. بهذا هي توقن.



سارة تخطو خطواتها الأولى.. أصبحت هي أمل زيدان في الحياة، بنوتها أيقظت بداخله مشاعر لم يذقها من قبل، قلبه الذي ينبض بالقوة ولا يخشى الأهوال يصبح أمام ضحكتها قلب طفل صغير لا يشغله إلا أن يُداعبها.. ويسعد بها.

صافيناز أصبحت بالنسبة له رابط لا ينفك عنه، فهي أم سارة، مهما صار بينهما من خلاف.. مهما استمرت على جنونها وعصبيتها عليه أن يعمل لإرضائها من أجل عيون سارة.

الحديث معها يأخذه دائماً عن سارة، يرسمان معاً خارطة مستقبلها، فكل ما يمتلك زيدان من أجلها هي.. بالنعيم يريد أن يغدقها، يحكي عن المدارس التي ستلحق بها وكيف يجب اختيارها عن النوادي التي يجب أن تمتلك بطاقات عضويتها، عن سفراتها في الغد القريب عندما تصبح صبية.. حكايات سارة لا تنتهي.

والأم صافيناز تستمر.. هي تُشاركه أطراف الحديث على غيبة عقلها هناك عند حبيبها الذي غاب ولم يعد بعد، تتمنى لو تُغمض عينها وتفتحهما على خبر عودته للفندق من جديد، أو حتى على صدفةٍ تجمععه بها في طريق.



قربه عامين وهو غائب عنها وداد أصبحت أسيرة وحدتها.. تجتر
الذكريات.. تقعات منها ما يقيم ظهرها الذي أصبح مُنحنيًا على عوده.
أهكذا تدور دائرة الأيام؟! رحل يونس.. وغاب مهاب، انقطع
الخير من انتصار، وذابت حنين في دوامة الحياة، تطل عليها بين الحين
والحين مُحملة بكبد تخفيه.. تُقاوم الموت، ترقص على سلمات الألم
لتنتصر على الأحزان.

السريـر يلفظ وداد.. تستند على عصاتها الخشبية، تفتح النافذة
لشمس لم تعد تجيء بالدفء، النور يملأ المكان والظلام يدمس قلب
وداد، الصور المُعلقة على الجدران لم تعد كما كانت.. تغيرت ملامح
أصحابها.

يونس يطل عليها من إطار صورته بعينين سكنهما صمت الموت..
ابتسامته باهتة.. تُحدثه فلم يرد عليها، تترجاه أن يمد يده ليصحبها معه
فلا يسمع استغاثاتها.

صورة مهاب يرتكن على جذع شجرة، تذكر كم كانت حلوة هذه
الصورة، فلماذا أصبحت الآن هكذا مُخيفة، ولماذا أصبح مهاب بعيدًا؟
تسأله عن مكانه.. فلا يرد، تستعطفه أن يرحم قلبها المُشتعل نارًا
بغيابه، فلا يكثر ثبها، تسقط هامة على أريكة تحت الشباك.

الشهور تتوالي سريعا تنظر للسماء.. تُنادي السُّحب أن تنهمر
بأَمطار الفرج، فلا يقنط من رحمة ربه إلا الكافرون، لم يبقَ لها سوى
الإيمان، تمسك عليه في قلبها كالماسك على جمرة من نار، تدعو الله
أن يرحم ضعفها، تسبل عينيها على دمعات ساخنة وتروح في نومٍ مُؤرَّق
لأحلامٍ مُزعجة.

هي في الجبانات تطرق باب يونس.. يُحاول أن يفتح لها.. فلا يفتح
الباب، تُنادي أحداً أن يُساعدَها، تقتسم للسماء أنها جاءت لترتاح هنا
معه.. فلماذا ترفضها الآخرة؟! تمشي خُطى على الأرض تبحث بين
شوك الصبار عن مهاب، لم يأخذها من ذلك الكابوس المزعج سوى
آذان الظهر يرتفع بأُذنيها، تفتح عينيها على نافذتها المفتوحة، وعلى
نفس الصور الصامتة فوق الجدران.



خطوات حنين تأخذها من أحزانها فوق ثرى تحبه، هي في الطريق إلى وداد، تجوب أنحاء الحي حيث الذكريات يفوح عبقها، نفس المدرسة الابتدائية المُجاورة لبيتهم تحمل نفس اللافحة، الأطفال أمام بوابتها على نفس الشاكلة في انتظار بوابتها لتنتفح فيندفعون نحو الفناء. عربة الدوم والتفاح الأخضر والحرنكش، بائعة العسلية واللبن.. المراجيح الخشبية التي تعلو نحو الفضاء على ضحكات راكبيها من الأطفال، يُنادون: خلينا شوية والنبي يا عمو.

رائحة الورد تفوح من نفس المشتل الذي كانت تأتيه بصحبته انتصار يوم عيد الأم لشراء الورود، البُستاني هناك على مرأى عينيها يجلس على الأرض يُرتب الورود وهي تشير إليه بالتحية وتُواصل المشي نحو محل عم حسن الذي أصبح مُغلَقًا، يعلو بابه التراب والعناكب.

الدموع تتحجر في عينيها.. فاليوم تفرق الشمل، مات يونس.. غاب مُهاب.

ناصية وداد كساها الشعر الأبيض، عافيتها أصبحت تنوء بالهموم الثقيلة، كل الأشياء تغيرت؛ فالدنيا على حالٍ لم تبقى.

حنين لا زالت تقسم للسّموات أنها على العهد باقية، وأنها تحمل بين جنبها قلب طفلة.



لم يزل غائبًا، ولم يزل الأمل في عودته بعيد، لكنه غير مُنقطع
بالنسبة لها، المساء يمر ثقيلًا، الذكريات تُراودها عن اليمين وعن
الشمال، تنظر لصورته المُعلقة على الحائط.. تُعاتبه، تستحلفه أن يعود.
تشعر أنفاسه تحوم حولها، تهمس دامعة: هل هُنتَ وهُنّا؟ تُتمتم:
الغايب حجته معاه، الله أعلم بيه.

تعود وتأخذها القسوة: مالوش عندنا حجه، هو اللي اختار الطريق
ده، اختار يسييها تمسح عقله وتسلبه إرادته.

الحنين يغلبها من جديد: عشان هو طيب وقلبه نضيف صدقها..
صدق ألاعيها ودجلها لغاية ما ضيع نفسه، بس لو نعرف هو فين؟!
لو نظمن إنه عايش وبخير!

لم تعد الدموع تُبرّد نيران قبلها المُشتعل بالألم، لم يعد لها أنيس
ولا سند بين البشر، لها الله وكفى به سندًا.. وأنيسًا.

ساعة الفجر تقترب، الليل يمضي مُحملاً بالهموم، عليها أن
تسلوه، أن تتخفف من آلامها لتتقوى على مواصلة الحياة؛ فالحمل
أصبح ثقيلًا، وحاجات رُفيدة تزداد يومًا بعد يوم، لا بُد أن تكفيها
لتعوضها غياب أبيها.

لا بُد أن تبحث عن عمل يكفلها ويكفل تربية ابنتها، هي الآن
أصبحت العائل، أصبحت الأم والأب معًا، هي الآن بالنسبة لرُفيدة
السفينة التي تنقلها لبر الأمان.

ارتفع آذان الفجر، توضأت.. استعدت للصلاة، وقفت بين يد الله
يغلبها البكاء، سجدت على نهنحات حزنها، صوتها يعلو.. مُفوضة له
الأمر.

قامت رُفيدة من نومها، جرت إليها ملهوفة.. حضنتها، تبكي:
خلاص يا ماما.. خلاص مائز عlish إن شاء الله هيرجع.



عم حسن يرقد على السرير.. جسده لم يعد مُمتلئًا، انبرئ من أثر المرض.. عيناه أصبحتا كبؤرتين يسكنهما الضباب على أنصاف رؤية لا تُميز تفاصيل ما حولها.

لم يعد يملك قدمين.. انتبرت واحدة بأمر الطبيب الذي قرر ذلك، وإلا سرت «الغرغرينة» في بقية جسده بسبب ارتفاع السكر في دمه. هو الآن يمقت رقدة الفراش، تمنى لو عاد يومًا واحدًا ليُعانق بقدميه دواسه الماكينة من جديد فيُخيط نعلًا مهترءً.

يريد لو يعترف للعالم أنه كان في نعمةٍ فتبتّر، لم يعجبه حياة الأحذية.. الآن يتمنى لو عادت قدمه المبتورة فيلبس حذاءً مقطوعًا أو حتى يدبها على الأرض حافيًا. هو يدري أن لا ساعة مندم، فالأوان فات.

يومًا صرخ في نفسه «إيه يا حسن مش عايز تقب على وش الدنيا؟»، من أجل ذلك الناء سلك الطريق الأعوج، والآن تعجله في الدنيا الحساب.

كل ما جباه من حرام.. راح هباءً متشورًا بين الملذات والكيف الذي ذاق طريقه فلم يسلاه، اليوم يرقد عاريًا من الستر ينتظر يد عونٍ تمتد إليه بقوت يومٍ، يتمنى لو لم يأت عليه غد.



الشهور تمر وتمر.. وصافيناز بغيبته أصبحت مبتورة المشاعر.. لا شيء يفرحها. لا شيء يهمها سوى سارة التي تكبر يوماً بعد يوم أمام عينيها، ربما تسليها.. ربما تزيج عنها بعض غمامات الأحران.

صوت سارة هو تغريدة الأمل الوحيدة في حياتها بفطرة أمومة انفطرت عليها، هي لها أنس، ولكن لا تكتفي.. لا زالت شاردة لهنالك.. لعنده في مجهولات غيابه تحمل سرّاً ودت لو تخبره به.

تمنت لو تصرخ فيه ليس لك أن ترحل فلست ملكاً لنفسك، تُحاول الانشغال، تارة بالسفر، وتارة بالشرب حتى التيه، وتارة بالأحلام.

سنون تمر على أطلال ذكرياته، الحيرة ستقودها للجنون، أتراه أين ذهب مهاب، كيف أخذه قلبه للبُعد عنها، بعد أن صالحتة عليها الأيام! هي تتأكد أنه لم يختار ذلك البُعد، على يقين أن شيئاً رغماً عنه دفعه لذلك، لا شيء يعينها الآن سوى التأكد أن أنفاسه لم تنزل على نفس رائحتها، تتمنى لو يُهاثفها فتطمئن عليه، لو يخبرها بصوته أنه كرهها، وأنه هجرها من جديد، وأنه لا زال حيّاً.

مُحاولات بحثها عنه لم تتوقف، عل سرية تامة من زيدان، تغيب النهارات تبحث بنفسها بين كشوف الحوادث والمستشفيات، وقوائم المسافرين وأسماء المحبوسين على ذمة قضايا، وتعود على رهق يُبدد أنفاسها.

أوقات صمتها أصبحت تطول، شفتاها لا تنفرجان بابتسامة إلا
عندما تُراوغ زيدان لتوهمه أن كل شيء على ما يُرام، وأنها فقط مشغولة
بأُمور البيت والنادي والأصدقاء، أو بأُمور الشراء.. أو حتى بأُمور سارة
التي تحبها، لكنها دون أن تدري لا تغدقها بما تحتاجه.



العم عويش يعدها بزيارةٍ غير قريبة، فليديه ما يشغله في الأيام القادمة.

اقترب مولد سيدي الحسن الشاذلي، شالله.. يا سيدي حسن.

ضحكت حنين: إيه يا عم عويش حكايته بقى سيدي الحسن الشاذلي؟

حكى لها: كان الحسن الشاذلي يمشي مع رفيقه تلميذه في طريق سفر طويل، وفجأة أثناء الطريق طلب الشيخ من تلميذه أن يُجهز كفنًا.. فتعجب التلميذ: لماذا؟! قال الشيخ: في حميثة.. سوف ترى. وما أن وصل الاثنان حميثة حتى وافت الشيخ المنية، وانتهى به الأجل ففارق الحياة.

وهناك ذاع صيته بعد أن تناقلت الناس حكايته، وأصبح القول في حميثة سوف ترى مثلاً موره حكاية الشيخ.

وحيث دفنوه هناك أقاموا له ضريحًا لأنه ولي من أولياء الله العارفين، وفي كل عام يتوافد عليه الوفود من المحافظات المختلف زمراً، هناك في مولد الحسن الشاذلي ينصبون الخيام ويقفون في حضرته يذكرون الله ويتلون آيات الذكر.



سأله حين عن مكان ضريح الشيخ فأخبرها أنه هناك في أقصى
الصعيد حيث مكان جبلي بعيد.

الذاهبون لهُناك يأخذون معهم أمتعتهم من مأكَل ومشرب
وملبس.. وينزلون عن الناس في صُحبة خير ليس فيها سوى ذكر الله
والصلاة على النبي والصوم والصلاة.

كانت حين تسمع باهتمام ثم سأله: لكن الله موجود في كل مكان
في قلوبنا، من حولنا وفوقنا وبجوارنا.. الله نراه في الجمال وفي الطبيعة،
ونششم حضرته في رائحة العطر بالبساتين، هو الخالق.. وهو الوهاب.

كانت تستنكر منه أن يشد الرحال لأقصى الجبال من أن يذكر الله
هُناك، لكنها تذكرت: للناس فيما يعشقون مذاهب، ولكل غاية عظيمة
وسائل كثيرة وحب الله أعظم الغايات.

هو يرى في السفر مع الصُحبة مُتعة، ويرى في الالتفاف على غاية
الذكر والعبادة هُناك راحة لنفسه لم يعثر عليها بشيء آخر، فله ما يشاء
ما دام هو في دائرة الخير لم يفسق عنها، وما دام لم يتخذ من وسيلته
فتنةً تحيد عن الغاية الأسمى.



رن الهاتف.. دق قلب وداد، ارتجفت يدها ترفع السماعه، لازالت
تنتظر خبراً عن مُهاب يشفيها قبل أن تُغادر الحياة.

ردت: الو.. السلام عليكم.

صوت أحد الأقارب يُشرها: والنبي يا حاجة مُهاب كان معايا،
عملنا عمرة.. شوفته بعيني، لفينا حوالين الكعبة وصلينا في المسجد
النبي.

تهللت: صحيح والنبي يا حبيبي مهاب بخير؟! شوفته بعينك؟

- صدقيني يا حاجة.. وأنا هكذب عليك؟ دنا لسه راجع من
عمره.

- طب ما كلمنيش ليه؟!!

- معرفش يا حاجه أكيد هيكلمك.. أكيد هيرجع إن شاء الله،
الزحام هناك ما خلاش فرصة للكلام بيننا، أنا بس شوفته
بعيني دول اللي هياكلهم الدود.

- شكراً.. شكراً يا بني، في أمان الله يا حبيبي.

همدت على الأريكة التي ملتها.. وملت أنفاسها الحزينة أيضاً،
أخذها التفكير: هل حقاً من رآه هو مهاب؟!

- ربما رجل آخر يُشبهه.

- لكنه يُؤكّد أنه هو.. هو يعرفه جيّدًا.

لماذا لم يُعْذِ مهّاب؟! لماذا لم يتصل؟! هل هو حقًّا مهّاب؟!!!
لا أحد يدري!!



الشوارع تمتلئ بالزينة، بائعو الحلوى ينتشرون في كل مكان،
أقراص السمسمة والحمصية تعطي الأرفف، عرائس المولد تُجاور
الأحصنة والسفن متراصة بجانب بعضها البعض.

حين تمشي في شوارع الأزهر.. تشم رائحة النفحات.. تسمع
التواشيح، تتأمل الوجوه في الطرقات وبين البوابات.

الأنية العتيقة تنتصب بشموخ الماضي.. تأبى إلا العزة، الجدران
تقوم على الحجارة المتينة، النوافذ مُشرعة بالحديد المشغول،
المشربيات تُزين الشرفات.. فتحكي حكاية فن الأرابيسك العتيق.

عينا حين تجوب الأزقة.. تتنفس الصعداء، ترسل ابتساماتها
للسماء، تخبرها بحب الثرى الذي تسير فوقه.

على باب مسجدٍ قديمٍ تسمرت قدمها، سلمت ثلاث في منزل
بوابته التي تنفتح على ساحة واسعة، السجاد الأخضر يفرش الأرض..
السهاريج تضيء بضوء خافت، من جانب أحد جدرانها قام ذلك الرجل
يجر جر خطواته إليها، تشبثت قدمها بالأرض كأنها تلقت منه أمراً
بذلك، ثغرها بنظرة ثابتة فتلاحقت أنفاسها تتأمله.

جلبابه مُرقع برقع ليست على نفس الشاكلة، لحيته تطول موضع
النحر، رقبته تلتف بالمسابع الكثيرة، أشعث الرأس مُتحجر العينين..
غليظ الحاجبين.

تخفض البصر عنه فتتشد إليه من جديد، هاتف يدفعها أن تضمه
لصدرها وتطبطب عليه، عطب نحوه يُحرّكها، أخرجت من حقيبتها
نقودًا.. مدت يدها تعطيه فردها.. ولا زال صامتًا.

تناول من جعبةٍ قماشيةٍ يُعلقها في رقبته ورقة وقلم، جلس على
الأرض تحت جدار يُجاورهما، خط بالقلم بعض الحروف والآيات
وطوى الورقة فأصبحت حجابًا أعطاه لها: البسيها في رقبتك يا حنين
أو حطّيهما في دولابك.. بكرة السعد يخبط بابك.

كأن صاعقة سرت بجسدها، شرايين وجهها نبضت بسخونة، من
أين عرف اسمها؟! من هو هذا الرجل؟ ولماذا تشعر أنها تعرفه مُنذ
زمن؟!

ملامحه ليست غريبة عنها، كأنها رآته قبل ذلك، كأنها مكثت معه
وقتًا، كأنها شاركته اللعب والطعام والشراب والحكايات.

سألته عن أشياء كثيرة.. عن اسمه، وهل ستراه من جديد لو
عادت، لم يرد.. أشار لها أن تنصرف وهو يهز رأسه بنعم، يُؤكد أنها
ستراه كثيرًا.



السنون تمر رفيذة في المدرسة بين الأصحاب، تتعلم أن الأوقات تمر، وأن خُطانا لا بُد أن تدوس الأرض بقوة لتُواصل السير عليها، رباب علمتها ذلك، أخبرتها أن «مهاب» سيكون سعيدًا لو عرف أنها من المتفوقات، وأنه عندما يعود ستكون المفاجأة سارة بالنسبة له لو وجدها ناجحة.

ليس أمام رفيذة سوى أن ترضى بذلك، فهو الأمل الوحيد الذي يجعلها تمضي، هي بالحياة تشغل، بالأصحاب تتسلى، وبجدها تأنس، ولحضن رباب تأوي، فتتشكل على توازنات تجعل المصاعب تهون.

مهاب أصبح ذكراها بالنهار، وأمل يطل عليها في أحلام الليل بين اليقظة والنوم، تُرافقه الوجود وهي تعلم أنه غير موجود.

وداد بالليل تُؤانسها، تحكي لها نفس الحكايات التي كانت تحكيها لمهاب صغيرًا، تخبرها عن الأنبياء وكيف كانت مُعجزاتهم، تستلهم معها الحكيم فتغرس فيها القيم.

تنتقي لها من قصص الشعوب ما يثير شهية طفولتها، فتحب سندريلا التي عشقها الأمير، وتخبر وداد أنها تريد حذاءً مثل حذاءها، فتضحكان.

تحكي لها عن ست الحسن والجمال، وكيف كانت تعشق الورد وتحب الأشجار والعصافير، تُحذرهما من الثعلب المكار الذي كان يؤذيها لكنها هربت منه.

الأوقات تنسل من بين عينيها وهي تروح في نعاس، تستعد به
لاستقبال يومٍ جديدٍ ربما يكون بعودة مهاب يومًا سعيد، لكن مهاب
خرج ولم يعد بعد.



الصحراء تتسع، شدة الرجال هناك تقوى بصخور الجبال من حولها، أنفاسهم تشهق علوها، أقدامهم تدب في الأرض برسوخٍ يشبه رسوخها، حلبات النار تطول لهيب الشمس.

كلهم يكشفون التدريب على المشقة، فمهمة جهادهم هذه المرة مهمة شاقة، سامح وحده يعرف السر، وهو مُكلف بقيادة اثنين من أصحابه حيث يأمرهم فيأتمرون ومعه يسيرون، لا يسألون، فقط هم يستعدون.

أمير جماعتهم أصدر لهم الأوامر من سردابه الطويل تحت الأرض، هو هناك يجلس فوق مُتكَأٍ عالية حوله الأرائك المذهبة، الأرض يفترشها سجاد ثمين.

جلبابه الأبيض لا يطول رسغيه.. فوق بنطال، لحيته تفترس وجهة على كثافةٍ وسواد.

عيناه تبرقان من مكان من عقله الذي هو في حضرة التخطيط ليوم الجهاد، هاتفه النقال في جيبه وسماعاته تطول أذنيه حيث يرسل الأوامر فتصلهم هناك.. في الجبل القريب.

بالسمع والطاعة يتم التنفيذ، وبدقةٍ شديدة تتحرك الخُطى في غسق الليل على انتظار شمس النهار، حيث تتم العملية بتمام ما تم عليه الاتفاق.



رُفيدة تُجاور وداد الفراش، على نفس السرير الذي كان مُهاب ينام فيه في زيارته المُتكررة، لم تعد ابتسامات رُفيدة زاهية، عيناها شاردتان، ووجهها مُلون بالأحزان.

مالت على كتف وداد: هو بابا مش راجع بقى يا تيتة؟

تقطع قلب وداد.. طبطبت عليها: ربنا كبير يا حبيبتى، هيرجع بالسلامة، ويجيب لك حاجات حلوة.

- مش عايزة حاجات حلوة يا تيتة، أنا عايزة بابا.

لم تجد وداد ردًا، هي تُشاركها نفس الحزن، وتعدم مثلها الفرح، تتشبث بحبال كادت أن تذوب، وتسقط بها في هاوية اليأس من عودته، لكن الأمل في الله لا ينقطع.

صحبتها للمطبخ: قومي.. قومي يلا نجهز غدا ماما زمانها راجعة من الشغل، انتِ بقيت عروسة لازم تتعلمي تطبخي.

ابتسمت رُفيدة ابتسامة باهتة، وقفت معها في المطبخ تُشاركها إعداد الطعام، وتسألها من جديد عن أخبار تخص مُهاب، وليس عند وداد أية إجابة شافية.



العم عويش مع الرفاق في صُحبة خير، القطار يمضي بهم إلى مقام
سيدي الحسن الشاذلي، فذكرى مولده على الأبواب.

هناك في البراري حيث الرمال الصفراء دقوا الأوتاد ونصبوا الخيام
بين الجبال، وأعدوا عدة تجهيز الطعام؛ للإقامة تمتد لعدة أيام.

أشعلوا الموقد.. واستعدوا لنحر الذبائح، جهزوا الأواني الكبيرة
وأعدوا الأطباق ليضعوا بها الثريد واللحم، إطعام الطعام هناك من
شعائر هذا المولد.

الخيام كلها على شاكلة واحدة، لا خيمة واحدة تخلو من الخيرات
الطعام والشراب والشاي.

الليل هناك ليس ليلاً عادياً، الذئاب على قارعة الطُرقات تعوي،
فيشعلون النيران ليأمنوا هجمتها.

القمر يرسل أشعته الفضية بين حلقات الذاكرين فيزيد الشوق،
وتبدو عليهم علامات الوجد.

صوتهم يعلو معاً بأسماء الله الحُسنى.. والصلاة على الرسول الحبيب
وآله وأصحابه، حتى يُؤذن للفجر فيقيموه، ثم ينفلق الصبح عن يومٍ جديد
في حضرة سيدي الحسن الشاذلي، الذي يتمنى كل واحد منهم لو يطل
صحبه، لكن الأيام على هذا الحال تمر، وموعد العودة يقترب.



الأخبار تتواتر بضرب كنيسة العذرا ساعة قدّاس باكر، اللهيب
لم يزل مُشتعلًا، وعربات الإطفاء لم تنجح في إخماده بعد، صوت
الرصاص دوىّ.

علت الصرخات، ساد الذعر بين المُصلين، راحت الأرواح تنفذ
لسموات الأمجاد تاركةً أشلاءها على الأرض بين شلالات دماءٍ.

رؤوس لم تزل على بقايا أنفاسٍ بها أنفاس تتحشرج.. أذرع،
وأجزاء من أرجل، البعض تفحم فلم يعد لصاحبه ملامح، والبعض لا
زال الاستدلال عليه مُمكنًا.

نوال على صرخاتها في الشرفة: الحقوني يا ناس.. الحقيني يا
حنين، حنّه في القداس، حنّه راحت يا حنين.

تلطم خديها، عيناها زائغتان بين رواحٍ ومجيء في أشبارٍ تحت
قدميها، لا تدري أين هي، تبحث عن الباب فتصطدم بالحائط.

جرت حافية القدمين تتخبط بين السلّمات مُترجرجة، قابلتها
حنين، راحت تسندها، تُصاحبها الخطى للكنيسة.

بين الأهالي هناك تشاركهم نفس اللوعة، يعتصرهم ذات الحزن،
تأخذهم اللهوة على الأشلاء المُمزقة، يخطون فوق الدماء يتفقدون
الجثث المُلقاة، وكل يبكي على عزيز له.

نوال تخبط فوق رأسها بكفٍ فوق كف، تُنادي: حنّه.. حنّه، إنتِ
فين يا بنتي، ردي عليا، قولي أنا مش هنا يأمّه، أنا برّه.

دموع حنين تنهمر، تعض شفيتها الزرقاوتين من أثر الرهبة، تنظر
الجدران المهيبة بالسواد، صور القديسين على اندماسٍ تُشارك الجميع
أحزانهم، تُواسيهم وتوصيهم بالصبر: بسموات المجد... هناك الموعد،
الكل في الأرض شهيد السماء.

نوال تتزجج بني الأشلاء تقلبها يدين ملطختين بالدماء، ولم
تعثر بعد على حنّه، حنين تُجاورها الأشبار بصمت يعتصرها ألمًا،
هي لمحتها هناك على بُعد أمتار، تسمرت قدمها على مشهد رقادها
برأسٍ مُهشمة وجسدٍ بلا ذراع، آثار فستانها الذي تعرفه جيدًا.

تذكر يوم رافقتها الطريق لشراء قماشة من محل الأقمشة في الحي،
يومها عرجا معًا لبيت حنين، وداد أحضرت المازورة، أخذت مقاسات حنّه
التي جلست بجانبها تشهد القماش يصبح فستانًا تخطه على الماكينة.

الآن تشهده حنين بين الدماء مُمزقًا على أنصاف اختراق يواري
بقايا حنّه، الآن لا تقوى أن تخبر نوال أو تشير لها أن حنّه هناك.

كملت فمها بيديها تكتم صراخًا، وصراخ نوال علا، على هرولة
نحو جثمان حنّه: حنّه.. حنّه أهي يا حنين.

راحت تتحسس دماءها الساخنة، ضمتها فأصبحت في أحضانها
كهشيم تذروه الرياح، أجزاء منها تنفرك على أثر احتراقها، وأجزاء
ملقاة لا زالت ساخنة.

لا أثر يُؤكد أن هذه هي حنّه سوى بقايا فستان لم تته عنه حنين،
وبرائحة حنّه انكفأت عليها نوال.



الهاتف يرن.. قلب رباب يخفق في كل مرة يُطرق فيها الباب أو يرن الهاتف، لازال أمل مُهاب يُراودها.. لازالت تتعشم في عودته.

مضى نحوها صامتًا، أطال النظر إليها كأنه يعرفها، وهي تبحث في ملامحه عن شخص تعرفه جيدًا، ولكن ملامحه مطموسة عنها.

ردت: ألو.. مين معايا!

أحد الأصدقاء يجيبها: أنا يا مدام رباب.. كنت عايز أبارك على رجوع أستاذ مهاب بالسلامة، بعد السنين دي .

تلون وجهها : مهاب! رجوع مهاب! حد لقى مهاب؟!

تعجب: الأستاذ مهاب كان معنا أُمبارح في مسجد السيد البدوي.. صلينا العشا جماعة، لمحته بس الدنيا كانت زحمة، وبعد الصلاة مالقيتوش.

- مش ممكن أنت بتقول ايه؟!!

وضعت السماعة.. انهارت بُكاءً.. حيرتها أخبار مُهاب المُتواتره عن وجوده المعدم، أحقًا هو رأى مهاب؟ أحقًا مُهاب الذي صلى معه العشاء في السيد البدوي؟! فلماذا لم يُعدّ إذًا! لماذا لم يتصل؟!

نظرت لرُفيدة النائمة على السرير، سألت صورته المُعلقة على الحائط: ألم يأخذك الشوق يومًا لرُفيدة التي لا تمل صُحبتك في أحلامها رغم مرور الزمن؟ دعت الله أن يريح قلبها بخبر يقين عنه.



ردت على الهاتف: أهلاً.. أهلاً، ده أحلى خبر النهاردة فعلاً، هكون في انتظارك.

أخبرها الشيخ الطيب أنه الآن يركب القطار القادم من بلده بالصعيد «سوهاج» ففرحت.

انطلقت للمحطة استعداداً لاستقباله، وقفت هناك على شوق رؤيته تتلفت عن اليمين واليسار، تنصت لصغير القطار الذي يعلو عن بُعد، حتى وقف أمامها، فراحت تتأمل النازلين من الأبواب المتجاورة.. تبحث عنه.

مشت بمحاذاة العربات تتفقد عربة (٩) حيث عندها وجدته كما أخبرها، سلم عليها.

أخذتهما الخطى نحو حي الحسين وهو يحدثها عن المفاجأة، فمن اليوم يستعد المحبون لمولد الحسين.

راح يحدثها عن مظاهر هذا المولد التي لا تعرف عنها شيئاً رغم أنها من سكان القاهرة.

حكى لها أن أفواجاً من الصعيد وغيرها من المحافظات تأتي لحضرة هذا المولد تكريماً لسليل آل البيت «سيدنا الحسين رضي الله عنه».

سألته عن طقوس ذلك المولد.. فوعدها أن تري بعينها هناك، حيث يتوجهان لساحة المولد.

هناك كانت تنتشر الشوارد ذات الأقمشة الملونة، وتتعلق اللافتات المعلنّة عن احتفال أبناء إحدى الطرق بالمولد تكريماً لذكراه.

كانت الشوارد تمتلئ بالأطعمة والمشروبات، الموائد تمتد باللحوم.. والأرز.. والثريد، وعلى الجانب المقابل نصبة خاصة للشاي، حيث موقد كبير يعلوه براداً ضخماً يغلي فيه الشاي، ثم يُصب بأكواب زجاجية على الحاضرين.

أشار للشادر: شوفي الخدمة اللي هناك دي، بتاع قراينا من سوهاج، صحبها ودخل فألقى السلام على الحضور، همّوا جميعاً للسلام عليه والترحيب به، وعلى الفور أحضروا لحماً وأرز وخبزاً مُتتفخ أحضروه معهم من الصعيد يدعونه «عيش شمسي»، فعلوا ذلك مع الرائح والغادي، ومع كل من يلقي عليهم السلام، شكرت لهم حسن الصنيع، ثم خرجت معه يُواصلان المسير.

راح يحكي لها حكاية صاحب هذه الخدمة أو صاحب هذا الشادر والمنوط بإقامته.

كان جده منذ أربعين سنة يأتي بهذه النذور لمولانا الحسين في يوم مولده تكريماً لذكراه ومنها يطعم الطعام، وأخبرها أنه كان من أصحاب طريقة؛ فسألته عن شأن هؤلاء.. وماذا يفعلون.

أجاب: كل من على طريق الحق بعد ليس له سوى ذكر الله والتقرب له، بحُبّ الله ورسوله وبحبّ آل البيت، يطعمون الطعام ويفشون السلام ويصلون والناس نيام.

في حضرتهم يذكرون الرحمن الرحيم ويصلون على نبينا الكريم
ويسألون الله من فضله العظيم، ينتقون بأرواحهم على دنس أجسادهم،
ويتلقون صفو حقيقي، ونسأل الله أن نكون من عباده المخلصين.

مرّاً طريقهما على باب خشبي عتيق يتوارب على ساحة واسعة يجلس
فيها رجال تُنبئ العمام المُلتفة على رؤوسهم بأنهم من أهل الصعيد.

عرج بها: والخدمة دي برضه من عندنا من سوهاج.

رائحه اللحم تفوح، الأبخرة تعلو فوق القدور الكبيرة المنتصبة
على شعل النار، والأطباق الخوصية تمتلئ بالأرغفة المخبوزة.

جماعة يلتفون تبدو عمامهم المُلتفة حول رؤوسهم كأنها دوائر
بيضاء تمر مع بعضها البعض في تروسٍ دوائر مُتجاورة ومُتداخلة،
أصواتهم تعلو بذكر الله.. ينشدون المدائح، العارج عليهم ينضم
لحضرتهم فتزيد الألسنة الذاكرة لساناً.

الأغنياء والمساكين هناك سواء؛ فلجميع نصيب من الطعام
المنذور لوجه الله، فإطعام الطعام من أحب الأعمال إليه.

واصلت معه المسير، الأزقة هناك في حي الحسين على عقبها
التراثي، الممرات بين البيوت ضيقة تنفرج عند نواصي يجلس عليها
بائعو الخضر، والفاكهة الذين يفترون الأرض بأقفاصٍ وأطباق من
الخوص، ويضعون أمامهم موازين من الحديد ذات الكفتين.

المارون هُناك في هذه الشوارع على أشكالٍ وألوان، قزَمٌ بجلباب
واسع وطاقيّة، رجال لحضرةٍ أو لشادر خدمة مُتجهون بجلاليب
وعمائم.



سيدة تتلفح شالاً أسود يلتف حول وجهها، تبدو بملامح حزينة وعينين مهمومتين، تسأل جالساً أو سائراً من فضل الله، أطفال وكبار.. شيوخ عجائز.. وسيدات، لهجات ولكنات هناك، فالحسين نادى الجميع من قاطبة البلاد.

على نفس اندهاشة وجهها تسير بجانبه، تتأمل منصات الحلوى عليها الحمص، والفول السوداني.. والحلاوة والشعر، المزامير والطبل.. السلاسل الذهبية، قراطيس الرأس.

ألوان من البشر يفترشون الأرض، وشوادير الخدمة تمتد للجميع عند لافتة خضراء مكتوب عليها مسجد «أم الغلام فاطمة» وقفت تتأمل ذلك الاسم، أخبرها أنها أم الغلام من أولياء الله، يُعرَف أنها جاءت برأس الحسين من بغداد إلى مصر فدفنت حيث مثواها.

ولما عُرِفَتْ أم الغلام بالتقوى والصلاح، أقاموا لها ضريحاً في هذا المسجد، منزل يضيق على عدد من السلّمات الحجرية، وينتهي ببوابة خشبية ذات ضلعتين.

ينزل الزائرون فيمرون منها إلى داخل المسجد حيث يلتفون حول الضريح، فيتوسلون بالدعاء ويتشفعون بأم الغلام كرامةً لوجهها.

في الشادر المقابل لمسجد أم الغلام لافتة مُعلقة في الهواء لأبناء العارف بالله الشيخ حسين عزام، ذلك الرجل الذي اعتاد النذر للحسين في ذكرى ذلك المولد المشهود كل عام، ومنذ أن رحل وأبناؤه على نهجه يسرون.

واصلت معه السير، حيث شهدت ذبح الجمل الذي أحضره واحد من المُحبين، طووا المسافات وجاءوا للحسين مُشتاقين، ولأولياء الله مُشتاقين.

كان الأطفال في الشارع يلتفون حول الجمل يفرحون بوجوده.. ويتأملونه، وقفت وسطهم كطفلةٍ، التقطت معه صورة لذكرى ذلك اليوم الأخير في حياة الجمل، والمُميز في حياتها هي، فما أحلى صُحبة الشيخ الطيب عويش! الذي حفر بذاكرتها كيف يكون مولد الحسين كل عام.

آذان المغرب يرتفع، ورواد المكان يزدون.. يتوافدون من كل مداخل الساحة، وحُدام الشوارد تزيد همتهم إكرامًا للضيوف الذين يحمل بعضهم النفحات من أكياس السكر والشاي.. والعصير، فيهديها للمكان زيادةً فوق زيادة فتتضاعف فيه الخيرات.

المساء يزيد نوره بأفرع المصابيح المُعلقة، شوارد الخدمة تضيء، أناشيد المديح تعلو وتعلو، وذكر الله ورسوله يفوح بروائح الكرم والخير.



السنون تمر، ترسم على وجه رباب تجهّمات اليأس من عودته،
هي تكتفي بالرضا، وتأمل في مستقبل ابنتها.

المدرسة أصبحت بالنسبة لها نافذة تطل على عوالم بعيدة في عيون
تلاميذها الصغار.. أصبحت لديها رسالة تؤمن بها، هي تبني العقول..
تؤسسها قوية حتى لا تنهار بسهولة.

هي ترى في كل عقل تبنيه عقل مُهاب الذي كان مُوهلاً للضياع،
كان مُوهلاً لأن يصبح دُمية في يد من يُشكله بأفكارٍ، تسحبه من ذاته
ليصبح مستخاً لآخر.

هي تُعلّم تلاميذها كيف يكون الإنسان قويًا، كيف يكون مُفكرًا،
مُتأملًا.. كيف لا ينقاد.

تشكيل العقول هو الرسال العُظمى في هذه الحياة، تشكيل العقول
هو الأمانة الحقيقية التي استخلفنا الله في الأرض من أجلها، فبالعقل
كرمنا.

هي ترى في عيون رُفيدة وأصحابها مُستقبلًا تتمناه.. عوضًا عما
راح.

تعلمت الآن أن الأقوياء يصعب تحطيمهم على صخور الجهل،
فأقسمت أن تبني رُفيدة قوية، وأن تبني رسالة.

هي في حضرة تلاميذها.. تخط سطور رسالتها في بناء عقوله، هي لم تردهم يوماً مريدين إلا للعلم.. للثقافة.. للحب، وللخير.. وللعشق الإلهي الحقيقي.

تُحصنهم من خطوات الشيطان عند أبواب المعابد لا الحانات، تحفر في عقولهم أن الوعي هو الحارس، والحدس هو الجُندي المجهول، فبالإحساس الصادق تستنير المجهولات وتوضح المُبهمات. رباب تُعلِّم جيلاً كاملاً أن حضرة الحياة لا تمضي بمريدين، ولكنها تصبح أكثر حلاوة بالعاشقين للنور والخير، للمُتمثلين بالأمل والتفائل والقوة.

في حضرة الحياة تُعلمهم أن يرفعوا رؤوسهم لأعلى، ولا يغضون الطرف عن الصغائر فيقعوا ضريبةً لكبائر.

بقوة النور يُمحى الظلام وليس بالنور ذاته، هم معها يتشكلون على خارطة زمن قادم يفتح أبوابه لشمس معارف جديدة.

لا تعرف سطوراً في أوراق صفراء مُلغمة بالظلام والألغاز الخفية، ابتسامات تلاميذها برعمات زهور تنبت على كفي رباب.

تنتظر يوماً قريباً يفوح فيه العطر، يخبر العالم أن للعبير ملائكة تنتصر على شياطين المباخر.



السنوات تمر.. ورفيدة بلا خيار تكبر، جرحها يومًا لم يندمل،
الذاكرة تتشوش، وغيبة والدها تنحفر بعلامات استفهام لا تنتهي.

ألوانها لم تجف، نفس الوجه الذي ترسمه فتشبهه ملامحه ملامح
مُهاب، تُلون ملبسه بنفس ألوان الملابس المُعلقة في الدولاب كما هي
على الشماعات، كأنه لم يزل يرتديها.

رفيدة تبحث عنه بداخلها، تُحدثه فلا يرد، خيالات صورته لا
تُفارقها، ملامحه ترسم بين أصابعها على صورٍ كثيرة أصبحت له،
مُعلقة على حوائط حُجرتها، وجهه بين الصمت والابتسام.. عيناه معها
في حديثٍ دائم سكت عن الكلام.

رفيدة تستوي على عودٍ يتبدل، ينخرط بتفاصيل جديدة، ومُهاب في
صوره الكثيرة كما هو.

لا تعرف كيف أصبح الآن، لا تدري أن شعرات بيضاء انخطت
بناصيته وكسرات أصبحت في وجهه، لا تعرف أن لحيته الكثيفة
المُبشرة.. الآن تُداري تفاصيل ملامحٍ على سرعة تُغير من أثر الغياب،
لا أحد يدري أين مُهاب.

هي تحتفظ به في ذاكرتها التي تشوشت عن الأحداث، ولكن
الصور تحفظها.. تُذكرها بأن لها أب تتمنى لو أنه على قيد الحياة،
وأنه يومًا يعود.



تواصل الحياة بأمل سارة، ابتتها الوحيدة من زيدان بالأوراق الرسمية، وذكرها الباقية من أثر مهاب الذي اختفى عنها بعد ليلة ذاقته وذاقها على حلاوة لم تنساها.

على بعض الشبه منه تذكرها به، نظرة عينيه، روحه، وابتسامته، وشبه ملامحها هي، فبكلاهما تشكلت سارة.

اكتفت بها، أعلنت لزيدان أنها لن تلد غير سارة، وأقنعت أنه لا يكتفيان بها نصيباً من الذرية، كرر المحاولات معها لإقناعها بالإنجاب ثانية، بلا جدوى، ومرت السنوات على نفس القرار بلا تغير، هي لا تريد منه خليفة.

سارة هي نبت الفرح في عين زيدان، يراها ابنته التي أغدقته بها الحياة، وصافيناز تشعرها أنفاس مهاب الغائبة عنها.

السنوات تمر بين السفر والعودة، صفقات زيدان تستمر، والأم صافيناز لا تنتهي، وسارة بينهما تمضي على سنوات عمرها، تستوي على عودها.



صافيناز في طائرة خاصة تجوب الفضاء، تُحاول أن تنثر همومها في هواءٍ غير الهواء الذي تشممت فيه غياب مُهاب، تنزل أرضاً غير الأرض، ربما تنساه وتنسى سجن زيدان أيضاً.

هي في الطريق لشواطئ تركيا، كما اعتادت أن تقضي إجازة على عزلةٍ إلا من أسرارٍ لا أحد يعرف عنها شيء.

من هناك تأتي بأحدث أزياء الموضة لتليق بمجتمع لا تحبه، مجتمع زيدان الذي يتنافس فيه المتنافسون بالمظاهر الخادعة.

زيدان يُواصل الصفقات في أرجاءٍ لا تعرفها، يُهاثفها فيطمئن عليها، يكفيه منها: الحمد لله بخير، فلا يفتح مجالاً للعلم بما هو لا خير، ما دام يغدقها بالمال فعليها أن تحل عن رأسه.. هكذا يرى.

سنوات مرت كالبرق، سارة في بيتٍ واسع، لا يُؤنسها سوى خادمة أجنبية لا تتحدث العربية، تضع لها الفطار على السفرة في موعد مُحدد، ثم تجلس لتقرأ الجرائد والمجلات، تملي عليها مواعيد اليوم، تخبرها أن موعد المدرسة حان، وعندما تعود فلا بُد أن تكون جاهزة لتناول الغذاء في الساعة المُحددة، وبعد ساعة من الغذاء يحين درس اللغة العربية، موعد النوم في الثامنة تماماً ليس لها أن تتأخر لحظة.

سارة تهز رأسها بالعلم، وتؤكد أنها ستُنفذ الأوامر بالحرف الواحد، تشعر أنها دُمية مُبرمجة مُحتبسة المشاعر، ليس لها حتى أن تبسم ما دامت هذه الخادمة لم تفسح لها مجالاً للتبسم.

تنصرف من أمامها لتقضي بنود اليوم وهي تغدقها بسيل من اللعنات، صراخها يعلو في أصداء نفسها، ودت لو تخبر الجميع أنها تجمدت، وأن قلبها الصغير لم يعد قلب طفلة، ودت لو تعلمهم أنها تعبت، وأنها تحتاج للحنان والدفء، وليس للمال والخدم.

تتفحص أركان البيت على غياب أمومة تفتقدتها، تنتظر رنات هاتفها لتتلقى مكالمة من صافيناز لا تزيد على دقيقة أو اثنين مُحملتين بوابل من النصائح: اسمعي الكلام يا سارة، ذاكري كويس، ونامي بدري، لو عايزه حاجة ابعتيلي ماسج.

الوقت لا يسع للرد، الخط ينغلق قبل أن يرتد إليها طرفها، تدع هاتفها مفتوحًا ربما يفيض بزيادة كلمة تُداعب مشاعرها، فلا فائدة.

الأصحاب في النادي يشبهون سارة في عطشها، هم مثلها أغنياء تبدو عليهم مظاهر النعيم، يرتدون أغلى الملابس ويمتلكون مصروفًا يكفي حاجات رفاهيتهم، لكن حاجات سارة تتخبط بداخلها، لا أحد يدري عنها شيئًا.

هي تبحث عن أمان يحتوي مخاوف لا تعرف لها سببًا، تبحث عن حب تجد أضعاف ما تملكه لا يكفي للتعبير عنه، سارة تبحث عن حضنٍ يحتويها، عن نفسٍ تصغى لها، تُشاركه الأفكار.. والأحلام.

تواصل لعبة التنس مع صاحبها، ترمي له الكرة فيردها، يقصد تصويبها حيث تصطدم بصدرها.

يدنو نحوها مُعتذرًا، يضم وجيعتها بيديه، يصحبها لسيارته لترتاح فيها بعض الوقت، ثم يُوصلها للمنزل.

حين من عشاق مطروح.. وعليها تُغار، تطوي الخُطى إليها عند
نفس الصخرة التي تنتظرها بين الحين والحين لتطمئن على شاطئ
الغرام، فهناك تحلو لها الخلوة في حضرة القمر، فحيث ترى جمال الله
تعالى في الطبيعة تكون حضرته.

تأمل الموج وهو يتلاصق كالزبد.. تلك تسايحها الليلية، تفضي
للبحر.. فيتلع الأسرار في أعماقه البعيدة، تحكي له حيث لا يسمعها
سوى ربها، علام الغيوب، تخبره بأشياء كثيرة وتطلب منه أشياء.

تنظر للسحاب فتراه غيمة تعلقت بين الأرض والسماء، تنتظر أقدار
النزول، تتأكد أن كل شيء مكتوب، الأنفاس مكتوبة.. والأفراح.. والأحزان.
القمر يتوارى خلف غمامات فينحجب الضوء، والأقدار تعيده من
جديد، هو بين أحضان الفضاء يتقلب بقدر، وهي في حضرة الأقدار
تهيم بعيون الباحثين عن الحقيقة.

لم يأخذها من فضاءات أفكارها سوى ذلك الرجل الذي يسير
على الشط ليلاً، يدب عصاه فوق الرمال، هي تعرفه.. هو.. قامت إليه،
تقدمت نحوه، نفس الرجل بجلبابه المُرقع، نفس حاجبيه المعقودين
ولحيته الطويلة، المسابح لم تزل مُعلقة في رقبته، ونظرته هي هي
نظرته، تسمرت أمامه، تتأكد من جديد أن شيئاً وراءه، وحكايات هي
تعرفها، لكنها فقط تنساها.

سلمت عليه.. فابتسم، هز رأسه، سألها عن السعد فأخبرته أن
أبوابه تفتح، وأنها حصلت على جائزة كبيرة.

أشار للقمر فنظرت: هو هناك ونحن هنا على الأرض.

انصتت.. واصل: بين الأرض والفضاء عوالم لا تنكشف إلا للعارفين، بالمعرفة ينجلي الصدا عن القلوب.

هزت رأسها، رفع سبابته يحذرها من دفع أبواب الخفاء بلا أدب، فلا يلومن إلا نفسه، لم تفهم مقصده، ظلت صامتة.. تُفكر، فليبحث العاقل عن حضرة ربه، فأينما كان سيجده، أو شكت أن تفهمه.

هو ينصحها أن تبحث عن الله في كل مكانٍ وزمان وأن تتأدب معه، فلحضرة الرب في القلوب قداسة، يشعرها العارفون.. ويجلها من يدعون المعرفة أو من يتخذونها سبيلاً لأهوائهم.

انتظرته يُواصل الحديث لكنه دب عصاته في الرمل ومضى، نادته أن ينتظر فلم يرد عليها، سألته إن كانت ستراه من جديد، رفع يده مُشيرًا بالوداع.. ربُّما على أمل لقاء.

بين نظرتها للقمر الذي حدثها عنه تواء.. والتفاتها إليه غاب، قلبت المدي فلم تجده، ربُّما عرج على الطريق، أو اختفى وراء مركب يرسو على الشاطئ، وربما شق البحر بعصاته، أو ربما أصبح أنفاسًا في الهواء، أو قد تكون حنين معه هناك بذاكرتها عند نفس الجدار الذي يجلس تحته عند مئذنة الأزهر، التي تعلو بالآذان، نفس الآذان الذي تسمعه الآن في مطروح مع فاروق التوقيت المحلي.



سارة بالنسبة لزيدان الأمل الوحيد في الحياة، هو لا يكف عن إغداقها بالمال، وهي لم تعد يكفيها أي عطاءٍ منه، تبحث في أحضانها عن عوضٍ لحضن صافيناز الذي لم تذق فيه الأمومة، ولكنها عنده أيضًا تشعر صمّتًا يدوي صداه في مغارة نفسها المهجورة.. المظلمة.

أنفاسها تعلو وتهبط على نفس الإحساس الذي يسكنها باستمرار، هي دائمًا خائفة.. لا تدري من ماذا، تشتاق.. لا تعرف لماذا تُراودها ليلاً خيالات لا تعرف خيالات ماذا، هي تائهة تتخبط.

زيدان ليس لديه سوى المال ترجمةً لحبه، وهي لا يكفيها ذلك.

...صافيناز أصبحت كإنسانٍ آلي بين اليقظة والتوهان، تتقلب أحوالها على فوهة زجاجة خمر.

لا تسأل سارة عن شيء، وسارة لديها إجابات كثيرة ودت لو بها تبوح، عن الأصدقاء، والمدرسة، والنأي، عن أحاسيس تربكها أحيانًا، ومواقف تمر بها عن أشياء كثيرة لم تُجربها، وأشياء ودت لو تجربها، عن حكايات تسمعها ولا تفهمها.

سارة تبحث عن مأوى، فتَهوئ في بئر وحدتها وفراغ أوقاتها من أنيس سوى المرأة.



رفيدة في كلية الفنون، اختارت حضرة الفن، حيث وجدته خير
أنيس لحياةٍ لو غاب عنها الفن لتاهت هي.

الخلوة بالفنون تأخذها لعالمٍ بعيد حيث روحها تهيم في سماوات
مفتوحة على آفاقٍ لا يراها سوى من يعرف ماذا يكون الفن.

هي الآن بالفن تنحت تمثالاً لمُهاب الذي غاب، لا تدري.. لا أحد
يدري إن كان من أهل الأرض أم أصبح من أهل السماء!

لم يزل يتشكل على أطراف أصابعها بنفس هيئته يوم أن رحل،
ذاكرتها تشوشت، لكن وجهه في البوم الصور لم يزل يُداعبها بنفس
ملامح الشباب، قامته فارعة على نفس نحولها، أتراه الآن اكتسى
لحمًا؟! لا أحد يدري.

وجهه على نفس الانبساط بابتسامةٍ حاضرة، أتراه الآن أصبح
وجهه كهلاً وتغيرت تفاصيله؟! لا أحد يدري.

يكفيها حضرته على ذات الهيئة التي تعرفها في صورًا حفظتها..
ولم تحفظه الأيام.

سنوات مرت ولا خبر يشفي عليل الانتظار، فلا انقطع الأمل ولا
توقف العزف على الأوتار.

رفيدة في أمسيات الوحدة تُردد الأغنيات بأن الغائب يومًا آت.



اليوم عيد ميلاد سارة، على غضن أنوثتها استوت، واستوت معها
فرحة زيدان بها.

في صالة كبيرة بالنادي فاجأها بالاحتفالية، أدار التورته تعلقو
فوق منضدة تتوسط المكان، أغاني عيد الميلاد، عزف الآلات، مطرب
وراقصات، وأصحاب سارة حولها من البنين والبنات.

المُفاجأة لا بُد أن تكون على مرأى الجميع ليرضي غرور سارة،
لتنباهي به، لتحكي عنه وهي فرحانة.

الستار المواجه يكشف عن سيارة من أحدث طراز باللون
«البنفسجي» الذي عشقته سارة، ربما هو اللون الذي يُشاركها أحزان
خفية، فالسريينهما دفين.

صوت زيدان يعلو وهو يخرج من جيبه مفتاح مُعلقاً في ميدالية
من الذهب: عريبتك يا سارة، وهي تضحك وترتمي في حضنه: شكراً..
شكراً بابي.

التصفيق يعلو، والتهاني تتبادل المكان حول سارة

صافيناز على أحد المقاعد تلوح لها وهي تُواصل مُكالمة هاتفية.



تحت نفس الجدار المُتهدم ينظر أرجل المارة بعينيه الشاردتين،
ويسرح هُناك في هالاتٍ من النور تتسع دوائرها.. تتداخل، وتتداخل
معها أشباح كونية في عوالم خفية، ربما هي عوالم حقيقية، وربما تكون
خيالية، وربما هي مفاتيح سرية في حيواتٍ غيبية.

لا أحد يدري شيئاً.. هو وحده يعلم إلى أين يروح، ومن أين يعود،
ولم يزل جالساً يُتمتم بتمتمات لا تتعدى أذنيه ينفث زفيراً محبوساً، أو
يلتقط شهيقاً كاد ينقطع عن الحياة.

هو تائه على نفس مرساه في الأرض، شارد في مستقر أبعادٍ لا أحد
يعلمها من بين الماشين.

أشار لها.. كانت صبية استوت على عود أنوثتها، قامتها مشوقة..
وجهها مُستدير، وعيناها مُندعجتان بسوادٍ، أنفها مُستدير.. لها سحر
ابتسامة تفوح برائحة حنان.

لمحته على بُعد مسافة لا زالت تفصله عنها يشير بيده داعياً لها،
لم تكن المرة الأولى التي يقابلها في الطرقات والشوارع، كأنها لقاءات
محسوبة الخطى، أو كأن السماء ترسل أوامرها.

تقدمت نحوه هو، تأكدت انه هو، كأنها تعرفه، كأن ماضٍ سحيق
خيوطه تتشابك في نفس الطريق الذي يلتقيان فيه على ثرى القدر.

تأملها.. كأنها كانت يومًا في الغيب نُطفةً يعرفها.. يشعرها، أو
حملها يومًا في ظهره فوق الأرض يلقاها بشرًا، وفي الهيامات يلمسها
روحًا بين الحقيقة والخيال كثير ما يُقابلها.

تأملته رفيذة بُرهة، مدت يدها إليه بنقودٍ لم يتناولها، أطال النظر
شاردًا.. طأطأ الرأس، مشى صامتًا، على وعد أنه سيلقاها من جديد في
طُرقات أُخرى من حيث لا تحسب له لقاء.



حماده في البدروم، سلمات ثلاث خف القهوة تأخذه لأسفل حيث
مخبأه السري، مصباح سهوري خافت وكنبة واحدة يفرشها كليم فوق
سحارتها، لا أحد يعرف لبضاعته طريق.

نزل على ترنحه الذي أصبح يُلازمه، فهو أبداً لا يفيق، دوماً على
نصف يقظة ونصف دماغ عالية.

زبائن حماده المخصوصون يعرفون الطريق إليه، يأتون بعرباتهم
الفخمة ليجدوا ركنتهم أمام الخن في البدروم مُجهزة.

زبون هذه الليلة، من مصر الجديدة.

خرج إليها: أهلاً يا مُزَّ، إيه الأخبار، عجبك الصنف؟!

رمقته بعينين نصف تائهتين، يحيط بهما السواد، هزت رأسها: آه..
آه طبعاً وإلا مكتتش جيت تاني.

هز رأسه مُقتدراً: بس على حظك والله النهاردة.. يُك، مفيش.

أحمرت عيناها، كادت يركبها الجنون، نزلت بسرعه من السيارة:
لا مفيش إيه.. اتصرف.

أخرجت من حقيبتها رزمة نقود ورقية: أنا جايه اللي أنت عايزه.

سألها: مقولتليش اسم الكريمة إيه؟

ضرب كفيه: ياريت يا مُزَّه، والله غليّ علياً وعليك، بكره، بكره
ربنا يفرجها، روعي النهاردة.

جئت: لا يا حماده اتصرف، هديك الي أنت علوزه.

راوغها: شوفي أنا عندي كام شمه شايهم لواحد غالي عليا قوي،
جايني بعد ساعة، خديهم وأمرني لله، وأنا هطرؤه لما يجي، يستناني هو
بقى.. خدي، أصلي والله أصلي.

أخرجت رزمة نقود أخرى: ربنا يخليك يا حماده، وأنا تحت
أمرك.

أخذ النقود، وناولها المطلوب: خديهم وطيري من هنا، امشي
لقدام واكسري في التقاطع، أنا مشوفتكيش، يلا اخلصي مش ناقصين
بلاوي.

راح يعد النقود وعيناه تبرقان: أهني دي الزباين ولا بلاش، مش
المأشفرين اللي في الحارة، مفكرين ممكن ياخدوا استروكس أصلي
بالملاطيش اللي بيدفعوها.

عاد إلى البدروم، جلس على الكنبه وأمامه منضدة خشبية، أدار
مذياع الهاتف المحمول على أغنية راح يتمم معها:

آه لو لعبت يا زهر

واتبدلت الأحوال

وركبت أول موجه

في سكة الأموال

أخذته الجلالة، قام يهز جسده السمين، ويبدل بيديه في الهواء،
جلس من جديد يجهز الصنف المضروب لأصحاب الملاطيش القليلة:
كل برغوث على قد دمه، وأنا يعني هديهم استروكس أصلي بفلوسهم
دي إزاي؟

افترش ورق البردقوش المُجفف، راح يرشه بسم الفئران والمبيد
الحشري وفوقهما بنج يعرف نوعه الخاص: بس كده تمام، ينشف
بس، ويبقى مِيَّه مِيَّه، ولا أجدع استروكس، يلا يا ولاد الاستروكس..
هههههه.



حنين على شاطئ البحر في إجازة صيفية، تقضي خلوة.. خلوة
تأمل تبحث فيها عن الله وتبقى في حضرته، تراه في نور الشمس التي تمد
الدنيا بعطاءات كثيرة، في أعماق البحر الذي ابتلع نبي الله يونس في بطن
حوتٍ من حيتانه فمضى في الظلمات مُسبِحًا.. مُستغفِرًا.

تُقلب يديها حَبَّات الرمل الناعمة، تتعش برذاذات الموج
المُتلاحق وتُفكر: مُنذ أن خلق الله الكون وشق البحار وأواجهها تتلاحق،
فلا تطول موجة أخرى.. ولا يتوقف الزبد.

تنظر إلى المدى البعيد: خلف البحار بلدانًا على شراكة نفس
شاطئه، الأوقات حلوة.. رائحة اليود تعبق أنفاسها، عقار الساعة تمر،
وحنين تأنس صديقها البحر، تُحدثه عن أشياء كثيرة فلا ينشغل عنها،
تسمع صوت الله في آفقه يرد عليها، يُطمئنُها أنه معها.

الغروب يقترب على شوق حنين له، تنتظر هذه الساعة الساحرة
لتشهد عودة الشمس لأحضان السماء في عرس الشفق الأحمر، تغيب
هو بيننا على استحياء، فينسدل الظلام رويدًا.

سكون الليل يأخذ حنين لأحضان البحر من جديد.. لأعماقه
البعيدة، القمر يهل عليها من وراء السُحب فترسل له ابتسامات
الترحيب، من بين أشعته الخافتة على الرمال، يظهر نفس الرجل بنفس
جلبابه المُرقع بنفس لحيته الكثيفة التي تُداري ملامحه، بنفس مسابحه،
وملامحه التي تعرفها حنين، ملامحه التي تُشبه غائبًا تكتوي على فراقه،
يُبادلها الحديث.. ولا يمهلهما الوداع.

يُبشرها.. تسأله ويجيبها عن أشياء حيرتها فتشفي، مدت يدها
تُسلم عليه فشق البحر بخطوات واسعة، جلبابه يتل وهي تُحذره أن
الموج عالي، لم يرد عليها ولم يعد ظاهراً أمام عينيها.

هل وارتة ظلمات الليل فلم ينكشف لها في العتمة؟ لا أحد يدري!
هل شق البحر ومضى؟ عجيب ذلك.. ولكن لا أحد يدري! هل كانت
حنين في غفوة حضرتها تهيم؟ لا أحد يدري!

نور الشمس سيمحو ظلمة الليل بعد قليل فيدب السعي بالنهار
وتسدل الستار على ذاكرة مُتعبة.



رفيدة تُواصل الخطوات، على مُحاولات الصمود تعلمت أن
القوة هي السبيل الوحيد للاستمرار في الحياة؛ فالضعفاء على صخرة
مصاعبها يتحطمون، لم يزل غياب والدها جرح غائر، أفراحها يومًا لم
تكتمل بدونه.

شجرة عند شاطئ النيل هي أنيس أحزانها، هناك تجلس تحتها،
تخبرها بأشياء كثيرة، تحكي لها.. تسألها وتنتظر رد السماء.

لم يزل يشغلها أمر ذلك الرجل الغريب الذي كثيرًا ما يظهر لها
بالطريق، ملابسه رثة مُرقعة، خصلات شعره الطويلة مُتشابكة، ملامحه
لا تبدو من بين حاجبيه المُنعقدين، ولحيته الكثيفة ووجه المُمتلى الذي
اعتراه بعض الكهولة.

عيناه ترقبانها بصمتٍ كأنه يرقب طائرًا في فضاءه البعيد، يُتمتم
بكلمات غير مسموعة، يُشير إليها بيديه كأنه نشر فوق رأسها غبار
سحري.. ثم يمضي شاردًا.

تُتابع خطواته المُنهكة وعصاته التي تناصلت أخشابها فيظن من
يراها أن السوس ينخرها، لكنه يدب بها على الأرض دبةً تومئ بأنها ما
زالت قوية.



رباب على نفس نحولها، وجهها لم تُبدله الأيام كثيرًا، غير أحزان
بين ثنياه ارتسمت.

هي بالليل وحيدة، تتسلى بأنس رفيدة، ترقبها خلف بوابات
فنها، ترسم.. أو تُردد الأغاني أو تنحت وجه مُهاب على ضوء القمر
من خلف النافذة، تطمئن عليها ثم ترقد في فراشها، تتنازع الأحلام في
حكايات مُهاب، تجوب البلاد بحثًا عنه وتستيقظ من جديد على غيبته.
يأتيها زائرًا بين يقظة واقعها ومنامات أحلامها صورة تتبدل حيث
لا تدري كيف أصبح الآن وكيف أصبحت شاكلته.

يرسل لها الرسائل عبر ابتسامات تُشاركها الفرح برفيدة، أو دمعات
تُشاركها الأحزان، فهو معها على شاكلة الأزمات يتبدل بين حلاوة
ومرار.

مرات يسألها عن وداد ويوصيها خيرًا، ومرات يُحدثها عن يونس
وكأنه أصبح في عالم الأموات، ثم يأتيها من جديد بالبُشريات، ويعود
مرات أخرى حاملًا المُنذرات.

طيفه عنها لم يغب، والأمل بعودته لم يذبل رغم السنوات، الأمانى
لم تزل خضراء رغم أنها عدمت منه اللقاء، لكن حضرته تُرافقها فدومًا
كان بالقرب منها بين اليقظة والمنامات.



نوال في حضرة اليسوع.. تحكي له أحزانها.. تعده أن تُواصل
العهد، فهي على معموديتها باقية رغم الهموم.

صوت حنّه يتردد حولها كما كانت تناديها، ضحكاتها تُجلجل..
تتلفت حولها، فلا تجد سوى خيالات أفكارٍ تطبق على أنفاسها،
وحقيقه غيبة أبدية لم تعد منها حنّه.

صوت صبحي كأنه هو: قومي جهزي الأكل يا نوال، تهـم من
مكانها.. تتلفت من جديد على فراغٍ حولها.

تهرب من ذاكرة ذلك الألم، وتغمض عينيها لأحلامٍ يقظةٍ يُراودها،
صوت سمعان هناك في البلاد البعيدة غريباً: ازيك يا أمي؟

- عامل ايه يا حبيبي؟

- نشكر الرب يا أمي.

تضمه لصدرها.. تجهش بالبكاء، لا يأخذها من حلمِ حضنه سوى
رنين الهاتف يعلو بجانبها، فتلتقط السماعة، صوت سمعان يطمئن
عليها..

لم تعد بحاجة الآن لمجرد كلمات، هي تحتاج يدًا حانية تُساندها..
تمتد لها بغطاءٍ، تطبط على ظهرها الذي أصبح مُنحنيًا.
كلماته تطرق أذنيها والأفكار تدور برأسها، ودت لو تصرخ فيه..
آن الأوان لتُصاحبني.

ودت لو أخبرته أنها الآن طفلة من جديد، تخاف الظلام وتخشى
سيرة الأشباح، ودت لو تحكي له عن برودة الحوائط من حولها، وعن
هواءٍ عبر الغرفة لا تدري من أين ينفذ فيثلج عظامها.

لقد أغلقت كل النوافذ وأسدت الستائر وما زال ينفذ من ثقب
وساوسها، هو يحدثها عن أحوال العراق، وهي على هيمتها في ربة
أفكار، تتمنى لو تنطق بها فيسمعها، يعدها بجلباب قطيفي ناعم، وهي
تتمنى نعومة مشاعره ليحن عليها ويأتيها يُؤنس وحشتها.

ودت لو تصرخ فيه: لا أحتاج الآن جلابيب، راحتي لو أنك تعود..
أُمنيّ الوحيدة أن أرى وجهك الغائب.

تنهدت: ربنا يوفقك يا بني.. تصبح على خير يا سمعان، خلي
بالك من نفسك يا حبيبي.



عادت إليه من جديد تأتنس بظلمة تداريها عن الأعين، تسلك
الطريق الخلفي للمنطقة، لتقف وراء القهوة حيث الخُن في البدروم،
بعيداً عن الأعين.

على رنات هاتفها تأكد حماده وينجز من وصولها، وضع صينية
الشاي على المنضدة بجوار الدومنا: أحلى شاي لأحلى زباين، خمسة
بس، أعمل زي الناس وتلاقوني في وسطكم تاني.

اختفى من بين زبائنه تاركا التلفاز يُسليهم، كانت في انتظاره: أهلاً
يا مُرّه.. نورتي، مش عايزه برضه تقولي على اسمك؟

من يده يرتبها: بشوقك يا حلوة.

أزاحت يده، اتخذت خطوة للوراء.

ابتعد عنها: لا يا حلوة.. متخافيش، احنا ولا بلد وجدعان، وأنتِ
ضيفة عندنا، إلا بنات الناس، إحنا برضه نعرف نحافظ عالولايا.

لم تكن كعادتها، كانت تركبها أحزان وهموم لم يرها من قبل،
ربما يعرف توهانها بسبب الصنف، أو توترها إذا الصنف غاب عنها،
ولكن مثل هذا الهم الذي يركبها، لم يلحظه.

كتف يديه على صدره: مالك يا بنت الناس أنا زي أخوك، ولا
أحنا طبعاً مش قد المقام؟

دارت وجهها بكفيها، راحت في نوبة من البكاء كادت تزهق
أنفاسها.

صاح بها: مالك يا بت؟! ما تردي.

خفضت عينيها، عرف منها أن أحدًا أحدث بها ما حدث، وأنها
لم تعد بكرًا.

قبضها من ذراعها: الله يخرب بيتك، قوليلي مين هو وأنا أجيبك
رقبته.

لم ترد عليه، ولم تقبل أن يُقدم لها مساعدة، اكتفت بالفضفضة له،
وعادت لصمتها.

أخذته الغضب: روعي.. روعي يا بنت الناس مشوفش وشك هنا
تاني لفيوم تجييلي بلوه، تقولي حماده وينجز، الله يخرب بيوتكوا.

ركبته الحالة: ماتغوري من وشي.. يلا.

فتح باب السيارة، يلا يا ختي، يلا لأغرك.

خافت من هيئته، ركبت وأدارت مفتاح القيادة، تحركت بالسيارة،
وعاد هو لشفقته عليها يضرب كفًا بكف: استغفر الله العظيم.

ناداها: خُدي.. تعالي، أنتِ يا اسمك إيه أنتِ يا مُرّة.

لم تُعد، ولم ترد.



صافيناز تُواصل مشوار الألم، تعيش على ذكرى مُهاب، السنون
مرت على عجل، ومشاعرها كما هي.

تراه في خيالات أحلامها، تبحث عنه بين الحين والحين في عيون
سارة التي تُماثله نفس النظرة، ونفس الغمزة، الأموال لم تُوفر لها
سعادة.

هي في حضرة كاساتها كل ليل على تخاريف، لا تدري أنها تبوح،
شعاع القمر ينفذ من شباك حبرتها، وصوتها يعلو تسأل سنينها
الماضية عن ألم دفين أصبح جزءاً منها كانت تظن أن الأيام تمر
فتنطوي معها الجراح، والحقيقة أنها تمر فتدوس فوق الجراح، تغور
بها، وتزيدها ألماً.

سارة تقوم في منتصف الليل على خترفات صافيناز، تدخل إليها في
الحجرة: حرماً عليك يا ماما، كفاية.. كفاية بقي.

تسندها، تُساعدُها ترتمي فوق السرير مخمورة، لا تدري بشيء
حولها، تطيل النظر إليها بحسرة قلبها المُنكسر، تتمنى لو وجدت
عندها حُسن أمومي يحتويها في تجاويف ذلك الليل الساكت.

تركتها وخرجت من الغرفة، وارتب الباب على رائحة أنفاسها
المُعَبَّقة بأسرارٍ قاتمة، لمحتها سارة من بين كلامها المُبعثر وهي
مخمورة، عرفت أنها تُحدث في خيالها رجلاً آخر غير زيدان والدها،
وأن اسمه مُهاب.

ليست المرة الأولى التي تلمح سارة ذلك، ولكنها دومًا لا تجرؤ أن تسألها ولا تخبرها أنها سمعت منها شيء.

سارة في سريرها تتوحد آلام العجائز، تبحث عن برعمة شباب تذبل بداخلها على بدايات تفتحها، تتحسس تقاسيم وجهها المهموم. ذبذبات نفسها تتردد على ثقة تكاد تنعدم، واحتياجات تزيد فتختل صحتها النفسية، تصبح وكأنها خيوط مُتشابكة تتعقد تداخلاتها وتختلط ألوانها فتُلطخها ببقع غير مُحددة.

كل ما تعرفه أنها تائهة، وأنها تبحث عن أشياء غائبة في متاهات لا تستطيع الخروج منها، هي أصبحت طرفًا من خيط لا تعرف أين آخره، لا تعرف سوى أنه موجود بين الخيوط الكثيرة المُتشابكة بداخلها.



اليوم هي تحت السلّمات داخل البدروم، فالصنف الجديد لا بُد أن يحقنها به حماده بنفسه، وهي بذلك ترضى، ومن أجله جاءت.

مدت ذراعها، لم تكن تعرف أنه على هذه المهارة في ضرب الحقن، ضحكت، بشفاهٍ على نصف انبساطه: دكتور، والله دكتور، دكتور... تور.

قهقه حماده: الله يعزك يا مُزّة، ده بس من ذوقك، خدي نفسك وطيري من هنا قبل ما حد يلحك.

أدارت السيارة، مشت على نفس الطريق الذي اعتادت العودة منه، غير أنها بلا وعي، وجدت نفسها في طريق آخر يمتلىء بالكباري، يزدحم بإشارات مرور وعربات على عجلٍ بأسفلت سريع.

الدنيا تتشوش أمام عينيها، الضوضاء تزيد بكتها، زغللة عينيها تزداد، وجوه منها تقترب وتبتعد حيث لا توجد أصلاً، العربّة النقل تُواجهها في اتجاهها الصحيح، حيث تسير هي في الاتجاه المُعاكس، بلا وعي.

مُحاولاتها في التفادي على استمرار، والتصادم حادث لا محالة، علا صراخها حيث وقع الصدام، فانقلبت بالعربة على باب لم يزل مُغلّقاً، ودماءً تسربت سائلة على الأرض.

بلا فائدة حضرت سيارة الإسعاف، التف الناس حولها، غطوا
جُثمانها بأوراق جرائد، فتشوا بحقيبتها عن أية إثبات لشخصيتها،
فوجدوا بطاقة باسم: سارة زيدان المصري.



اليوم زفاف رفيده، هي في حضرة الفرح تعتلي عرش عرسها،
تدلت من السيارة برفقة عريسٍ لم يُسلّمها له مُهاب.

عزف الآلات يعلو، وشباب الفرقة الغنائية يرتدون نفس الزي،
يصطفون لاستقبالهما على أنغام، المباخر تفوح، وبوابة النادي تنفتح
على مصراعيها لاستقبال المدعوين في طقوس الزفاف.

رباب تُرافقها الخُطى ودموع الفرح تنهمر، وداد تستند على عصا
بظهر مُنحني، وجسدٍ أثقلته الخطوات.

نفس الرجل بجلبابه المُرقع وجسده الذي أصبح أكثر سمنة، نفس
لحيته الكثيفة التي اعتراها الشيب تُواري ملامح وجهه الذي أصبح
أكثر امتلاءً، شعره الأشعث.. ويداه الفارغان سوى من وسخ الطريق.

يمشي بجوار السور الحديدي للبوابة، يلوح لرفيدة التي انشغلت
بالأصدقاء من حولها، ورغم ذلك نادتها نفس الأقدار لتلمحه بعينيها
عن بُعد.

تسمرت.. ودت لو تسأله من جديد عن حكايته وعن سر الطُرقات
التي تجمع خطواتهما في الأماكن الكثيرة.

الزحام حولها يمنع وصولها إليه، عيناه ترسلان لها البُشريات،
تُشاركها فرحًا غاب مُنذ سنوات، الخطوات في طقوس الزفاف تندفع
لنحو البوابة ليدخل الجميع ويغلقها الحارس.

وهو لم يزل واقفًا يرقبها، ولم تزل هي تتلفت خلفها لتلمحه عن
بُعد بنفس اندهاشات عينيها.

رباب بين الزحام تشغل بتأبط وداد، تحكي لها عن فرح ذلك
اليوم الذي طال انتظاره، تخبرها عن أمنياتها لو أن مُهاب كان الآن
موجود يشهد ذلك اليوم معهم.

وداد تسترق سمعاً أصبح ضعيفاً، تهز رأسها على ما تسمع وما لا
تسمع، ورباب تُواصل حديثاً يواسيها غيبة مُهاب.

ونفس الرجل يفترش الأرض تحت الجدار الحديدي المُجاور
للبوابة، يهز رأسه طرباً على أغنيات يزفون بها رفيدة لحياة جديدة
تنتظرها.



العم عویش فی حضرة الأحلام بین الیقظة والمنام یجوب الأراضین
بروح أصبحت تسکن جسداً هزیلاً لم یعد یقو علی الحركة، تقدمت
به السنون، فأنهکة الهرم.

صفارة القطار لم تزل تعلو بأذنه، الرصیف یتسع للمُنتظرین، حنین
تقف فی انتظاره بابتسامةٍ عریضة.. تستقبله بالترحاب.

الخُطی تأخذهما لساحة الحُسین، روائح النفحات تفوح، القدور
تغلي تحت الشعل، اللحم ینضج.. الموائد تتسع، وضيوف الرحمن
یقبلون من کل مکان.

کلمات الذکر تُرددها الألسنة، صور المترنحین تتقلب فی دماغه
التي تستند مُتعبةً فوق الوسادة.

یمد یده المُرتعشة لیتناول هاتفه المحمول ویتصل بحنین، نفس
صوتها الدافئ، یطمئنه أنها بخیر، وأنها تجوب ساحة الحُسین فی
حضرة ذکریاتها لصُحبته الحلوة، تدعو له بالشفاء وتجبره بالشوق
لرؤيته، تعلم أنه أصبح مُتعباً.

وربما لم یقوَ علی المجيء، لكنها تعرف أن حضرة الروح لا تنتظر
الأجساد، تقسم له أنه الآن یصحبها، وأن رائحة أنفاسه تعبق المکان من
حولها.

تتذكر كلماته: «مصر بعيدة على أبو جحش»، كان يقول لها تلك العبارة وهو يضحك، فهي مضرب مثل لمن يصعب عليه الطريق، كما أن راكب الجحش يصعب عليه قطع المسافات إلى مصر.

نفس الشوادر التي اتسعت بالمريدين من كل مكان، نفس أرض المسجد تفترشها جباه المُصلين، نفسها حنين تحكي له عن الحضرة التي يرتادها وهو هناك.. على وسادته، فوق أرضٍ عند مسافات بعيدة.



صافيناز تتوارى في جانب من الحانة على نفس المنضدة المُواجهة لغيبة مُهاب، تترنح بين اليقظة والحلم، تعلن سبابها لزيدان وأيام زيدان، تسأل عن سارة، فيخبرونها كذبًا أنها سوف تعود، كلهم يعرفون أن سارة أبدًا لن تعود.. إلا هي.

توصيهم أن يُجهزوا لها غرفة خاصة، وأن يُعلقوا بها البلالين الحمراء احتفالًا بعودتها، فيعدونها بذلك.

تُواجه خيال سارة، تُحدثها عن قرب وكأنها تجلس أمامها، تحتضن دبديبًا من الفراء كانت تحبه سارة فتضعه في حجرتها، تسأله عن سارة، تصرخ فيه أن يرد، تعود وتربته.. وهي تبكي.

تجوب بعينيها - المُتورمتين من أثر البكاء - أنحاء الحانة، فتتأكد أن سارة غير موجودة.

تنظر من جديد للدبدوب، تُوصيه أن يخبرها بأنها حقًا تحبها ولا تستغني عنها أبدًا، بأنها لم تقصد أن تهملها يومًا، وأنها لو عادت ستفسح لها مكانًا في حضنها لن تُغادره أبدًا.

تقسم أنها كانت ضائعة، فلذلك أضاعتها أيضًا، تسأله من جديد: هل ذهبت سارة عند مهاب؟! أين هي؟! وأين هو؟!

تقوم مذعورة: أين أنا؟! من أنتم؟! يلتفون حولها، يتأبطونها لحجرتها في الطابق الثاني من طوابق الفندق حيث تروح في نومٍ يريحها من ذلك العذاب، فلا تلبث أن تعود إليه.



ديدي في نفس الحانة، ليست كما هي، الشحوم المُتراكمة اثقلت
حركتها فلم يعد خصرها يستدير على هز هزأته مُداعبًا أعين الرجال
وعقلهم الذي غيبته الخمر، نهذاها تهدلًا، المساحيق تُغطي تجاعيد
وجهها التي تظهر عن قُربٍ لأول وهلة.

صوتها يُجلجل في الأنحاء، يدوس جنونها الذي يابى الاعتراف
بأن أنوثتها تكهنت.

تمضي بين الموائد في خطوات مُتمهلة بمؤخرة مُترامية فتثير
السُخرية، ترفع يديها خُصلات شعرها الذي أصبح هشيمًا تذروه
الرياح.

تجوب بنظراتها بين الحاضرين على مُحاولات التقاطِ زبون
واحد، فمُذكرتها أصبحت خالية من مواعيدها، تكتظ بهواتف أعضاء
شبكة دعارة تديرها في الخفاء، اقتصر الآن دورها على توصيل الخدمات
للمنازل، مُقابل عمولة تتلقفها من الزبائن.

ليلها يطول على وحدتها في حجرة فوق أحد الأسطح، ليس بها
سوى سرير ومنضدة عليها علب الأدوية، زجاجات الخمر وأصناف
المُكيفات التي لم تهجرها يومًا.

تجتز ذكرياتها، تتحسس أجزاء جسدها على ذكرى شبابٍ هجرها،
تنظر حولها لمظاهر فقرٍ يُذكرها بأموالٍ طائلة.



زيدان المصري في حضرة زنزانة، يفرش البلاط الأسود، يتفرص
تحت جدارٍ عالٍ به نافذة حديدية صغيرة لا يطل منها شعاع ضوء.

الندم لا ينفعه شيء، يبكي أطلاً من الذكريات، عيناه جاحظتان
مُتجرتان، ترى غيباً مضى ولن يعود، يستدعي طائرته الخاصة لتطير
به بعيداً عن هذه الأرض فلا تأتيه.

يتذكر وثارة فراشه القطيفي الناعم حيث يضع الآن جنبه المُنهك
على جلب ترطب عظامه فيتتظر كساحاً لا شك سيأتيه.

يشم رائحة السيجار على أصابعه التي أصفرت أطرافها من أثر
أعقاب سجائر يلقيها له السجنان ساخرًا.

شبح سارة يأتيه في الظلام، بين النوم واليقظة، يداها مُلطختان
بدماءٍ حادثها الذي ظل على حداثة عهده لم يتقدم في قلبه رغم مرور
السنوات.

يستند على يديه مُتألم الركبتين، يُحاول الانفلات منه فيطارده بين
زوايا الزنزانة، صرخاته تعلو، يستغيث.. فلا يجد رداً سوى بدلو ماءٍ
مُثلج ينفذ من تحت الباب المُغلق، يزيد صراخه، فيعلو صوت السجنان
زاجراً: اخرس يا عنبر ٨، وإلا أنت عارف.. ولا تحب تعرف تاني؟

يتذكر لسعة الصاعق الكهربائي، فيعود لبعض وعي غاب، يسقط
مُتهدلاً، يتمدد فوق الماء البارد في ليلٍ شتوي، فلا ينطفئ لهيب عذاب
يتلبد به.



نوال مُمددة فوق السرير، تجوب سماءات المجد، الآن روحها تهفو
لآخر مطافها هناك في حضرة الأحباب، حِنَّه تُرفرف بجناحيها النورانيين،
تلقاها بابتسامةٍ، الخواجة صبحي يتلقفها بين أحضانه مُرَحَّبًا.

الآن فقط غاب عنها الألم وسكنتها الأفراح، تخلصت من أدناس
جسدها الثقيل لتكتفي بخفة روح، تطهرت من الدنيا لتتنحى إلى الأبد.
الباب يُطرق.. لكنها لم تعد موجودة، الجيران يُنادون عليها فلا
تسمع أحدًا، النداءات تعلو.. وتعلو، الطرقات تزداد ونوال غابت عن
الجميع.

كسروا الباب.. تأكدوا أنها فارقت الحياة، قدموا لبعضهم البعض
التعازي لفقدائها، وهم يضربون كفوفهم كَفًّا بكفٍ، ويسبون دنيا فانية لا
تدوم، أسرعوا لتجهيز مراسم الدفن حيث إكرام الميت.



حورية في حضرة المرض اللعين ترقد فوق فراشٍ وثير في حجرةٍ
واسعة لها شباك تنفذ منه الشمس، تلتقط الأنفاس على وئدة نهاية تقترب.
ابتسامتها تنفجر على سخرية الأقدار، شقتها هناك في الحارة
الضيقة، المدخل إليها لا زال على انحدارٍ يشبه منحدرات القبور تحت
الأرض، يعلو بابها قفل حديدي صَدَأ.

هي الآن هنا في دورٍ شاق، تنتظر من يحملها، يوارىها تحت الثرى،
لأبدٍ غيابٍ عن الحياة.

الضوء ينفذ من الشبابيك، وعتمة نفس الحارة تسكنها، تُطاردها،
تخرج لها لسان الكيد.

أطباق المَزَّة على مائدة السفرة تُجاور زجاجات الخمر الفارغة
التي تسببت في اهتراء كبدها فأوشكت على الموت، أنفاسها بين
الغياب والوعي تروح وتجيء، وذاكرتها بين الحانة، والحارة تتخبط
فتظل في غيبتها لا تفوق.

تروح للجبانات، تُنادي أمها التي أصبحت تُراباً فوقه تراب، تقسم
لها أنها كانت تنوي التوبة، لكن الأيام مرت على عجلٍ لم تشعر به،
تستحلفها إن هي راحت إليها أن تلقاها، أن تتقبلها، أن تشفع لها عند
ربٍ كريم غافر الذنب شديد العقاب.



حماده وينجز في عنبر المساجين لازل يُمارس المعلمة، يوزع عليهم تخميسة الحشيش التي جاءت من آخر زيارة، فصيانه يأتون له بالمعلوم.. داخل السجن.

هو يحكي لهم عن أمجاده، وعن قهوته المشهورة، عن كرسيه المذهب، ومسكنه العالي، يؤكد للجميع أن حماده ونجز معلم ولا أي معلم.

السيجارة المُمعمة تلف على أنفاسهم، فكل واحد يلتقط منها شهقة، الرائحة تعبق العنبر، والأدمغة تصبح بين بين تتطوح، منهم من يُصفق، ومنهم من يُنادي غائبًا، وآخر صوته يرتفع بقهقهات بلا سبب. أما حماده وينجز فهو رغم اهتزاز دماغه على كامل وعيه؛ فالصنف ليس جديدًا عليه، وأثره ليس نفس الأثر الذي هم عليه، هو يزعم بهم: فوق يلا منك ليه، أنا المعلم حماده.

يُصفق بيديه: واحد قهوة سادة.. سادة يلا.

العنبر يصبح على نصف جنان وعقل غاب مُعظمه عن الجميع بأثر صنف حماده الذي لم يذوقوه من قبل.



أسماء في حضرة الشيخ، الخطي تأخذها إليه.. بلا إرادة، أو بإرادة
مسلوبة، الموعد الأسبوعي أصبح بالنسبة لها مُقدَّساً، حيث تنساق
إليه، المساء يسرق خلوة في حضرته.

هي في أحضانه تلتقط أنفاسه، تنهار فيه وتطلب المدد منه، وهو
منها ينهل، يتزود نوعاً من العشق لم يُحدث عنه أحداً، هو عشق مُباح،
فلم يعد هناك شيء مُحرم على الشيخ، هناك في مقامه الأسمى الملذات
مُباحة، فهي جزاء الواصلين وثمرة ما صبروا.

الأوقات في حضرتهما تمر على عقارب في عالم ليس بعالم البشر،
فالوصل الآن وصل روحي، هما يعرفان ذلك، ولا شيء في ذلك،
المقامات تسمح بكل ذلك.

أنفاسها في أحضانه تتهدج، هي بين يديه على الأرض يرتشف من
شفتيها قبلات السماء ويطأ جسدها وطأة يدعونها فيما يعتقدون وطأة
الأنبياء.

عليها أن تجلب الكثيرين لهذا الطريق، لعلها يوماً تنتصب مريدة.



لا زال يمشي مُتهدِّلاً بنفس الجلباب المُرقع، ونفس المسابح
المُعلقة في رقبته، يجلس تحت أحد الجدران يتأمل المارة صامتاً، لا
يدري كم لبث على حاله، ربما سنوات مضت، وربما لبث يوماً أو
بعض يوم.

لا يدري أهو في حضرة الأرض أم السماء، عيناه تنسبلان بين الحين
والحين على نوم لا يروح فيه وأحلام يقظة تجيء إليه.

ذاكرته تتشوش على أشياء لا يتذكرها ولا يستطيع نسيانها، قارورة
ماءٍ يرشف منها رشفة.. يشعر بعدها بلهب يشعل جسده، أوراق مطوية
على كلمات لا يسهل قراءتها، طفلة صغيرة تبسم له من بعيد، تُناديه
أن يعود.

أشباح تُراوده عن اليمين وعن اليسار، تدعه مُعلّقاً بين الحقيقة
والخيال، صوت لا زال يرن بأذنيه: هتبقى ولي من أهل الخطوة.

هرب حيث لا مفر، داخل رأسه أوامر لازالت تحبسه في دائرةٍ
وهمية، فهو بين الموت والحياة يلتقط الأنفاس، يُحاول الفرار كل يوم
لأماكن أكثر بُعداً عند ضريح يتوسل به أو في حضرة ذكر، أو ربما في
مسجدٍ بين المُصلين، أو تحت جدارٍ يُشاركه توهة صمتٍ يبحث فيها
عن عنوانٍ ضاع.



انتصار على سطح أحد البيوت، في بلدة بعيدة تقف على رأس حلقة، والسيدات تهز رأسها على كلمات الذكر المحددة التي ينطقونها، ليس لهن ان يتفوهن بكلمة زائدة حتى ولو كانت اسم الله الأعظم.

الجمل مربوط في ساحة الدار، نصل السكين ينتظر رقبتة الطويلة، فعندما يسيل دمه فوق الأرض يأتي بالبواب الكثيرون، أصواتهم تعلو باسم الشيخة انتصار.

يلتفون حولها.. يلتمسون البركة، يترقبون الرضا في عينيها التي أصبحتا جاحظتين من أثر الجمود.

من بيت المريرين تبحث عن واحد يلزم قدميها اللتين تنبريان بين الساحات وعند الأضرحة بالبلاد.

مضى مهاب معها سنوات طويلة، ومضى بعده كثيرون في نفس الطريق، ولا أحد يعرف عنهم شيئاً، لا أحد يعرف لهم عنواناً.

ذاكرة الأيام تشوشت عليهم فلم يعد لملاحمهم صوراً واضحة، لم يعد الواحد منهم كما هو على نفس الشاكلة.

أصبحوا بجلايب مرقعة فوق أجسادٍ مُتهدلة يسرون بخطوات تائهة، وجوههم مطموسة الملامح خلف لحى كثيفة وشعور شعناء يختنقون بمسابع تلتف حول رقابهم، هم يجوبون الأراضي.. وانتصار لم تنزل تبحث عن آخرين.

هي على الطريق ماضية، فعنه لن تحيد، في كل يوم حضرة وفي كل يوم مريد جديد، صيتها يذيع.. وأصحاب العلل موجودون حولها يلتفون.

تعدهم بجنات عدن.. وبقصور الفرديس تضمن لهم الآخرة على كف رضاها، تصف لهم كيف يُخلقون في السماء ويعودون من هناك بشريات تجعل الحياة أكثر حلاوة والآخرة أكثر ضماناً.

الحلقة حلوها تتسع والعزة بالإثم تأخذها فتعلن أنها من العارفين وأنها ستصبح يوماً من غير المُكلفين؛ فأولياء الله بعزمه يمضون وبقوته هو يستعينون، فهم الواصلون، تحكي عن الكرامات.. وكيف تكون المعجزات.

نست أن لكل طريق نهاية.. ربما لا نراها، ولكنها حتماً آتية، فالجزاء واقع لا محالة.



كل في حضرته سائح، الأرض تتسع لمزيد من الحضرات، على
مختلف الشاكلات، فحيث تحط الأفكار برأسٍ فهناك حضرة.

للشيخ حضرته، وله مريدوه.

للفن حضرته، ومن قدّسوه

للهوي حضرته، ومن تعاطوه.

والحضرة الحقيقة حيث تصفو القلوب، وترق النفوس، وتهفو
الأرواح، فيصبح بين الأرض والسماء خطوة، وبين الواقع والغيب
هفوة، تلك هي الحضرة.

عند أعتاب ربِّ هو من جبل الوريد أقرب، من غاب عن حضرته
تاه في برّيته.



حقوق الطبع محفوظة للناسر



أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامي

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناسر